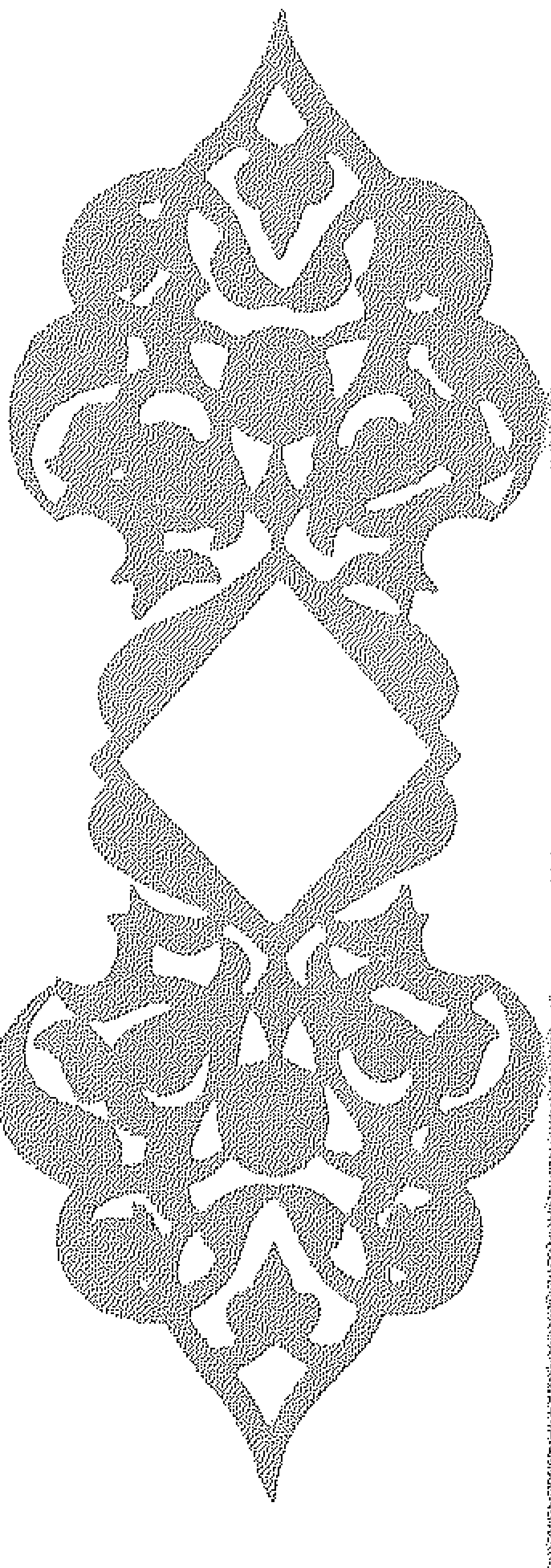
مستقبل الحضارة

بين العلمانية الشيوعية الإسلام



المختار الإسلامي

يوسف كمال محمد

مستقبل الحضارة

بين العلمانية والشيوعية والإسلام

إهداء إلى
مكتبة الإسكندرية
من

يوسف كمال محمد

لواء أ.ح
محمد ضياء الدين زهدي

المختار الإسلامي

للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ١٧٠٧ ـ القاهرة
تليفون ٩٣٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م

مقـــدمة :

الحضارة فى لغتنا تعنى حيـــاة الحضر .. ومفهومها المباشر الاقامة الثابتة فى القرى والمدن . وعكسها البداوة ومفهومها التنقل في البوادي وعدم الاستقرار .

والمعاجم الحديثة تعرف الحضارة « بأنهـا مظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والاجتماعى فى الحضر » .

وقد استعمل ابن خلدون الكلمة كثيراً وشرحهـا وعرفها فى غير موطن (من مقدمته) وخلاصـة كلامه فيها « أن الحضـارة فى الأمصار من قبل الدول ، وأنها ترسخ باتصـال الدولة ورسوخها وأنها أحوال عادية زائدة على الضروري من أحـوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه . وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة تفاوتا غـير منحصر . وتقـع منهـا عند كثرة التفنن فى أنواعهـا وأصنافها فيكون بمنزلة الصنائع ، ويحتاج كل صنف فيها الى القومة عليـه والمهرة فيه »(1) .

وعلينا أن نقابل فى لغتنا الحـديثة بين ألفـاظ ثلاثة هى : المدنية ـ الثقافة ـ الحضارة .

المدنية Civilization لغة من مادة مدن وتمـدن متصلة بالمدينة والعيش فيها وهى فى عرفنا الجـارى تعنى الجانب المادى والمظهرى فى الحيـاة من بيئة طبيعية ومنشآت انسـانية وطيبات انتاجية وما يرتبط بها من قوانين ولوائح وعرف وعادة .

والثقافة : Culture لغـة تعنى التشذيب والتهـذيب

---

(1) مقدمة ابن خلدون من ص ٨٧٠ : ٨٧٧ تحقيق وتعليق د. على عبد الواحد وافى ج ٣ . راجع : التوجيه الاجتماعى فى الاسلام ج ١ مقـال : د. سليمان حزين/والأستاذ : محمد خلف الله أحمد .

والتقويم والخدمة والفطانة وتعرفها اليوم على انها ما يقابل المدنية من الناحية المعنوية فى حياة الناس بما فى ذلك ما يتصل بالروح والفكر والعقل والذوق والمشاعر فهى تعنى الحياة الروحية والفكرية والعلمية والأدبية والفنية ٠

والحضارة بمفهومها الحديث هى جماع المدنية والثقافة ٠ أى الحياة بأحاسيسها وأشواقها بتقاليدها وتطلعاتها وهى اذن المؤشر الذى يميز بين شعب وشعب وتاريخ وتاريخ لهذا كان منها القديم والحديث والشرقى والغربى ٠

وهذا المبحث لا يناقش القديم ولا يفحص تاريخ الحضارات وانما يناقش الواقع الحضارى متطلعا الى المستقبل ٠

لقد تسلم الغرب قيادة العالم بحكم تفوقه المادى فارتبط مصير البشرية به وبلغ رقيه المادى حدا لم تصل الانسانية اليه من قبل ٠ الا أن هذا التفوق ما هو الا مجرد قشرة سطحية تحمل فى داخلها بركانا من الفوضى والقلق ٠ انه كالجسم المتورم يملأ العين مهابة عن بعد وهو ملئ بالأمراض والآلام ٠ وهو مناقض للفطرة ولهذا يظل فى حرب معها يصلى لهيبها الا اذا أذن الله للفطرة أن تنتصر٠وبلغ هذا الاتجاه مداه فى الشرق الشيوعى حيث عبدت المادة صراحة واعتبرت سر الكون ومحركه وأوله وآخره ومادته وغايته ٠ وترتب على هذا ضمور الانسانية فى الانسان وبروز الحيوانية الشهوانية فى حياته ونفسه وروحه ٠

ان جوهر الحضارة اليوم كما يشهد به الواقع أساسه الدافع المادى فحسب ليس لها هدف سوى الرغبة فى القوة ٠ أما المثل العليا فلم يعد لها وجود فى قاموسها ٠ فلا يعرف اليوم العالم دينا سوى التعبد للمادة وجعل الحياة أكثر متعة وأيسر جهدا ٠ ومعابد هذه الديانة هى المصانع الضخمة وساحات الرقص والفجور ورواد هذه الديانة هم الفنيون وكواكب السينما ودور اللهو ٠٠

٠٠٠ والى أين تتجه الحضارة ؟ تتجه نحو مزيد من الجنون

واليأس والانتحار تتفنن فى ارهاق البنيان المادى للانسان والنسيج المكون للأسرة وتطفىء شعلة الروح فيه بالتمرغ فى أوحال الشهوة والرذيلة وتتنافس فى تطوير أدوات الهـــلاك وتسعى بمخالبها فى تمزيق كيانهـــا دون تدبر ووعى وقد تخلت ـ بزعم من ضرورات الواقع ـ عن القيم والمثل والأخلاق •

والعالم الاسلامى اليوم وهـــو بين فكى الشرق والغرب يهتز ويموج بين قيمه وتاريخه من جهة وبين الشرق والغرب من جهـــة أخرى كالســـفينة فى بحر متلاطم الأمواج عاصف الريح • فهـل يستجيب لرب العالمين فيوجه دفته على هدى القرآن المجيـد فينقذ نفسه وينجى العالم من دمار محقق وعذاب مقيم •

ان هذا المبحث ليس دعوة حماسية تلقى من خطيب وليست عموميات أدبية تتوه بنـــا فى دوامة من المشاعر • انها دراســـة مصيرية من هـــدى كتاب الله تناقش الجاهلية المحيطة بنا بصراحـة ووضوح ثم تبين حضارة الاسلام فى منطق علمى موضوعى داعيـة الله أن يأخذ بيد الأمة المسلمة فتتوحد على كتاب الله وتشهد شهادة الحق على الناس •

يوسف كمال محمد

القاهرة : صفر ١٣٩٤

الباب الأول

الغرب العلماني

الغرب العلماني

ان الغرب اليوم قد تخلى عن دينه وعبد العقل والعلم • وهذه الفلسفة تسمى بالعلمانية Secularism وهي التى ميزت عالم الغرب اليوم وتسللت الى كل جوانب الحياة فيه •

(وثمة أربعة افتراضات أساسية يقوم عليها المفهوم الليبرالى للتاريخ :

الأول : الاعتقاد بأن التقدم البشرى يمكن أن يقاس بمقاييس علمانية وأن المقاييس الخلقية العلمانية التى لا تتجاوز مجال المصلحة البشرية الزمنية تكفى لتفسير تاريخ البشر وتنظيم شئونهم •

والثاني : هو مذهب امكان تحقيق الكمـــال البشرى تحقيقا غير محدود •

والثالث : الاعتقاد بأن القول بوجود الحقيقة الموضـوعية فى دراســة التـــاريخ والمجتمع البشرى قول ملىء بالمعنى • وان الذكاء وحسن النية يمكن أن يرقيـــا الى مستوى من الحيـــاد لا يحد منه الشذوذ الشخصى أو المركز الاجتماعي أو الوضع التاريخى • ولذلك يجد هذا الافتراض معنى كبيرا فى اعتبار التقدم فى العلم الاجتماعى امكانية موضوعية ويتوقع من مثل هذا التقدم أن يعطى الانســـان قدرة متزايدة للسيطرة على مصيره •

وأخيرا ثمة اعتقاد بأن المجتمـــع يمكن أن يعالج فى حـدود أجزائه ، وليس من الضرورى أن يفهم أو يعاد تكوينه كلا واحدا أو دفعة واحدة وهذا هو الاعتقاد بأن التقدم الاجتمـــاعى يمكن أن يتم بواسطة وسائل تشريعية أو قضائية أو ادارية تنظم قصدا من أجل ذلك وعن طريق اعادة بناء النظم البشرية قسما قسما ، لا عن طريق الاهتداء الروحى أو الدعوة الخلقية لتطهير القلوب أو تدخـل القوى

الخارجية الفجائى)(١) ٠

وظهر ذلك الطابع العلمانى ليكون بديلا عن الطابع المسيحى فى المجتمع الأوروبى ثم المجتمع الانسانى بعد ذلك ٠ وتبلور هـذا الاتجاه بعد قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ، على اثر الصدام الدامى مع الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى التى كان لهـا السلطان على الناس بدعوى النيـابة عن الله وكان لابد أن يرفض المجتمع دعوى الكنيسة ويرفض معها كل ما بقى من بذور الايمـان التى لم تمت ٠ ومن هنـا نشأت فلسفة فصـل الدين عن الدولة للتحرر من سلطة الكنيسة ٠

* * *

---

(١) أزمة الانسان الحديث ص ٥٤ ، ٥٥ تشارلز فرنكل ٠ ترجمة : نقـولا زيادة ٠

أزمة الدين فى الغرب

لقد تنحى الدين عن حياة أوروبا بعد هزة عنيفة أصابته منذ العصر الوسيط وترجـع هذه الهزة الى أسـباب يتعلق بعضـها بالمسيحية نفسها • ويرجـع البعض الآخر الى سلوك رجال الدين ونوجز هذه الأسباب فيما يلى :

١ ـ لقد كانت سيادة النصرانية على روما عن طريق قسطنطين نكبة عليها • يقول أبو الحسن الندوى : « ولكن انتصر النصارى فى ساحة القتـال وانهزموا فى معترك الأديان ، ربحوا ملكا عظيمـا وخسروا دينا جليلا • لأن الوثنية الرومانية مسخت دين المسيح ، وكان أكثر مسخا له وتحريفا هـو قسطنطين الـكبير حامى زمار النصرانية ورافع لوائها • يقول «درابر» : دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطـيرة ومناصب عاليـة فى الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانيـة ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ولم يخلصـوا له يوما من الأيام وكذلك كان قسـطنطين ـ قضى عمره فى الظلم والفجور ولم يتقيـد بأوامر الكنيسة الدينية الا قليلا فى آخر عمره سنة ٣٢٧ م • ان الجماعـة النصرانية وان كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ولـكنها لم تتمكن من أن تقطـع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتهـا ، وكانت نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئهـا ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء ، وهنالك يختلف الاسلام عن النصرانية اذ قضى الاسلام على منافسه « الوثنية » قضاء باتا ونشر عقائد خالصة بغير غش(١) •

٢ ـ والمسيحية كدين تتمها التوراة فالانجيل مصدق لها •

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٦٦/١٦٧ •

وقد حرف اليهود فيهـــا ما حرفوا واضطهدوا المسيحيين اضطهادا أبعدهم عنها وكان الواجب أن يسلم الزمام الى الاسلام الرســالة الخاتمة ليقود الانسانية الى غايتها حتى يرث الله الأرض ومن عليها. فواجه المجتمع الأوروبى حين نهضته عقيدة تعجز عن تنظيم المجتمع ودفعه الى الأمام فكان لابد أن يثور عليهـــا وأن يعتمد على قدراته المحدودة ونزواته فى التخطيط لمجتمعه .

ويذكر « اقبال » أن « ماومان » فى كتابه رسائل عن الدين يعلل فصل الدين عن الدولة بقوله : « ان المسيحية البـــدائية لم تجعل قيمة ما لحفظ كيان الدولة ولم تحفـــل بالتشريع والتنظيم الانتاجى ، بل انها لم تفكر فى أحوال المجتمع الانســانى قط ومن ثم فاما أن تتجه الى أن تكون من غـــير حكومة فنلقى بأنفسنا بين براثن الفـــوضى متعمدين ، واما أن نقرر بأن تكون لنـــا عقيدة سياسية الى جانب عقيدتنا الدينية »(١) .

ويصل « جون استيوارت » فى هذا النقد المسيحى الى القول: « وبينما يحتل الواجب نحو الدولة مكانا واسعا فى أخـــلاق الأمم الوثنية ويطغى أحيانا حتى على الحرية الفردية ، فاننـــا لا نجد فى الأخلاق المسيحية الخالصة أى التفات الى ذلك الركن الكبير الذى هو الواجب ، أو حتى الاعتراف به . ان القـــاعدة التى تقول : « ان الحاكم الذى يعين شخص فى وظيفة بينما يوجد بين رعيته من هـــو أكفأ لها منه ، انما هو آثم نحو الله والدولة » ، هى قاعدة نجدهـــا فى القرآن لا فى العهد الجـــديد ، وان ما فى الأخلاق الحـــديثة من اعتراف قليل بالواجب نحو الجمهـــور ، انما هو آت من مصـــادر اغريقية ورومانية لا مصادر مسيحية ، وأما أخلاق الحياة الخاصة ، فكل ما فيها من فكرة الشـــهامة والنبل وسمو التفكير والـــكرامة الشخصية وحتى الحس بالشرف انمـــا هى مشتقة من ذلك الجانب الانسانى فى تربيتنا لا من الجانب الدينى . وما كان له أن ينبثق

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ص ١٧٩

من معيار فى الأخلاق لا يقيم وزنا الا للطاعة »(١) ·
وبلغ هذا السخط قمته بسلوك رجال الدين · فلقد أضافوا الى الدين اختلافات ليست منه اعتبروها نهـــاية العلم ومزجوا به فلسفة أرسطو وأجبروا المنطق والعلم أن يسيرا دائما وفق هـــذا المزيج ·

ولقد اقتصر حق تفسير الكتاب المقدس على البـــابا وأعضـــاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى وسوى فى الاعتبـــار بين نص الكتاب المقدس وفهم الكنيسة الكاثوليكية عنه ·

وكان أغرب ما حـــدث هو فضيحـــة صك الغفران · وصك الغفران قطعة من الرق يبذل فيها الوعد للمذنب لقاء قدر من المال بانقاص المدة التى سوف يمكثها فى المطهر ، وكانت هـــذه أحسن وسيلة لجمع المال ·

وكان على العلماء أن يختاروا بين الدين والعقـــل فاختاروا العقل وأخذ رجال الكنيسة فى التنكيـــل بالعلماء حرقا وصلبا وسجنا · فمثلا « كوبرينكس وجاليلو » اللذان لا ينكر فضلهما عن العلم قد اضطهدا نتيجة لفكرة الكنيسة الأوروبية عن الوجود ومركز الأرض فيه · وكانت محاكم التفتيش وسجونهم مثـــار ذعر بين الناس · وكان لصراع الكنيسة مع العـــلم السبب المباشر لظهور الاتجاه التجريبى المادى وما صاحبه من فهم للدين على أنه خرافة وأساطير ·

٤ ـ وزاد الأمر سوءا باقبال رجال الدين على الدنيا واقتنـــاء الاقطاعيات والقصور فارتبطت مصالحهم بالطبقة الغنية واستغلوا الدين فى تخدير الفقراء ومنعهم من المطالبة بحقوقهم · لقد كانت معيشة القسس وترفهم يفوق ترف الأشراف واستحوذ عليهم الجشع وحب المال حتى أن المناصب والوظائف تباع علنا ووصل بهم الأمر أن يرابوا ويرتشوا ·

(١) بحث فى الحرية · جون استيوارت ص ١٢٥ ، ١٢٦ · ترجمة : دار اليقظة العربية ·

لقد حاربوا الناس فى عقولهم وسلبـــوهم أرزاقهم فامتلأت النفوس بالمـرارة واشتعلت بالحقـــد وكانت النتيجـــة غـاية فى السوء .

لقد كان شعار أشهر ثورتين فى أوروبا دليلا على مدى سخط الناس على رجال الدين ونفورهم من الدين فمن شـــعارات الثورة الفرنسية (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس) . ومن شعارات الثورة الشيوعية (الدين أفيون الشعوب) . وغـــالى الفرنسيون خصوصا « فولتير » فى تمجيد العقل فى عصر التنوير حتى أنهم اتخذوا امرأة حسناء من نساء باريس رمزا أطلقـــوا عليه (الهة العقل) وأخذت العقيدة الدينية فى الذبول حتى أصـــبح الالحاد مفخرة الأندية حتى أندية الكنيسة نفسها . وانتشرت النزعة المادية فى انجلترا أيضا ووجدنا « هوبز » وهو من كبار فلاسفتها يقول : « ليس فى الوجود الا ذرات الفراغ(١) .

* * *

(١) قصة الفلسفة الحديثة ـ أحمد امين ، زكى نجيب محمود ـ ص ٢٥٠/٢٥١

الفصـــل الثـــانى

فلسفة الغرب

افتتح الفلسفة الحديثة لحضارة الغــرب فيلسوفان شهيران أولهما « ديكارت » واضـــع منهج البحث الاستنبــاطى ومن ورائه أتباعه الفرنسيون والألمان وغيرهم • ثانيهما « فرنسيس بيكون » واضع منهج البحث التجريبى ومن ورائه المدرسة الانجليــزية • وكانت هذه الاتجاهات ثورة على المدرسيين الذين تابعوا « ارسطو » وتزعمهم القس « توما الأكوينى » بعد أن شل القياس أخص ما فى المنطق الارسطاطاليسى حيث شلت القــوى الفكرية وحبست حرية البحث •

ولقد لاحظ المؤرخون التشابه بين « ديكارت وبيكون » فى ربط الفلسفة بالحياة العملية فالغاية من الفلسفة ليس مجرد العلم كما ذهب ارسطو وانما تحقيق رفاهية البشر •

فالفلسفة العقليـــة وان بدأت بتمجيد العقـــل والاشـادة بسلطانه الا أنها كانت كفلسفة التجريبيين فى اتصـــالها بالحيـاة العملية(١) •

وكان أثر « بيكون » كبيرا اذ اندفعت أوروبا وراءه تثق بالعلم ولا تؤمن الا بالتجــربة وظهر الفيلســـوف الفرنسى « كومت » Compte فى القرن التاســـع عشر سنة ١٧٩٨ م ـ سنة ١٨٥٧ م فأسس المذهب الوضعى Positivism وهى فلسفة لا تعتبر شيئـا حقيقيا واقعيا الا ذلك الموضوع الوضعى الذى جاء اثر التجـــارب الحسية وأمكن اختياره بالحس وكان معنى هـــذا اخراج الأفكـــار الروحية والغيبية من أى نظرة الى الحياة حيث الطبيعة هى المصـدر الوحيد وما وراءه فهو وهم وخيال •

(١) اسس الفلسفة (توفيق الطويل) ص ٣٧ ، ٣٩

ولـــقد كان « لودفيـــج فيورباخ Ludving Feurbach» سنة ١٨٠٤ ـ ١٨٧٢ م تلميذا لكومت وتتضح أهمية هذا الفيلســوف فى أنه كان همزة الوصل بين « هيجل وماركس »(١) •

ولابد أن نتوقف هنا قليـــلا عند رواد المدنيـــة الأوروبية المعاصرة « دارون وماركس وفرويد » ويعتبر « دارون » أهمهم حيث ابتكر نظريته فى التطور وأصـــل الأنواع تتلاءم مع ذلك الاتجـاه المـادى الذى غزا أوروبا وذلك انه اعتبر الانسان حيوانا مترقيا من الأميبا Ameba وبهذا يقرب للعقل نفسيرا للوجود والانسان على أساس حسى عقلى •

و « فرويد » على نفس الدرب نسج بنسيج « دارون » فى الدراسات النفسية وفسر السلوك البشرى على أســـاس الغريزة الجنسية • فالجنس هو المحرك الأول والدافع الأصـــيل للانسانية ويشمل هذا التفســـير الفرد والجمـــاعة والأخلاق والدين والفـن والـفكر •

وأكمل « ماركس » الحلقة فى العلوم الاجتماعية فرسم حلقة التطور الاجتماعى على أنه لا يحركها سوى الاشباع المادى وأن أدوات الانتاج هى التى تطورت بالانسان ، فأثر آلات العمل الغابرة تؤدى للباحث فى أحوال المجتمع الماضية مهمة كالمهمة التى تؤديها عظـام الحفريات للباحث فى تطور الانسان من حيوان ، وكيفية صنعهـــا تبين لنا هذه الأدوار وما الفكر والدين والفن الا انعكاسات لهـــذا الواقع المادى •

ولقد ساد الفكر الامريكى منذ أواخر القرن المـــاضى المذهب العملى « البراجماتزم » هذا المذهب الذى يقول بأن الفكرة لا تكون فكرة الا اذا كان فيها ما يدل على نوع الســـلوك الناجح والا فهى وهم • فبدلا من الحكم على المعنى بالرجوع الى أصوله أو بالاستدلال من مبادىء أولية ثابتة أخضع « وليم جيمس » صاحب المذهب المعنى

(١) الفكر الاسلامى الحديث والاستعمار • د• محمد البهى ص ٢٧٩ـ٢٨٢

لاختبار العمل فأخضع الفكرة للأشياء • وعند « جون ديوى » أن الفكر أداة كالمعدة والرجلين ، ومعيار الفكر هو بناء على ذلك قيام الفكر بأداء وظيفته أداء صحيحا ، أى فهم الحياة والتحكم فيها •

فالماركسية والبراجماتية هما القطبان اللذان يجذبان اليهما مستقبل المدنية الأوروبية فى العصر الحديث •

وقد تخدع العقول بعض مظاهر لا زالت باقية فى أوروبا من بقايا المسيحية بحيث يتصور أنها لا زالت مؤثرة فى المجتمع •فنجد من يقول أنه لا زالت للكنيسة سلطان فى توجيه السياسة الداخلية للمجتمعات الأوروبية الحديثة بل وعلاقة هذه الشعوب بعضها بالبعض الآخر • بل ان من الأحزاب السياسية التى نشأت فى المجتمعات الأوروبية الحديثة من حمل اسم الأحزاب المسيحية على نحو ما هو موجود فى بلجيكا وفرنسا وايطاليا وألمانيا وتتلقى هذه الأحزاب التوجيه والمساعدة من الكنيسة ، والمنظمات الدينية التى نشأت كالجزويت والفرير والبعثات التبشيرية والجامعات المتخصصة والأندية المتعددة فى المجالات الأدبية والسياسية والاجتماعية ، وفى نشاط الفاتيكان السياسى دليل يستمده القائلون بأثر الدين فى المجتمع الأوروبى الحديث حيث أن له اذاعة خاصة وصحيفة رسمية وتمثيل سياسى فى معظم دول العالم وهى كلها تقوم على توجيه المسيحية فى جميع أنحاء العالم وتدلى برأيها فى المسائل السياسية العالمية مما جعل نفوذ الكنيسة هاما على البلاد المسيحية •

الا أننا لا نستطيع أن نقول أن المسيحية هى التى توجه • فالمسيحية كما بينا تعجز تماما عن أن تكون قوى محركة للمجتمع ولهذا ملئت الثغرة بالاتجاه الوثنى الرومانى الذى يمثله فى العصر الحديث الأفكار المادية ماركسية وبراجماتية وخلافها • ان الذى بقى هو نفوذ الكنيسة وليس نفوذ المسيحية • وهذا هو تفسير ذلك الانحلال الاجتماعى الرهيب والانهيار الخلقى والروحى فى المجتمع •

لهذا لا نستطيع أن نعطى للمظاهر السابقة أهمية تذكر الا على أساس أنها مظاهر عاطفية لا تمتد الى واقع الحياة • أما الحركة الواقعية من تفكير أو منظمات اجتماعية فانها تستمد أصولها من العقل الانسانى فحسب • ان الانسان لا يمكن أن يعيش بلا عقيدة ولكنه يمكن أن يخالفها فى واقع حياته • وهذا هو السر فى ما نراه من تعصب الغرب للمسيحية من جانب واستبعاده لها من واقـــع حياته • انهـــا تعيش فى مشاعره ولكن لا سلطـــان لهـــا على غرائزه •

الفصل الثالث

اندحار الغرب

ونتيجة فساد اعتقاد أوروبا فقد انعزلت عن الاخلاق فسادت الميكيافيلية فى السياسة حيث الغاية تبرر الوسيلة والاثرة تظهر فى الاقتصاد بما سموه « الانسان الاقتصادى » والاباحية فى الأخلاق بسيادة التحليل الجنسى لفرويد ٠

ان الانسان المعاصر قد سلم قياده للغريزة حين قصر غاياته فى الاشباع المادى فصار أضل من الأنعام ان الحيوان ينظم غريزته تلقائيا أما الانسان العاقل الذى يعيش فى فراغ دون أمل نرى عقله يسير بغريزته الى الحد الذى يتلف النفس والجسم معا ٠

لقد غاص الانسان فى أعماق المحيطات وطار فى أجواء الفضاء وفجر الذرة ولمس القمر ولكن صخب الآلة ونذير الحرب والصراع على المادة قد أتلف حياته ، ان هذا العالم الغنى لا يستطيع أن يعيش فى سلام وهذا الانسان الذكى يحطم نفسه بالصراع ٠

ومدنية أوروبا اليوم تقوم على أساس الاثرة والأنانية ، وقد استحكمت بها الأهواء والشهوات واضطربت فيها الحقائق فاشتبه الحق والباطل ، ان العلم والرفاهية أصبحا من أكبر أسباب الشقاء والضياع للانسان ٠ لقد استخدم الطاقة من النار وارتقى بها الى الكهرباء ووصل الى ذروتها بالذرة ، ثم انه سكن القصور وتفنن فى المآكل والملبس الا أنه لا يحس بالسعادة فى نفسه ولا بالأمن فى وطنه ولا بالسلام فى عالمه بل صار خائفا يترقب حربا تدمره تدميرا ٠

ان دمار الحرب العالمية الثانية التى أهلكت عشرات الملايين من الناس وضيعت مئات الملايين من المال قريب من الأذهان ٠ ونحن الآن على أبواب حرب الفناء كلما تأخر ميعادها كان ابتكار وسائل

التدمير أشد . ولم يعد للذكاء الانسانى طريق للنبوغ سوى التفنن فى ابتكار آلات الهلاك . وفى الوقت الذى تظهر فيه جميع الدول اشمئزازها من الحرب نجدها تتسابق فى الاستعداد لها تسابقا يستنفد أكبر قدر من مواردها ومجهودها . كل هذا وكثير من البشر يعانون من الفقر والمرض ولا يجدون ما يسد رمقهم أو يشفى غلتهم . فهل هذه مدنية تليق ببنى الانسان ؟

وتتشابه هذه المدنية تشابها عجيبا مع المدنيـــة الرومانية . فمن ناحية تفسير الوجود والتاريخ نجد ذلك التشابه « يقول ليكى فى كتابه تاريخ أخلاق أوروبا : ان الحركة اليونانية كانت عقليـة وذهنية محضة ، وكانت الحركة المصرية بالعكس من الأولى ، روحية باطنية ، وينقل عن « أبوليس » المؤلف الرومى قوله « ان المصريين كانوا يعظمون آلهتهم بالتضرع والبكاء ، وكان اليونانيون يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء » . ويعلق عليه بقوله « لا ريب أن التاريخ اليونانى يصدق ذلك ويؤيده ، فلا نعلم دينا من الاديان يزاحم دين اليونان وتقاليده فى كثرة الافراح والاعياد والالعاب ، وفى قلـــة الخشية والخشوع فلم يكن اليونان يعظمون الله تعالى الا كما يعظمون شيوخهم وعظماءهم ، وكانوا يكتفون فى تعظيمه وتمجيده برسوم عادية وتقاليد جارية » .

وكان لليونان فلسفة الهية وعقائد يستغرب معها الخشوع لله وعبادته والتفرغ له والالتجاء اليه والاطراح على عتبته ، فان من ينفى الصفات عن الله تعالى ويعطلها وينفى عنه الاختيار والافعال والخلق والامر فى هذا الكون ، ويربط هـــذا العـــالم بما يسمونه « العقل الفعال وحركة الافلاك » فانه بطبيعة هذه العقيدة لا يقصد الله فى حياته العملية الا تقليدا .. ! »(١)

وغلبت الفلسفة الاغريقية على الروم وجرت فى دمائهم حيث لا خلاف بين الاثنين فى طريقة التعرف على الوجود وغايته

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٥٩

ويقول الراهب «أوغنستين Augnastine» ان الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم فى المعابد ويهزؤون بها فى دور التمثيل ..
يقول ليكى : « ان الدين الرومى كان أساسه على الاثره ولم يكن يرمى الا الى رفاهية الافراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب ، والشاهد على ذلك أنه ظهر فى روميه مئات من الابطال والعظماء ، ولكن لم ينهض فيها زاهد فى الدنيا عزوف عن ملذات الحياة ، ولا نسمع مثالا فى تاريخ الروم للتضحية والايثار الا وتجده لا تأثير فيه للدين ولكن مبنيا على الوطنية »(١) .

وكذلك منهج الحياة الذى انبنى على أساس هذا التفسير . فلقد وجد فى الاخيرة التفاوت الطبقى واستغلال الغنى للفقير الذى ظهر فى المدنية المعاصرة . حيث كان حال الفلاح أسوأ ما يكون من مزاحمة المالك الكبير الذى يستخدم العبيد ـ ولقد عاش الأحرار من العمال فى مستوى أسوأ من مستوى العبيد حتى أنه وجد فى كثير من الأحيان أن شراء القوة العاملة أربح من شراء العبيد . وكان لاحتكار المال الغلبة والسيادة على مجالات الحرية الفردية الاخرى وأصبح احتكار المال هو المحرك للفكر والسياسة والحكم . وكان من طبيعة النظام الرأسمالى الذى لا يقف أمام استغلال الأغنياء ولا يضع حدودا للكسب النظيف أن يزداد المحتكرون صولة وظلما ويزداد الجماهير فاقة وبؤسا . ومع الفقر أيضا بهتت فكرة الحرية التى قام عليها المجتمع الحديث . فأخذت صورا شكلية لا تستطيع أن تخفى لرثاثتها دكتاتورية رأس المال وسادته الذى خرب الذمم واشترى الضمائر واستعبد الأحرار .

وكان جنون الربح والسيطرة سببا فى استعباد الشعوب واستنزاف ثرواتها وانتقل الاحتكار من مظهره الفردى الى مظهره الدولى ، وصحب ذلك اراقة الدماء وازلال الشعوب وظلم الناس .

وكثيرا ما ارتفعت شكوى الناس من اضطراب الأمور وارتفاع أسعار السلع وانخفاض أجور العمال فى الوقت الذى كان يحتكر

(١) نفس المصدر ، ١٦٣ ـ ١٦٤

فيه الأغنياء الحبوب والمال • والفقراء يتضورون جوعا فى الأحياء المكتظة القذرة فى المدن الكبرى •

ولقد دب الفساد فى روما نتيجة تدفق الثروة من استعمار الشعوب ولحق الفساد أعضاء مجلس السناتور ، ويقول «جيبون» : « ان الاحتكارات المطلقة أصبحت تحمى بقوانين ، ويعلل وجودها بأسباب مصطنعة غير قانونية »(١) •

وانتشر الانحلال الخلقى والترف وصار كبار علماء الاخلاق من الرومانيين يعدون الزنا شيئا عاديا • وحتى « شيشرون Cisro » المصلح الشهير كان يرى عدم تقييد الشباب بأغلال الاخلاق ويرى ترك العنان لهم فى هذا الشأن •

وليس يخفى على أحد أن هذه الصورة طبق الأصل من حياة أوروبا اليوم فهى تستعبد كثيرا من الشعوب وتمتص دماءها وفى داخلها تستغل طبقة طبقة أخرى ويسود الاحتكار والربا • أما عن الترف والانحلال فلقد أصبحا بدعة أوروبا ومعرض تفاخرها فى ندواتها وصحفها ولقد كانت هذه الاسباب هى التى أرجع اليها المؤرخون انهيار المدنية الرومية • فشاع فى المجتمع المعاصر الادمان على المسكرات بين الكبار والصغار • وشاع تعاطى المخدرات كالهورين والكوكايين بين الشابات والشبان من طلبة الجامعات وتلاميذ المدارس الثانوية •• وأصبح هذا وذاك يكون مشكلة اجتماعية خطيرة فى البلاد التى تتمتع بالرخاء الاقتصادى كالولايات المتحدة وانجلترا •• وشاع الشذوذ بين الجنسين فى المجتمع الغربى المعاصر ، بحيث أصبح ينادى بعض ذوى الرأى باباحة الشذوذ الجنسى بين البالغين عند اتفاقهم ، بشرط أن يكون فى غير علانية ، وقد تقدم بالفعل بعض أعضاء حزب المحافظين فى انجلترا الى مجلس العموم البريطانى فى دورته فى نوفمبر سنة ١٩٦٥ ، بمشروع قانون يتضمن هذه الاباحة ، بعد أن تحسن جو

(١) مدنية الاغريق والرومان • بنيامين فارنجتون • ترجمة أمين تقلا ص ١٢٠ •

مجلس اللوردات للموافقــة على التعــديل فى دورته السابقـة (هيرالد تريبيون فى ٢٥-١٢-١٩٦٥) ٠٠ وانتشر الاتجار بعرى أجسام النساء ٠٠ وفى أوضاع شائنة مع الرجال ، تباع فى صورة مفردة ٠ أو تعرض فى أفلام سرية ، وفى استوديوهات ، وفى السياحة على شواطىء معينة ٠٠٠ وشاع الزنا بين المتزوجين والمتزوجات ، كما شاعت المعاشرة الجنسية قبل الزواج بين الشـبان والشـابات فى سن مبكرة فى مرحلـة المراهقة ، مما يعرف بالتجربة الجنسية قبل الزواج، وأصبح ذلك عرفا فى المجتمعات الصناعية فى روسيا وأوروبا وأمريكا - ان السلطة المختصة بمشاكل المراهقين والمراهقات تقول فى تقرير رسمى : أن حمل البنات غير المتزوجات وفى غير أمل لهن فى الزواج بمن حملن منه - يتزايد فى الولايات المتحدة الامريكية - وأن متوسط السن للأمهات غير المتزوجات ٠٠ هو السادسة عشرة من العمر - وتحدثت الدكتورة Bermice G. Sacha فى ندوة طبية فذكرت أن ستين فى المائة من البنات اللاتى يعقدون قرانهن الآن فى سن السابعة عشر فأقل حوامل يوم زفافهن - ان الشباب اليوم تائه ، وفى وضع اختلطت عليه الأمور ٠ فهـــو لا يدرى : أيؤثر الرشاقة ٠٠ أم الثرثرة ٠ أم الزواج ؟ - ان الرسم البيانى للنشاط الجنسى بين الشباب منذ الحرب العالمية الثانية يوضح أن هذا النشاط منذ ثلاثة سنوات تقريبا ٠٠ فى صعود وتزايد مستمر ٠ ان شباب اليوم يفعل الآن أساسا ما كان يفعله الآباء والأمهات ٠٠ ولـــكن يفعلونه فى تبكير عنهم ٠٠ مما كان ســـببا لوقوعهم فى حـــيرة واضطراب - كما انتشر تعاطى حبوب منع الحمـــل بين طـــالبات المدارس الثانوية ، والجامعات والكليات ، وأصبح يوصى المتخصصون من الاطباء والاجتماعيين باباحة تعاطيها - دون التقيد بالعـــلاقة الزوجية - كما انتشر الاجهاض للأجنة بين الفتيات الصغيرات ، وأصبح يطالب باباحتها على نمط ما فى المجتمع الشمالى الاسكندنافى والمجتمع اليابانى ، لا كوسيلة لتنظيم النسل ، ولـــكن كوسيلة لاعطاء فرصة واسعة للتجربة الجنسية - وزادت نسبة الطفولة غير

الشرعية زيادة تعادل نسبة الطفولة الشرعية فى بعض المجتمعات بين المتزوجات وغير المتزوجات وأصبحت الزوجة أما لولد غير شرعى من رجل آخر ليس زوجها ، ولدته فى فراش الزوجية وفى العلاقة الشرعية القائمة ــ وشاعت الأمراض التناسلية السرية شـيوعا ذريعا يشكل خطرا واضحا على المجتمع المعاصر وعلى الأجيال البشرية القائمة وكان من العوامل الرئيسية فى انتشارها يسر الحصول على حبوب منع الحمل ، بعد ذيوع انتاجها ورخص أثمانها(١) •

وترى « كارن هورناى Karn Harney » الامريكيـة وأحد مؤسسى مدرسة التحليل النفسى الجديدة أن الحضارة الحديثة تذخر بشخصيات عصابية معتلة ، يمكن أن ترد الى صراعات ثلاثة نجمت عما يسود النظام الرأسمالى من متناقضات •

١ ــ صراع بين التنافس المصطنع بالتحدى والعدوان وبين ميل الفرد الى مجاراة الناس والظـفر بمحبتهم وولائه للمبـادىء الديمقراطية •

٢ ــ صراع بين ما يريده الفرد وما يقدر عليه •

٣ ــ صراع بين ما يتوهمه الفرد من أنه يحظى بقوة وحـرية لا حد لهما وبين شعوره بالعجز وقلة الحيلة فى هذا العـالم المفعم بالقيود والسدود) •

(يقول « ردليش Redlich » أحد أطباء النفس الامريكيين سنة ١٩٥٨ : « فى العقد الماضى كانت مستشفيات الامراض العقلية تضم حوالى ٧٥٠٫٠٠٠ شخص يشغـلون ٥٥٪ من جمـيع أسرة المستشفيات فى الولايات المتحدة ، ويزداد عددهم عاما بعد عام ، هذا علاوة على مئات الألوف من مضطربى الشخصية يعالجهم الأطباء النفسيون فى العيادات العامة والخاصة • وأثناء الحرب العالمية الثانية بلغت نسبة من أعفتهم القوآت المسلحة لاضطرابات نفسية وعقلية

---

(١) الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر • مشكلات الأسرة والتكافل ص ٣٦ ، ٣٧ د • محمد البهى

٤٣٪ من المجموع العام لمن أعفتهم وعددهم ٠٠٠ر٩٨٠ ، كما بلغ مجموع من رفضوا فى امتحانات الاختيار للخدمة العسكرية لنفس الأسباب ٠٠٠ر٨٦٠ . ونحن متأكـدون أن المرضى الذين تضمهم المصحات العقلية بالاضافة الى أولئك الذين يعالجون فى العيادات العامة والخاصة لا يمثلون الا جزءا فقط من مضطربى الشخصية »

(ومما تقدره بعض الاحصاءات الامريكية الحديثة أن ٠٠٠ر٧٥٠ر١ جريمة خطيرة ترتكب فى كل عام ، وأن ٠٠٠ر٥٠٠ر١ طفل بين سن ٧ ، ١٧ تقبض عليهم الشرطة من هؤلاء ٠٠٠ر٣٥٠ يقدمون الى محاكم الأحداث ... كما تدل الاحصاءات المتكررة أن عدد مدمنى الخمر والمخدرات لا يقل فى العام عن أربعة ونصف مليون مدمن مشكل ، وأن حالات الانتحار تدور حول ٠٠٠ر٢٠٠ حالة فى كل عام ، أما عدد محاولات الانتحار فأكبر من ذلك بكثير ، وعن بعض الاحصاءات أن هنالك حالة طلاق فى كل أربع زيجات)(١) .

ويرى الفيلسوف « جاك مارتيان » أن الافتراضات التى قامت عليها العلمانية والتى سبق أن ذكرت فى أول الفصل قد أدت الى :

(نظرية باطلة بشأن المعرفة وأخرى مثلها بشأن الأخلاق وفى فلسفة للتاريخ مستحيلة . « ففى نظريتها فى المعرفة أنكرت على الناس مقدرتهم على أن يعرفوا أية حقائق مطلقة ، ومن ثم فقد اختارت أن تعين مدى الحقائق كلية فى حدود ما يستطيع الانسان ، وطبيعته الواهنة ما هى ، أن يكتشفه بنفسه » . ونجم عن ذلك أنها فى نظريتها فى الأخلاق تترك قوانين الانسان الخلقية دون أى مقياس خارجى يمكن أن تقاس به . فالطبيعة البشرية ـ بما فيها من شذوذ فردى وعواطف متقلبة واتجاه طاغ نحو توكيد ذاتها ـ

---

(١) عالم الفكر . المجلد الثانى . العدد الثالث . أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر سنة ١٩٧١ ـ مقال /الأبعاد النفسية للحضارة الصناعية الحديثة . احمد عزت راجح .

هذه الطبيعة البشرية رفعت الى منزلة خاصة يصدر حكمه في قضايا هو فيها فريق ٠فالانسانية التى تتركز حول الانسان لا تعدو كونها أحياء لنظرية قديمة عفى عليها الزمن هى نظرة السوفسطائى بروتاغوراس القائلة بأن الانسان هو مقياس لكل شىء ٠

ويتابع « مارتيان » تحليله بالقول أن نتائج ذلك تشمل جميع الوان النكبات فى العصر الحديث ٠ فالمذهب القائل بأن الانسان مقياس لكل شىء ينشأ عنه ، على سبيل المثال أن الاختلافات الخلقية انما هى قضية ذوق ـ وهو اعتقاد أصبح وبائيا فى المجتمع الحديث ويستتبع هذا أن السلطة الاجتماعية انما تقوم على القوة ولا شىء آخر ـ وهو الاعتقاد الذى أخذه الفاشيون والشيوعيون من « الليبراليين » المتسامحين وجردوه من حواشيه ، ثم اذ لم يكن للكون تصميم خلقى أسمى من المصالح البشرية ، فانه ينتج عن ذلك أن (الانسان وحده وعن طريق ذاته يعد طريق خلاصه ، وبذلك تسلم الثقافة اللبرالية نفسها لنوع من المذاهب العقلية معرض للشطط ٠ انها لا تحسب حسابا للقوى التى تفوق العقل وتستطيع هى وحدها أن تسمو بالناس فوق ذواتهم ٠ وليس باستطاعتها أن تيسر للناس عونا مصدره قوى أكبر من قوتهم ، ولا تنبئهم كيف يمكن لما فوق التعقل أن ينسكب فى ذواتهم فيوحى اليهم ويشع النور فى حياتهم ٠ وعلى هذا النحو تترك الناس عاجزين عن مكافحة القوة غير المتعلقة فى نفوسهم ٠ ذلك بأن العقل البشرى ضعيف غير دافىء ودوما تتغلب عليه النوازع غير العاقلة ، وما لم يتح للناس نور ودفء أقوى من العقل يصارعون بهما قوة ما هو دون العقل ، فان العقل نفسه مقضى عليه بالخذلان ٠ وباختصار فان الاعتماد التعقلى البسيط على قوى العقل البشرية لتكييف المصير البشرى فيه شىء من الخذلان الذاتى، والمذهب العقلى لايتمكن حتى من انقاذ حياة العقل٠

وأخيرا فان فلسفة التاريخ التى تتركز حول الانسان قد جردت التاريخ البشرى بكامل أحداثه ومجاله من كل معنى ٠ ذلك

بأنه ان لم يكن ثمة وجهة نظر تقول بالأبدية خارج التاريخ نفسه تمكننا من الحكم ككل ، فان أجزاء هذا التاريخ كلها تصبح مجردة من الغاية والمعنى ولا يبقى فى التاريخ كله أى معنى من المعانى .
ويقول « مارتيان » : ان المنطق البسيط الناجم عن هـــذا الاعتقاد هو الذى دفع بالانسان الحديث الى مذهب العدمية القانطة الهدامة وجعل من المتعذر عليه الارتباط اقتناعا بأى مشروع أو قضـــية اجتماعية الا اذا اعتزم عامدا متشككا أن يجعلها جزءا من حركة دمه . فالجماهير الضائعة التى لا جذور لها فى المجتمع الحـديث ، والتمجيد القلق التعس للأشـــياء الدنيوية تمجيدا بلغ حـد التأليه ويقض مضاجع العالم الحديث ويذهله ، والوطنيات الهستيرية ، واتخاذ القادة أربابا ، والعقائديات الشديدة التعصب والحب التافه للمخترعات الآلية ، ومذاهب العنف ـ هذا كله هو صنع فلسفـة للتاريخ لا تؤمن بوجود الحقائق الأزلية، فالذى فعلته «الليبرالية»هو انها قوضت أركان السلطة الخلقية فى العالم الحديث(١) .

أما وأن المدنية الغربية قد استبعدت الدين عن تنظيم حياتها وعبدت المادة وأخلصت لها فاننا لا نستطيع أن نصفها بغير وصف الوثنية .

والوثنية عبادة أسلوبها مختلف ولكنها تتفـــق جميعا فى مضمونها وهو تقديس المادة واحترامها لا فرق فى ذلك بين الانسان الذى كان يعيش فى الغابات ، والانسان الذى يعيش فى القـرن العشرين ، كلاهما لا ترهبه الا الطبيعـــة ولا يحركه سوى الدافع المادى ، وما عبد الفرس النار الا لأنها تهبهم الحيـــاة . وليس من الضرورى أن تتشابه شعائر هذه الوثنيـــة فهى تختلف على مدى العصور . وفى مختلف البيئات .

---

(١) أزمة الانسان الحديث . ص ٥٦ : ٦٢ . نقلت من عرض مؤلف هذا الكتاب لآراء « مارتيان » المخالفة له فى معرض المناقشة لكتابيه :
Acholasticism and Politics, True Humanism.

لقد بهرت ظواهر الطبيعة الانسان فى الماضى فعبد الشمس أو النجوم وفى القرن التاسع عشر بهرت الآلة ماركس فاعتبرهـا الاله الذى يحرك المادة وأعطى لأداة الانتاج خاصية الآلهة كما هو الحال عند عباد الوثن ·

وكان « مزدك » ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة ولما كان أكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والأموال ، أباح الأموال وجعـل النساء شركة بينهم كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ·

و « مزدك » هو الذى ظهر أيام « قباذ » والد « آنو شروان » ودعا قباذ الى مذهبه فأجابه واطلع آنو شروان على خزيه وافترائه فطلبه فوجده فقتله ··

ان العالم اليوم يعبد دينا واحدا هو الاشباع المادى فهو هدف الحياة الوحيد ، وهياكل هذه الديانة فى المصانع ومعامل الأبحاث وأماكن اللهـــو وكهنة هـــذه الديانة هم رجال الأعمـال والعلماء والفنانون ·

وهى بهذه الصورة ردة الى الوثنية مرة أخرى يسجلها التاريخ ومن ثم فهى نكسة للانسانية فى تاريخها الانسانى الذى بنته من قديم · وهذه الردة تتبلور وتأخذ صورتها التامة فى أعلى مراحل التطور لهذه الحضارة المادية فى الشيوعية التى هى ثمرة طبيعية لوثنية أوروبا المادية ·

وبعد أن بعد الانسان عن التسليم لله والعبودية له عبـــد « الطواغيت » سواء كان ذلك طاغوت الرأســمالية فيما يسمونه ديمقراطية أو طاغوت الديكتاتورية · وكلها ديكتــاتورية بشرية تستعبد البشر وتذل أعناقهم وتغصب أرزاقهم وسيظل الانسان عبدا للانسان ينتقل من طاغوت الى طاغوت حتى يستعبد نفسه لله وهنا فقط ينطلق حرا راشدا ·

الباب الثانى

الشرق الشيوعى

الشرق الشيوعي

من الخطأ أن ننظر الى الماركسية بصفتها نشاطا سياسيا فحسب أو حركة اجتماعية أو مذهبا اقتصاديا ، انها نظرة شاملة للانسان والوجود والتاريخ • (ان هذا المذهب فى التحليل الاخير مجموعة من الافكار ملأت الفراغ الذى نشأ عن انهيار الدين المنظم نتيجة لازدياد تحول الفكر الى الاهتمام بالأمور الدنيوية خلال الثلاثة قرون الماضية ، وهو مذهب لا يمكن محاربته الا بعقيدة معارضة تقوم على مبادىء مختلفة كل الاختلاف عنه • ولكن الشيوعية بالنسبة لمعتنقيها لها قيمة الدين ما داموا يشعرون بأنها تزودهم بشرح كامل للواقع ، والانسان كجزء من هذا الواقع ، وتضفى فى الوقت ذاته على الحياة احساسا بالغاية كما يفعل الدين)(١) •

فهل استطاعت الماركسية أن تجد لأوروبا حلا لأزمتها فأوضحت معنى الوجود وغاية الحياة • أم أنها امتداد للبداية السيئة ومضاعفة للداء ؟

حاول « هيجل » أن يفسر الوجود والتاريخ وحاول أن يصبغه بما سماه صبغة علمية مستخدما فى ذلك منهج حسى وعقلى معا • ولقد تتبع « ماركس » خطوات « هيجل » تماما •• ونستطيع ببساطة أن نعبر الثغرة التى حاول أن يوجدها بينه وبين الفلاسفة المثاليين الذين يعيشون فى الأوهام • فماركس فى الواقع نسخة من هيجل ، لأن فكرة التناقض والكم والكيف والفرد والجماعة والضرورة ••• ألخ • كلها هيجلية ، ولا نستطيع أن نصف المادة التى يصورها ماركس الا بأنها خيال محض ،حيث أعطاها قوة جدلية تحتاج للايمان بها قدر ما يحتاجه الايمان بفكرة هيجل عن المطلق •

(١) الشيوعية نظريا وعمليا • كاريوهنت ص ١٣

وكل ما تغير هو الاسم فبدلا من كلمة الفكر وضع ماركس كلمة طرق الانتاج واستبدل بدلا من الأمم التى تتجسم فيها فكرة الطبقات المتصارعة .

وقد تكلم كل من هيجل وماركس بغرور وسذاجة كأنهم يعرفون كل شيء وأنهم قالوا الكلمة الاخيرة فى تفسير الحياة .

وحصنت هذه الفلسفة الجدلية نفسها تحت اسم الحتمية وسمحت لنفسها بأن تهاجم كل الفلسفات دون أن تراجع فلسفتها. ومع الأسف قبل كثير من السذج هذه الأوهام ، بل اندفع مجموعة من الدهماء يسيطرون على العالم ويرغمونه على الدخول فى هذه التجربة الوهمية .

* * *

يعلى ماركس من شأن المادة ويعتبرها أصل الحياة والمحرك الأول لها . فأعطى قوةالانتاج خاصية التطور « الدياليكتيكى » الذاتى فهى قاموس الكون كله . وأعطاها حتمية معناها ضرورة سيادتها وأن معارضتها لن توقفها ولن تكون الا تعبيرا عن الجهل والعقوق . وسمى اطاعة هذه القوانين « وعى الضرورة » . ان الجدل هو شريعة هذا الدين والعمل به هو العبادة التى فرضت على الانسان :

(وقد رأيت أناسا يبطلون الأديان فى العصر الحديث باسم الفلسفة المادية فاذآ بهم يستعيرون من الدين كل خاصة من خواصه وكل لازمة من لوازمه ولا يستغنون عما فيه من عناصر الايمان والاعتقاد التى لا سند لها غير مجرد التصديق والشعور ثم يجردونه من قوته التى يبثها فى أعماق النفس لأنهم اصطنعوه اصطناعا ولم يرجعوا به الى مصدره الأصيل .

فالمؤمنون بهذه الفلسفة المادية يطلبون من شيعتهم أن يكفروا بكل شيء غير المادة وأن يعتقدوا أن الأكوان تنشأ من هذه المادة فى دورات متسلسلة تنحل كل دورة منها فى نهايتها لتعود الى التركيب فى دورة جديدة وهكذا دواليك ثم دواليك الى غير انتهاء .

ويطلبون منهم أن ينتظروا النعيم المقيم على هذه الأرض متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعية ، فان زالت الطبقات الاجتماعية فى هذه السنة أو بعدها ببضع سنوات فتلك بداية الفردوس الأبدى الذى يدوم ما دامت الأرض والسماوات وتنتهى اليه أطوار التاريخ كما تنتهى بيوم القيامة فى عقيدة المؤمنين بالأديان .

ولا يخلو دين الفلسفة المادية من شيطانه ، وهو « الرأسمالية » الخبيثة العسراء . فكل ما فى الدنيا من عمل سوء أو فكرة فهو كيد من هذا الشيطان الماكر المريد .

وكل ما فيها من عمل سوء أو فكرة سوء يزول ويحول وتحل فى مكانه بركات الفلسفة المادية ورضوانها متى صار الأمر الى ملائكة الرحمة وذهب ذلك الشيطان الى قرار الجحيم)(١) .

ولكن أى دين هذا ؟! .. ان اشبه دين به عرفته البشرية هو دين عبادة الطبيعة الذى اعتنقه الانسان البدائى وكان ينسب فيه القيم البشرية الى الأشجار وغيرها من المواد ! ..

ونريد أن نعرف الى أى حد استطاعت المادية الجدلية أن تمد الانسان بوعى للكون وأن تحدد غايته فى الوجود .

يقول « انجلز » انه (مهما ينشأ أو ينقرض من الخلائق قبل أن تنجم بينهم أحياء تفكر بأدمغتها وتجد لها ملاذا يسمح بالحياة ولو الى فترة وجيزة منه . فاننا مع هذا على يقين أن المادة فى كل تغيراتها تظل أبدا واحدة وأبدا كما هى ، وانها لن تفقد صفة من صفاتها وأن تلك الضرورة الحديدية التى تقضى بزوال أرفع زهرات المادة وهى القوة المفكرة ، هى بعينها تقضى بميلاد كرة أخرى فى زمان آخر) .

وحين ذكر « لينين » قول « هيرقليطس » (العالم هو واحد لم يخلقه أى اله ولا أى انسان ، وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة حية الى الأبد تشتعل وتنطفىء تبعا لقوانين معينة) . علق عليه قائلا « يا له من شرح رائع لمبادىء المادية الجدلية ! » .

(١) الفلسفة القرآنية . العقاد ص ١٢ ، ١٣

فأى اغراق فى الخيال أكثر من هذا ؟ وأى سند له من العلم ؟ وهل هناك فرق من ناحية النوع .. بين هذا التفسير للوجود وتفسير المادية الميكانيكية التى كانت فى نظر « ماركس وآنجلز » مادية ساذجة لأنها غير جدلية ـ حتى مادية « فيورباخ » ؟ . نقد انتقد الماركسيون النظريات المادية القديمة لأنها فى نظرهم فشلت فى فهم طبيعة التطور حيث فكرت فى العالم والانسان بعبارات ميكانيكية . ثم يصور الماركسيون أنفسهم للمادة على انها تظل أبدا واحدة وأن الضرورة هى التى تقضى بميلاد كرة جديدة لهذا الكون ، شعلة تنطفىء وتشتعل للأبد . وهذا كله يؤكد لنا الصلة الدائمة بين أى فكر مادى وبين التصور الآلى لحركته .

وفى أسس الماركسية اللينينية « أنها لا تعترف بوجود أى قوة أو خالق فيما وراء الطبيعة ، انها ترتكز بوضوح على الحقيقة ، حقيقة العالم الذى نعيش فيه ، انها تحرر الانسان مرة واحدة الى الأبد من الخرافة ومن عبودية الروحانية القديمة »(١) .

« ان تعاليم الفلسفة المادية التى تنص على أن العالم الخارجى يوجد فى الزمان والمكان تفند المبدأ العقيدى عن وجود اله خارج الزمان والمكان . واللاهوت يؤكد وجود اله قبل وجود العالم وأنه خلق الطبيعة ولكنه بقى خارجها فى مكان ما فوق الطبيعة . وهم يؤكدون أن الله وحده هو الذى لا يحده زمان ولا مكان بينما الطبيعة يحدها بداية ونهاية للزمان والمكان . والعلم قد بين استحالة هذه الخرافات . انه ليس هناك مكان لله فى الحقيقة وذلك هو مبدأ العلماء عن العالم . والفلكى الفرنسى « جوزيف لالاند » لاحظ أنه بحث فى السماوات ولكنه لم يجد أى اله هناك(٢)) .

ومن العجيب أن أصحاب هذا الرأى قبل صفحة واحدة يقولون : (ان المسافات فى العالم أعظم كثيرا من المسافات التى تعودنا عليها فى الأرض . ان المجاهر الحديثة قد مكنتنا من اكتشاف

Fundamentals of Marxism-Leninism, p. 16.
Fundamentals of Marxism-Leninism, p. 35.

النظام النجومي الذي ضوؤه يصل الينا في مئات الملايين من السنين، رغم أن سرعة الضوء تصل الى ٣٠٠٫٠٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية، ورغم أن هذه المعلومات محددة ولكنها لا تعطينا صورة صحيحة عن اتساع العالم الذي هو لانهائى ، ان لانهائيته تتعدى حدود الخيال ولا يمكن وصفه والتعبير عنه بالعلم .

والأرقام الخاصة بعمر الأرض وتطورها تذهل الخيال .. « ان الانسان كما نعرفه اليوم ظهر منذ ٥٠٫٠٠٠ الى ٧٠٫٠٠٠ سنة . والتحول من القرد الى الانسان كان منذ مليون سنة ، وأول أشكال النبات والحياة الحيوانية ظهرت منذ أكثر من ألف مليون سنة . والأرض نفسها منذة عدة آلاف الملايين من السنين . وهذا هو العمر الزمنى لتاريخ الأرض . ولكن لا هذه الارقام ولا أكبر منها تستطيع أن تعطينا أى دلالة حقيقية عن لانهائية الطبيعة لأن هذه اللانهائية يتمثل وجودها اللانهائي فى الزمان . انما لتضمن أن الطبيعة وجدت دائما وستوجد الى الأبد(١) .

وهكذا يصلون الى معالم الأفكار الغيبية التى عابوا الأديان عليها . ورغم هذا الوصول فانهم يصدقون قول انسان أخرق بحث عن الله فى السماء فلم يجده ولعمرى أى سماء وصل اليها .

يقول أحد علماء الغرب « كثيرا ما يقال : ان هذا الكون المادي لا يحتاج الى خالق ، ولكننا اذا سدمنا بأن هذا الكون موجود ، فكيف نفسر وجوده ؟ .. هنالك أربعة احتمالات للاجابة على هذا السؤال : فاما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال ـ وهو ما يتعارض مع القضية التى سلمنا بها حول وجوده ـ واما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم . واما أن يكون أزليا ليس لنشأته بداية . واما أن يكون له خالق ..

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الشعور والاحساس ، فهو يعنى أن احساسنا بهذا الكون وادراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام ، ليس له ظل

(١) نفس المصدر p. 33, 34.

من الحقيقة · وقد عاد الى هذا الرأى فى العلـــوم الطبيعية أخـيرا « سير جيمس جينز » ، الذى يرى أن هذا الكون ليس له وجـود فعلى ، وأنه مجرد صورة فى اذهاننا وتبعا لهذا الرأى نستطيع أن نقول : اننا نعيش فى عالم من الأوهام ! · فمثلا هذه القطارات التى نركبها ونلمسها ليست الا خيالات ، وبهـا ركاب وهميون ، وتعبر أنهارا لا وجود لها ، وتسير فوق جسور غير مادية ··· الخ ، وهو رأى وهمى لا يحتاج الى مناقشة أو جدال !

أما الرأى الثانى القائل بأن هذا العالم ، بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم فهو لا يقل عن سابقه سـخفا وحماقة ، ولا يستحق هو أيضـــا أن يكون موضـــعا للنظر أو المناقشة ·

والرأى الثالث الذى يذهب الى أن هـــذا الكون أزلى ليس لنشأته بداية ، انما يشترك مع الرأى الذى ينادى بوجود خالق لهذا الكون · وذلك فى عنصر واحد هو الأزلية · واذن فنحن أما ان ننسب بصفة الأزلية الى عالم ميت ، واما أن ننسبها الى اله حى يخلق ، وليس هنالك صعوبة فكرية فى الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما فى الآخر · ولكن قوانين « الديناميكا الحرارية » تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا ، وأنها سائرة حتما الى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغـــة الانخفاض ، هى الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة · ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام الى الصفر المطلق بمضى الوقت · أمـا الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والارض الغنية بأنواع الحيـاة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهى اذن حدث من الأحداث ·· ومعنى ذلك انه لابد لأصل الكون من خالق أزلى ، ليس له بداية ، عليم محيط بكل شىء ، قوى ليس لقدرته حدود ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع

يديه • »(١)

فالطبيعة وصفت فى الحقيقة بالأوصاف التى يؤمن بها المؤمنون بالله ولكن الأقرب للعقل والمطابق للمنطق ان هذه الدنيا فانية •وأن الصدفة تستحيل كتفسير لوجودها وأن الذى خلقها وصورها هو وحده الذى ليس له أول فيوصف ولا آخر فيعرف « قال : فمن ربكما يا موسى ؟ • قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى • قال : فما بال القروق الأولى ؟ قال : علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى • الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ؟ »(٢) •

واذا كانت الماركسية قد اقتنعت بالقصد فى حركة الكون وأنها دائما متطورة وصاعدة وثبتت تفسيرها للتاريخ على هذا الأساس ، فلماذا لا تطور قاعدتها هذه لتعبر عن غاية الوجود فى أجرامه الهائلة لتكتشف غاية له مطردة مع طبيعة تفكيرها الجدلى • ولعمرى انه لعجيب أن تقف هذه القاعدة عن اطرادها الذى يحتمه منطقها لترتد بغباء الى العقلية الآلية التى تفسر كل شىء فى دورات تنتهى لتبدأ دون جديد أو هدف فهى كرات تلتهب لتخمد ثم لتلتهب هكذا فى دورات لا معنى لها « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال : من يحيى العظام وهى رميم؟ قل: يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون، أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم • انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون • »(٣)

(١) الله يتجلى فى عصر العلم • مقال « نشأة العالم ــ هل هو مصادفة أو قصد » « فرانك آلن » ص ٧ ، ٨ • أشرف على التحرير « جون كلوفر » • ترجمة د• الدمرداش عبد المجيد سرحان •

(٢) سورة طه آية ٤٩ ــ ٥٦

(٣) سورة يس آية ٧٨ ــ ٨٣

الفصـــل الأول

أوهام الجـــدل

لقد أصاب العلم الماركسية في مقتل ، وذلك في أعز جزء في بنائها الا وهو قانون الحركة الذى يعتبر العمود الفقرى للنظـرية والحق المطلق في الاعتقاد وبدونه ينهار البناء أنقاضا • قانون الحركة هذا يسمونه الجدل أو صراع المتناقضات •

ولقد تأثر « هيجل » « بانجيل يوحنا » سواء فيما جاء فيه من تثليث أو ما جاء فيه من تقابل بين الموجودات ودافع هيجـــل عن التثليث وبين أن « ابن الله » هو الوجود الطبيعى الانسانى لله • أى الوجود الالهى في الوجود المشاهد وأن الروح القدس هى ذلك الروح الجامع بين الله وابن الله • وبهذا فهو لكى يدافع عن التثليث وحد بين الله والطبيعة فانتهى للايمان بالطبيعة والكفر بالله •

ونحن نتساءل ما هذه النقائض التى يتحرك بها الوجود ؟ أيكون من الممكن أن نضع كل ظـــاهرتين مختلفتـــين تحت اسم التناقض ؟

الجدل يعنى أن يتقابل نقيضان أى يجتمعان في محتوى واحد• قال « لينين » في الدفاتر الفلسفية : « ان المعنى الدقيق للجـدلية هو دراسة التناقضات داخل ذات جوهر الأشياء » • والتناقض يؤدى الى صراعهما الى أن يحل فيخرج منهما ، أى من باطن الشيء الذى اجتمعـا فيه ، شيء ثالث مختلف عنهما يزول به التناقض ويتجاوز وجود النقيضين •

ولكن عندما وضع « ماركس » الجدلية المادية أى طبق القوانين الهيجلية على المادة كانت المادة غير معروفة تماما ، اذ كان العلمـاء على عهد « هيجل وماركس وانجلز » يعتقـدون أن الطبيعة مركبة من ٩٢ عنصرا ، وأن كل عنصر مكون من جزيئات هى « الذرات » وكانت الذرة معتبرة وحدة الكون كله •

وكان لهذا التعدد واختلاف تأثير المواد بعضها فى بعض ، ما دفع البعض الى تصور تناقض فى الطبيعة أو المادة, فالاكسجين يلهب النار ، والماء يطفئها .

أما الآن فان كل من لديه بعض الثقافة العامة يعلم أن الذرة مركبة .. فهى تتكون من نواة يحيط بها عدد من الالكترونات تتحرك حولها بسرعة هائلة . وأن النواة تتكون من بروتونات ونيترونات وأجسام أخرى . وأن الالكترونات كهارب ذات شحنات سالبة ، وأن البروتونات كهارب ذات شحنات موجبة . وأن النيترون Neutron متعادل وقوامه بروتون والكترون متعانقان وكل اختلاف فى الظواهر التى نراها فى المادة وتركيبها راجع الى خلاف فى عدد وترتيب الالكترونات فى ذرات تلك المواد فاذا كانت الذرة تحوى الكترونا واحدا فالمادة أيدروجين واذا كانت تحوى ثانيا فهى أوكسجين . وان كانت ٣٦ فهى حديد ، أو ٩٢ فهى يورانيوم ، وتتعدد وتختلف الخواص الكيميائية باختلاف وتعدد هذه التكوينات ، وعرفنا حقيقة أخرى ذات أهمية فهى أن عدد الالكترونات فى أية ذرة يساوى تماما عدد البروتونات ،أى أن الشحنة الموجبة فى أى ذرة تساوى الشحنة السالبة ، ولذلك فالذرة من أية مادة فى حالتها العادية وحدة متزنة ومستقرة خالية من التناقض الباطنى والصراع . وقد كان يظن أن أى جمع بين شيئين لهما شحنتان كهربائيتان اما أن يتنافرا ان كانتا من نوع واحد أى موجبتين أو سالبتين ، واما أن يتجاذبا ان كانتا مختلفتين . لذلك كان السالب يعتبر نقيضا للموجب الى أن أثبت العلم أن هناك مسافة يبطل عندها هذا القانون هى جزء من ثلاثين مليون جزء من السنتيمتر وهو يعادل ١/٨ قطر أكبر ذرة . وبذلك ثبت أنه ليس داخل الذرة جذب وتنافر من هذا التناقض .

وكان العلماء يعتقدون أن الطبيعة قائمة على عنصرين هامين هما : الطاقة والمادة ، واعتبروا المادة شيئا جامدا محسوسا سموه الكتلة واعتبروا الطاقة قوة بدون كتلة وبذلك أصبح السكون

نقيض الحركة ـ والمادة نقيض الطاقة ـ ثم اثبت العلم وحدة الطاقة والمادة ، وان المادة ليست الا طاقة مركزة ، وان الطاقة مادة لا تحتاج لكي تقول عنها أنها طاقة الا أن تسير بسرعة الضوء ، وبذلك زال ما كنا نتصور أنه تناقض باكتشاف « أينشتاين » نظرية الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء •

وكانت المادة الخفيفة تعتبر نقيض المـــادة الثقيلة ، والسائل يعتبر نقيض الجامد ، والأبيض يعتبر نقيض الأسود ، والحار نقيض البارد ، وما يطفيء النار يعتبر نقيض ما يزكيها ، ثم جاء العـلم فأثبت أن المادة يمكن أن تتحول الى نوع ثان ، ولا يتطلب هذا أكثر من تعديل عدد وترتيب عناصر الذرة من الكترونات وبروتونات ، وقد أمكن فعلا تحويل ذرات بعض العناصر الى ذرات عناصر أخرى فتحقق بذلك حلم الكيميائيين القدامى ، فقد نجح « روذرفورد » في تحويل بعض ذرات من النتروجين الى ذرات اكسجين ، كما نجح غيره في تحويل ذرات من البلاتين الى ذرات من الذهب •

ولما أثبت العلم أن الذرة خالية من التناقض ، فمن البديهى أن الطبيعة أو المادة لا تنطوى فى باطنها على تناقضات ولا يدور داخلها صراع وبذلك لم يعد من الممكن القول بان حركة المادة جدلية •

وتتحول المادة الى تركيبات مختلفة ويتطلب ذلك ذرتين تكون درجة تشبعهما مختلفة لتندمجا فتصبح الذرتان ذرة واحدة من نوع ثالث ، ولا بد من التأثير الخارجى أى تأثير ذرة على ذرة أخرى لتتم عملية التحول • وهذا لا يتفق مع قانون الجـدل الذى يقـوم على أساس التحول من الباطن •

والكون ملء بالقوانين المتباينة التى تحكم كل نوع فالقوانين التى تحكم الرصاص غير التى تحكم الايدروجين وقوانين الصوت غير قوانين الضوء وللنبات قوانين غير الجماد والجماد غير الحيوان •

وبالطبع تعددت المركبات وقسمناها الى أنواع حسب تباين خصائصها • وتعسف البحث عن التناقض فيها وهم مخرف يصل الى حد ما قاله « انجلز » فى كتابه « جدل الطبيعـة » من أن ثمة

أشعة ضوء سوداء لتكون نقيضا لأشعة الضوء البيضاء ليثبت لديه علميا أن الضوء يحتوى نقيضين وأن فى كل شىء صراعا داخليا وأن كل شىء جدلى فى متاهات يرغم أصحابها الناس ارغاما على التسليم بصحتها دون أن يكون فى الذرة تناقض ولا صراع ، وان كل الأنواع تكونت نتيجة اندماج الذرات وتأثرها وتأثيرها وتحولها فى حركتها الدائمة وان ناتج هذا التأثير المتبادل هو التغاير بين الأنواع .

لقد كان « ماركس وانجلز » بقولهما أن المادة جدلية يجهلان الحركة الداخليـــة للذرة حين تبنيا القوانين التى وضعها « هيجل » كلها واعطياها الحق فى تفسير كل شىء اما أن يقول هذا واحد بعد منتصف القرن العشرين فذلك مما يدعو للعجب والسخرية .

وحسبنا انهم تراجعوا فى آخر رأى لهم حين قالوا : « يجب الا يفهم هذا الأمر فهما مبالغا فى بساطته . ان الصراع بين الأضداد بمعناه الحرفى المباشر يحدث بصفة رئيسية فى المجتمعات الانسانية . ولا يمكن على أى وجه أن نتحدث دائما عن الصراع بمعناه الحرفى بالنسبة الى العالم العضوى . أما بالنسبة الى الطبيعة غير العضوية فيجب أن يفهم هذا التعبير على وجه أقل حرفية وهذا هو السبب الذى وضع من أجـله « لينين » ذلك التعبير بين قوسين ان هـذا التمييز لازم لفهم صراع الأضداد فهما سليما »(١) .

اننا نشاهد ــ على العكس مما يقول ماركس ــ أن العلاقة بين الأشياء المختلفة هى علاقة التعاون عموما ، فالليل يكمل النهـار الأول سكن والثانى معاش يقول تعالى : « ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا . ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون »(٢) . والسالب والموجب يتعاونان معـا فى اكمال الدائرة الكهربائية ، ولو تصورنا أن أحدهما يقضى على الآخر لما تصورنا ضوء الكهرباء . والذى نراه أن السالب يتنافر مع السالب والموجب مع الموجب وان

---

(١) Fundamentals and Marxism-Leninism p. 102 - 103.

(٢) سورة النمل . آية ٨٦

كان لا بد من القول بالصراع فهو ليس بين السالب والموجب بل بين السالب والسالب والموجب والموجب !

أليس من الغريب بعد ذلك كله أن يقدس الماركسيون قانون الجدل ويعتبروه أعظم كشف فى تاريخ الانسان ؟! ولكن هذا شيء طبيعى بالنسبة للفكر الماركسى الذى يعتبر المادة أزلية خالقة فيلبسها لباس الألوهية ـ ولهذا كان من الطبيعى أن تفترض الحركة ذاتية من أعماقها فى شكل التناقض وصراع الأضداد · وأخذت تدخل العلم قسرا فى قوالبها الى أن تحرر العلم بسلاح التجربة من اسارها كما رأينا فى أشكال المادة · وحسبنا أن نتذكر أن الذرة تزداد صعوبتها كلما ازددنا بحثا فيها فلم نكتشف حتى الآن حقيقة الالكترون ولم نستطع متابعة حركته وكل يوم نرى كشفا جديدا فى عالمها · ومن الخطأ أن نقول ان الحركة فيها ذاتية لأن ذلك فرض قد يكون قريبا كشف العلم لخطئه كما كشف خطأ تناقض الالكترون والبروتون ـ والعجيب أن الشيوعيين يعيبون على غيرهم بناء يقينهم على افتراضات لم تثبتها التجربة ويخصون بالذكر الايمان بالغيب وان دلتا عليه الآثار فى الكون ـ ونحن نسألهم بالتالى كيف آمنوا بالالكترون وهم لم يروه الا بأثره فى الكهرباء · ثم نسألهم ساخرين كيف آمنوا بالجدلية كقانون مطلق خالد أزلى وهم لم يثبتوا علميا وجودها فى الأحياء أو الأشياء · والآثار كلها تثبت خطؤها ان زعموها غيبا لا يلمس ولا يرى ·

ان سنة الله تمسك المادة فى نظام : (ان الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا »(١) · ولهذا نجد الترابط والانتظام : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون »(٢) ·

(١) سورة فاطر · آية ٤١

(٢) سورة يس · آية ٤٠

والتباين سنة الوجود والحياة ، فباختلاف كل شيء عن الآخر يتم التزاوج : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون »[1] • « وجعل منها زوجها ليسكن اليها »[2] •

وليتم التآلف والتعارف : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم »[3] •

والصراع لا ننكره ، ولكن الذى ننكره ضرورته الحتمية وأنه حركة الوجود والحياة • اننا نؤمن والواقع يؤيدنا أنه انحراف عن سنة الله التى هدى الله اليها الناس • آن الايمان يحيل الحياة الى الوحدة والتعاون • والبعد عنها يؤدى الى الصراع : « فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم شقاق • »[4] •

الغريزة والروح مختلفان ولكنهما ليسا متناقضين ، فهما يتعاونان فى السمو بالانسان الى أفق الكمال ، ولكن ان انتصرت الغريزة على الروح انحرفت بالفرد عن الانسانية • وكذلك لا يمكن أن يعيش الانسان بروحه وحدها والا لكان فى ذلك الفناء • انهما متعاونان فى أداء رسالة الانسان فى الحياة •

ولكن ماذا نقول للتعسف فى التفسير والاعتساف فى التأويل حين يصف الماركسيون كل ظواهر الحياة على أنها متناقضات مستغلين الخلاف بينهما • ويسمونها الفكرة ونقيضها ويطلقون على العملية اسم الجدل •

---

(١) سورة الذاريات • آية ٤٩

(٢) سورة الأعراف • آية ١٨٩

(٣) سورة الحجرات • آية ١٣

(٤) سورة البقرة • آية ١٣٧

الفصل الثانى

ضلال التفسير المادى للتاريخ

التاريخ كما يقول « كارل فيدون » فى دراسته الهامة ، يسير كجدول لا نهاية له ولا يعرف أحد بدايته أو نهايته . ولهذا يستحيل تعيين أى مرحلة من مراحله . وهل تكون فكرة أو نقيضها أو تآلف النقيضين . ويمكن بسهولة اظهار أية حادثة تاريخية على أنها تآلف بعنصرين كانا متناقضين فى الماضى اذ أنها فكرة تختار فيما بعد حادثا آخر ليكون نقيضها - وهكذا يمكن تقديم الغزو النورمندى، على أنه تآلف الثقافتين الرومانية والأنجلوسكسونية أو أنه فكرة نقيضها عهد البلاجينيت (وهى كنيسة البيت المالك الانجليزى وقد أطلق عليها أحد أعضائه وهو « ويتشارد اميريورك » فى سنة ١٤٥٠) .وتآلف هذين النقيضين فى عهد التيودريين . وهذا العلاج الذى لا يركن اليه يجعل التاريخ بمثابة لعبة كل ما يلزم للعب بها - خيال خصب وجهل كثير - وعلاوة على هذا رأينا أن الجدلية كما استخدمها هيجل ، مبدأ يقوم على التفاؤل بأن كل نتيجة تعد تقدما نحو « المطلق » ويرى ماركس أيضا (أن كل مرحلة متعاقبة من مراحل المجتمع التى تنشأ على حساب المتناقضات الداخلية للمرحلة السابقة لها تؤلف شكلا أعلى . وهذا قول معقول اذا كان التاريخ سجلا مستمرا للتقدم ، ولكنه عبارة عن قصة من الانحلال والفساد ، ولهذا لا يمكن تطبيق الجدلية على جزئه هذا(١) .

والانسان فى الفكر الماركسى لا يستطيع أن يغير فى مصيره الحتمى . ولنأخذ الموضوع من أوله .

لقد قالوا ان الحرية تؤثر على الضرورة عن طريق النشاط العملى الواعى الذى يحول الطبيعة وأنه طالما أننا نجهل قانونا طبيعيا

---

(١) الشيوعية نظريا وعمليا . كاريوهانت ص ٥٥ ، ٥٦

سواء اختص بعلم الطبيعة أو المجتمع فان هذا القانون الذى يوجد ويؤثر خارج معرفتنا يجعل منا عبيدا للضرورة العمياء ـ والعالم جميعه مقيد بقوانين موجودة فيه من الأصل تحركه فى خط معلوم ، الكون والحياة كلها تتحرك فى اتجاه ضرورى أو جبرى ٠

وهنا نكشف المغالطة ٠ فالفرد يؤثر فى الطبيعة ولكن من جانب الحتمية التى ترسمها له غرائز الوسط المادى المحيط به ٠ والفكر غير قادر على التأثير الا باملاء الضرورة ومن هنا لا يكون أى أثر خلاق للعقل ٠ وبتعبير « لينين » فى كتابه المادية ومذهب النقد التجريبى ٠ (العالم عبارة عن حركة المادة ، تسير وفق قوانين معينة ، ولما كانت معرفتنا ليست الا نتاجا علويا للطبيعة ، فلا نستطيع الا أن تعكس هذه القوانين) ٠

لقد كان تيار الضرورة الميكانيكية روح العصر الذى وجد فيه ماركس ، فان اكتشاف « نيوتن » بعض قوانين الكون وانصباب الحركة حفز المتسرعين الى أن يضعوا الانسان فى صف الأشياء وحاولوا ربط حياته بهذه الميكانيكية وتصوروا الفكر نتاجا ماديا كما تفرز الكبد الصفراء ـ ولما كان الانسان عصيا على هذا التعسف فقد ظهرت فكرة المجتمع كوسيلة لتطبيق هذه القاعدة على الانسان وتزعم هذا الاتجاه « دوركايم » اليهودى فى كتابه « قواعد المنهج فى علم المجتمع » ٠ وهذا كان فى عصر مراهقة العلم ٠ الا أنه فى سنة ١٩٢٧ حدث حادث علمى أثر تأثيرا عميقا فى البحث العلمى والاجتماعى معا » فقد قدم العالم « هايزنبرج » قانونا جديدا هو قانون « اللاحتمية » ويقوم على حقيقة هى أن الالكترون أصغر من موجة ضوء فيلزم العالم أن يستخدم اشعاعا طول موجته أصغر ، والأشعة السينية ولو أن موجتها أقصر من موجة الضوء الا أنها عديمة الجدوى ، ولا تصلح لرؤية الألكترون ، ولا تمكن رؤيته الا باستخدام أشعة جاما ألتى تنبعث من الراديوم ٠ ولكن التجارب العلمية أثبتت أن أشعة الضوء العادى تؤثر بقوة كبيرة فى

الالكترونات وأن الأشعة السينية تؤثر فيها بقوة أكثر ، فلا بد أن تكون أشعة جاما مدمرة لها • فمن المستحيل لهذا تحديد موضع وسرعة واتجاه الالكترون فى وقت معين ولا يمكن القول انه يشغل مكانا معينا لأنه متحرك اذا حددت سرعته لا يمكن تحديد مكانه المتغير وأصبح التعبير عنه « احتمال » وهنا انتهى الى قانون اللا حتمية الذى نال به جائزة نوبل سنة ١٩٣٢ • فاذا كان هذا شأن المادة فما شأن الفكر والروح الذى يحاول مراهقوا القرن التاسع عشر أن يخضعوها للضرورة ؟ • ان هناك كما أحس علماء القرن العشرين حاجزا مطلقا يقف بين قدرة الانسان وكشف الكون والحياة لا يمكن له اجتيازه •

وقد سبب هذا المد الجديد الحيرة على عقلية الشيوعيين • فبينما نجد البيان الشيوعى يتحدث عن دور الانسان بالنسبة للتاريخ أنه حركة تجرى تحت أنفـه ، نرى فى كتاب « أسس الماركسـية اللينينية » : (بين مختلف الظواهر فى الطبيعة والمجتمع يوجد بعض منهـا لا ينتج حتما من القانون الذى يحـكم تطـور شيء معين أو مجموعة من الأشياء المعينة ، والتى يمكن أن تقع بطريقة أو بأخرى ، وهذه هى ظاهرة الصدفة • فاذا تلف محصول الفلاح بانهيار ، على سبيل المثال ، فهذا يكون صدفة بالنسبة لعمله والقوانين التى تحكم نمو النبات •• لقد كانت مشكلة الصدفة محل خلاف كبير ، ان المبدأ القائل بأن لكل ظاهرة سببا فى الطبيعـة أو فى المجتمـع الانسانى قاد كثيرا من العلماء والفلاسفة الى نتائج غير صحيحة ، هى أن الضرورة قائمة فى العالم وأنه لا توجد أى ظاهرة صدفة ـ وان الصدفة ـ طبقا لوجهة نظرهم مفهوم شخصى نطلقه على الأشياء التى لا نعرف أسبابها •

ان هذا الرأى خاطىء كلية اذ يخلط بين مفهومين : الضرورة والسببية • صحيح أنه لا توجد ظاهرة فى العالم بدون سبب ، وان الظواهر التى تقع مصادفة لها أسباب محددة ، ولكن هـذا لا يجعل الظاهرة ضرورية(١) •

Fundamentals of Marxism-Leninism p. 67.

الا أنهم لا يفيقون تماما من تأثير المخدر فيترنحون فى غيبوبة الغمـــوض بقولهم : (ان الضرورة تشق طريقهـا وسط ركام من الصدف ، وجدل الضرورة والصدفة يوجد فى حقيقة أن الحادثة تظهر كشكل من الأشكال التى تعبر بهــا الضرورة عن نفسها ، ومكملة لها ، ولهذا فان الحدث العارض يأخذ مكانه داخل الضرورة)(١) ٠

يقول جون ديوى : (مذهب ماركس يقول بأن حالة قــوى الانتاج هى وحدها وليس غيرها القوى المسببة الوحيدة ، فبحسب وجهة النظر حين تكون جميع عوامل الطبيعة البشرية لا تتكون الا من الخارج بواسطة قوى مادية أى قوى اقتصادية ، فاعطاء أى عنصر من العناصر التى تتكون منها الطبيعة البشرية قوة مستقلة يكون من وجهة النظر الماركسية نكوصا ورجعة الى الطراز المثالى من النظريات التى جاءت الماركسية لهدمها والقضاء عليها ٠

والحق أن ماركس وكل ماركسى من بعده كان يفترض من غير وعى منه وجود عوامل فعالة فى تكوين الطبيعة البشرية يجب أن تتعاون مع أحوال اقتصادية خـارجية كانت أو مادية على ايجـاد ما يحدث فعلا ، فالاعتراف الصريح بهذه العوامل يجعل للنظرية اتجاها عمليا مختلفا(٢) ٠

وسبب الاضطراب هو غموض معنى الضرورة التى اقتبسها « ماركس وانجلز » من « هيجل » فالمعنى البديهى للضرورة أنهـا شىء لا بد من حدوثه طيبا كان أم رديئا ٠ لأنه النتيجة الحتمية ، ولكن الماركسيون يستعملونه بمعنى « المرغوب فيه » وهو يختلف عن معنى الضرورة ٠ وكثيرا ما يستشهد الماركسيون بالمجتمعـات البدائية لأن هذا أنسب شىء لهم حيث تسيطر الضرورة الطبيعية الى حد ما على الناس ولا يستطيعون ذلك فى مجتمع متقدم استطاع

Fundamentals of Marxism-Leninism p. ٦٨

(٢) الحرية والثقافة ٠ جون ديوى ٠ ترجمة : أمين مرسى قنديل ٠ ص ١٠٧ ٠

الفرد أن يتحرر به من سلطان الطبيعــة وأن يكون له من الضمير والوعي ما يسمو به على الضرورة ٠

ووعى الضرورة كما يقدمونه يحتاج الى أن يدرك الوجود كله والزمان كله ليختار خير طريق ، وما دام ذلك غير ممكن ، فالانسان حر في أن يختار وأن يفاضل بين السبل حسب مداركه ومــدى معلوماته ٠

أنظر الى تصويرهم للانسان على أنه نتاج المادة وفكره انعكاس لهــا ٠٠ كيف أنه محــكوم بالضرورة لا يســتطيع أن يخرج عــن قوانينها ٠ انه مجرد ترس فى آلة كبيرة يتحرك بمقدار الى أجل معلوم انه مجرد حيوان يدب على الأرض فى صورة آلية محتومة تحركه الغريزة في اتجاه معين لا غاية له في الوجود الا الأكل والشرب واللباس والجماع ثم يعود مرة أخرى الى التراب ذرة من المادة التى تدور كما تدور العجلة !

وهو أقصى ما بلغوه من تفسير الوجود والانسان يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه كخرافات العجائز وأوهام الصبيان ٠

وكان لا بد أن تحدث المراجعة ولكن فى بطء وعلى استحياء تحت ضغط الحقيقة والواقع ٠

يقول انجلز فى خطــاباته : (انه على حسب الادراك المــادى للتاريخ يكون العامل الفعــال فى اللحظــة الأخيرة عــامل الانتاج والتثمير فى الحياة الواقعية ٠ وما حدث قط من « ماركس » ولا منى أننا قررنا غير ذلك ، ولكن الذى يحاول أن يجعل العامل المادىوحده فعالا فى التاريخ يخرج بالعبارة من معناها الى كلام مجرد بغير معنى ٠٠ فالعامل المادى هو المهم فى الأساس ولــكن العــوامل الأخرى السياسية وغير السياسية من دســـاتير وشرائع ومؤثرات ذهنيــة ونظريات فلسفية وعقائد دينية ــ كلها سيطر على منازعات التاريخ وتقرر أشكالها فى كثير من الأحيان)(١) ٠

(١) رسائل انجلز التى نشرت فى شهر اكتوبر سنة ١٨٩٥ فى
Socialistische Adnilker

عن العقاد في كتابه : الشيوعية والانسانية ص ٩٣

ثم يستمر التراجع ولكن فى خجل شديد ليعطى العقل حقا آخر هـو حـق التمييز عن المادة ففى « أسس الماركسية اللينينية » (ان الادراك الحسى يتعلق دائما بالفرد وبالوقائع العملية ، وبالأوجه الخارجية للظواهر وهو يعكس كل هذا بدرجة كبيرة أو قليلة من الدقة • والادراك المجرد أيضا انعكاس للحقيقـة يحتوى حقيقـة موضوعية ، ولكن الادراك المجرد يعكس الأعمال الداخلية ، للحقيقة لأنه لا يتبع الوجه الخارجى المحسوس للظواهر ، ولكنه يميز الصلات والعلاقات الجوهرية العميقة الموجودة عند جذورها •• ان قوة الفكر تتمثل فى مقدرته على تجاوز اللحظة وادراك تطور الماضى وتطور المستقبل ، بواسطـة القوانين الموضـوعية التى اكتشفها • وان الفكر عملية نشطة وهى عملية خلق الأفكار والتفاعل معها • غير ان الفكر وناتجه « الادراك » متصل بالعالم الموضوعى ، ليس اتصالا مباشرا ، ولكنه اتصال غـير مباشر خلال نشـاط الادراك الحسى ، وفائدة الادراك الفكرى أنه غير مقيد بالوقائع المحسوسة ، غـير متوقف عليها تسبيا ، ولهذا فهو قادر على الدراسة النظرية وتحليل الظواهر على تقريب غير محـدود للحقيقة المجردة وانـعكاس أكثر وأكثر دقة للعالم)(١) • وهكذا تراجع وراء تراجع فى تردد وعلى استحياء •

ويحمل « برتراندرسل » على التفسير المادى لاهماله شأن الفرد فى التاريخ فوقعوا فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الذين غالوا فيه « ككارليل » وأتباعه • ويؤكد أن تاريخ أوروبا كان سيتغير اذا لم يوجد « بسمارك » أو اذا كان لينين لم يسافر الى روسيا فيما لو كان منعه الألمان وهو يرى أن للمصادفة(٢) دورا هاما فى حركة التاريخ ، ويستدل على ذلك بأن الحرب الكبرى كانت محتملة لأسباب كثيرة حقا ولكنها لم تكن أمرا محتوما وكان بمـكن أن تؤخرها حوادث صغيرة أو تمنعها نهائيا • أما عن طرق الانتاج فان تغيرها وان كان

Fundamentals and Marxism-Leninism p. 102 - 103.

(٢) حقنا تعبيره ونحن نؤمن بقدر الله •

نتيجة ظروف مادية الا أن لها أيضا اسبابا عقلية ، لا أنها تحدث فقط حينما يستدعى الموقف الاقتصادى وجودها ، فلم يكن من الوجهة العلمية علم تجريبى من عهد ارشميدس يجعل العلم العملى سهلا ، ولقد كان تقدم العلم بعد عصر احياء العلوم هو الذى أدى الى الصناعة الحديثة . ويقول انه من ناحيـة تفاؤل ماركس بأن كل صراع يتبعه تقدم قد يحدث العكس ، فغزو القبائل الهمجية لروما لم يحدث فى أعقـابه تقدم اقتصـادى وكذلـك اخراج العرب من اسبانيا ـ ورأى ماركس ليس الا لونا من ألوان التفاؤل الذى ساد فى القرن التاسع عشر)(١) .

ومن الحقائق التاريخية أن الدافع الوطنى الذى يشتعل بالحقد نحو الغزو الأجنبى يعتبر من أهم العوامل المحركة للتاريخ أكثر من دافع الربح ـ ففى ألمانيا كان رجال « اليونكر » الذين يعيشون بالمناطق الشرقية هم الذين نهضوا بألمانيا بدافع الشعور الوطنى للتخلص من ذل الماضى ، وليس التجـار الأحرار الذين يعيشـون بالمناطق الغربية ، وفى روسيا كان سبب النهضة هو الهزائم التى منى بها الروس أمام نابليون وحرب القرم فى الحرب العالمية الأولى ، وهى التى تنهض اليوم فى الدول المتخلفة للتخلص من الاستعمار عن طريق التجمعات الوطنية والرغبة فى الاستقلال وتكوين الحكومات العصرية القومية فى مواجهة الدول الاستعمارية مهما كلفهم ذلك من تضحيات(٢) .

ان الدراسة التاريخية تشير الى أن الشيوعية ظهرت فى العالم فى حالتين :

١ ـ حالة وجود الجيش الأحمر كما حدث فى سنة ١٩٤٥ الى

---

(١) التاريخ باعتباره فنا ـ برتراند رسل ـ تحليـل : على أدهم ـ المجلة ، مارس سنة ١٩٥٩

(٢) راجع مراحل النمو الاقتصادى و. و. روستو . ترجمة : برهان الدجانى.

سنة ١٩٤٨ بسيطرته على بلاد البلقان والمجر وبولنده وتشيكوسلوفاكيا ـ التى أرهقتها الحرب وأنهكت قواها ـ وعدم توافر هذا السبب هو الذى أدى الى فشلها فى فرنسا وايطاليا واليونان ٠

٢ ـ الفساد والانقسام مع وجود قيادة شيوعية تعتمد على العون المادى والحربى لروسيا كما حدث فى الصين والهند الصينية ٠

ولا يستطيع أن يفسر لنا الماركسيون كيف يعادى جماهير كثيرة من العمال الماركسية وكيف أن قادة الشيوعية من طبقة المثقفين الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى ؟ ٠

وهذه كلها حالات لا تستقيم مع حتمية التاريخ ٠

وأبلغ دليل على فساد فكرة الصراع الطبقى هو ما أظهره التطور الاقتصادى المعاصر الذى أبرز وجود طبقات لم تكن فى حسبان التحليل ٠

ان التطور الاقتصادى بطبيعته يؤدى الى ظهور أنماط جديدة من الانتاج تتنوع باتساع حاجات الانسان هذا الاتساع يحدث بالطبع نتيجة النمو المستمر فى استغلال خيرات الأرض ونمو حاجات الانسان ونمو رفاهيته ٠

ولقد ظهرت حاجات جديدة بالأمس بظهور الانقلاب الصناعى وظهرت أشكال جديدة من الانتاج اتجه اليها قطاع من الناس زادت أهميتهم بزيادة الدور الذى تقوم به الصناعة فى عملية الاشباع وهكذا زادت أهمية رجال الصناعة بالقدر الذى زادت حاجة المجتمع اليهم ٠

وقد تصور الماركسيون ـ كما هى عادتهم ـ هذه الظاهرة على أنها جدلية فتصوروا طبقة الصناع مناقضة لطبقة الاقطاع ، وطبقة العمال مناقضة لطبقة الصناع ٠ وهذا تعسف فى التحليل لا أكثر فليس الأمر أكثر من تأكيد الأهمية النسبية لأحد سبل الانتاج بزيادة درجة مشاركته فى الاشباع ٠ ولم نر الى اليوم اختفاء طبقة

الملاك الزراعيين فلا زالوا موجودين وان كانت درجة أهميتهم في القيام بعملية الاشباع أقل من دور الصناع ·

وقد كان النشاط الاقتصادي في بدايته يعتمد على تمويل رب العمل من جهة وعلى الأيدي العاملة من جهة أخرى · وكان تعقد عمليات الانتاج واتساعها وظهور هذه الدرجة الكبيرة من التخصص للفرد والصناعة بل للدول لا زال في مراحله الأولى وأثره ضعيف · والتقدم الفني في عهد « ماركس » كان في المهد فلم تظهر في الوجود تلك العملية الهامة التي يؤديها للمجتمع طبقة المديرين الفنيين ·

واليوم باتساع عمليات الانتاج وزيادة تخصصها ونمو الفن الصناعي أخذت تظهر أهمية المديرين والفنيين في عملية الانتاج ، وزادت على أهمية العمال وأرباب الأعمال ، ذلك للحاجة لهذه الفئة لكفايتها الممتازة وخبرتها العميقة ، هذه الحاجة التي تزداد بتعقد الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بنمو المجتمع ، كل ذلك أدى الى زيادة سلطتها ·

هذه الظاهرة لم يستطع الروس اخفاءها · فحينما استفحل نفوذ هذه الفئة انتشرت الدعوة الى اللامركزية في الصناعة وأخذ المسؤولون الروس يبعدون هذه الفئة من العاصمة الى المدن · الا أن الواقع لا يساعدهم وتبقى هذه الفئة لتصعد بسرعة الى دفة الحكم والسلطان ! · وظهور هذه الطبقة من كبار الموظفين والعلماء والخبراء ·· ومديري المصانع ·· الخ طعنة لتنبؤات الماركسية تعطي لذوي العقول صورة صحيحة لفساد الماركسية فكرا وتطبيقا ·

وهذه حصيلة لم يلغها أربعون عاما من الزمن ومائتا مليون من البشر ومساحة تبلغ ضعف القارة الأوربية كلها أو سدس العالم !؟ ·

ومن قواعد الماركسية أن الصراع حتمي بين العمال والرأسماليين للقضاء على الملكية الخاصة لأدوات الانتاج ولكن نقرأ لهم اليوم أن هناك أساس لتحالف اجتماعي وسياسي أكثر من ذي قبل من العمال والبرجوازية الصغيرة وبعض الرأسماليين أنفسهم ·

ونسمع اليوم عن التعايش السلمي والمنافسة الاقتصادية •• الخ •
وطبقا للمادية الجدلية لا بد أن تسبق قوى الانتاج علاقات الانتاج فلا بد من المرور بالرأسمالية قبل الاشتراكية فعلا وعدل عن ذلك أيضا بالقول أنه يمكن أن يتطور أى مجتمع للاشتراكية أيا كان مستوى تطوره الاقتصادى •

ومن قواعد الماركسية أيضا أن التغيير لا يتم الا بالثورة الدموية وضرورة مرحلة دكتاتورية البروليتاريا ولكنهم يقولون اليوم أنه يمكن أن تأخذ دكتاتورية البروليتاريا شكل الأغلبية البرلمانية فى البلاد ذات التقاليد الديمقراطية •

ان قول « افانا سييف » فى كتابه « الفلسفة الماركسية » : (بدون استعمال منهج محدد لا يمكن حل أى مشكلة علمية أو عملية) • وهو فعلا مضمون الماركسية الذى هدمه الواقع فأصبحت النظرية لا معنى لها •• يقول « لينين » فى الجزء الرابع عشر من كتاباته : (الممارسة الفعلية يجب أن تكون الأساس الأول فى نظرية المعرفة) • ويظهر هذا التراجع فى قول خروشوف : (ان كل سؤال تطرحه الممارسة العملية فى بناء الاشتراكية هو فى الوقت ذاته سؤال يتعلق بالنظرية ، يتصل اتصالا مباشرا بالتطوير الخلاق للماركسية اللينينية) • وفى أسس الماركسية اللينينية : (ان الماركسية تدخل الممارسة الفعلية ضمن نظرية المعرفة تقديرا منها لكون الممارسة الفعلية هى الأساس والغاية فى تقدم المعرفة ومحل صدق ما نعرفه)(١) •

وعن الملكية يقول العقاد : (ان الثقات من خبراء علم الانسان « أنتروبولووجى » لم يثبتوا فرضا من تلك الفروض ولم

(١) راجع الصراع على هذه النقطة فى خطاب اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٦٤ • وخطاب « سوسلوف » فى اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ١٤ فبراير سنة ١٩٦٤

يذكروا لنا مجتمعا من المجتمعات البدائية خلا من الملكية الخاصة لوسيلة من وسائل الانتاج ، ونحن فى عصرنا هذا ننظر الى المجتمعات المترقية فى الحضارة فلا نرى مجتمعا منها خلا من المشاعية التى كانت فى العصور الأولى مما يعنيه التاريخ ويدل على ما كان قبل التاريخ .

فالأنهار وكنوز الثروة الأرضية فى حيازة المجتمع كله يمنح الرخصة فى استغلالها باذن منه متفق عليه فى الشريعة العامة ، والسلاح الموقوف على الدفاع العام لا يملكه فرد ولا جماعة بغير اذن المجتمع أو اذن الدولة ، ومثل الأنهار والمناجم وأسلحة الجيوش كمثل الآبار والمراعى وأسلحة الصيد العامة أو أسلحة القتال فى المجتمعات البدائية ، لم يتغير فيها شىء من جهة المبدأ أو من جهة التحليل والتحريم بحكم العرف والشريعة .

ولم يذكر علماء الانسان عهدا حرمت فيه الملكية الخاصة من هذه الوجهة ولكنها تترك للاستغناء عنها كما تترك ملكية الأنهار وما اليها فى الحضارات المترقية ويمكن أن يقال ان الملكية الخاصة وجدت حيث وجدت الحاجة اليها والرغبة فيها والقدرة عليها ، وانها قائمة قيام المشاعية أو الشيوعية فى المجتمعات الأولى .

عن « العقاد » يقول سبك فى مبحثه عن أرض الصيد بين قبائل الشمال الشرقى الحمراء :

(ان أرض الصيد هنا محدودة بحدودها الصريحة يرثها الابن عن أبيه وتنتقل الزوجة الى سكن زوجها الخاص ، وللأخوة فى بعض الأحوال حقوق فى المزايا الاقتصادية) .

ويقول الرحالون الذين عاشوا بين قبائل السكاى فى غانه الجديدة : (ان الأرض بينها مشاعة على العموم ، ولكن اللص الذى يضبط فى أرض يقوم على زرعها أحد غيره يجوز قتله ولا يحق لأهله أن يثأروا له أو يطلبوا الدية من قاتله ، وأنهم ربما سمحوا بغرس شجرة مثمرة فى أرض الغريب ولكنهم لا يسمحون ببناء كوخ أو خص

عليها ، وان الرجل منهم يملك أسنان الخنزير البرى أو أسنان الكلب ، لانها ذات قيمة سحرية أو فنية ويحق له أن يقتل من يسرقها أو يحاول اغتصابها وأن ثمرات الأشجار عندهم حق لغارس الشجرة في حقل يزرعه غيره ، وان الصائد الذى لمح الصيد لأول مرة صاحب حق فيه لا نزاع عليه) ٠

ويروى خبراء علم الانسان عن قبائل « كساريرا » ـ الاسترالية ـ أن الأرض عندهم قد تملكها شعبة من القبيلة ، وقد ينشب القتال بين مالكها وأعدائهم ثم لا يخطر على بال الغالب أن يستولى على الأرض ويطرد منها من كانوا يحتلونها من العشائر المهزومة ٠

وتروى حالات شبيهة بهذه الحالات عن العشائر البدائية فى الهند وسيلان والأقاليم الافريقية ، يرجع اليها فى مصادر كثيرة نذكر منها كتاب (رحلات فى افريقية الغربية) «لكنجلى» ـ وكتاب (العشائر والبطون في كاليفورنيا الجنوبية ـ « لجيفورد » ـ وكتاب (توزيع الأرض وتقاليد الميراث بين المكسيكيين الأقدمين ـ « لبالدير ») ٠ وأشباه هذه الكتب والتقارير التى أجمعت على اختلاط أحوال المشاعية والملكية الخاصة فى المجتمعات الأولى ولم ينفرد منها مرجع يحصر جماعة قط فى نظام واحد خلا من أثر الملكية الخاصة أو أثر الملكية المشاعة)(١) ٠

وظاهرة التأميم كما نراها لا يلزم أن تكون نتيجة أطوار كما يزعم الشيوعيون ٠ فالعالم كله اليوم يقترب من مشاعية المرافق حتى أغنى الدول الرأسمالية ٠ بل شاهدناها قديما على عهد الفراعنة وعهد محمد على وفى ملكية القبيلة ٠ فليس هو الحتم التاريخي فى أطوار وانما هى ظاهرة وجدت قديما وحديثا قد يمليها الهوى وقد يستمليها الحاجة الملحة للأمة ٠

ومن أسلوب الشيوعيين فى المناقشة نرد عليهم متسائلين لماذا

(١) الشيوعية والانسانية ٠ العقاد ٠ ص ١٢٧ ، ١٢٩ ٠

كان الغاء الملكية الخاصة الوسيلة الوحيدة للخروج من تناقضات الرأسمالية ولم تكن مخرجا للعبودية أو الاقطاع ؟

ونحب هنا أن نشير الى زاوية هامة تفصل الحق عن الباطل والذى طالما يؤدى عدم التحليل السليم الى الافراط أو التفريط نتيجة عدم الادراك السليم • ان أزمة البشر ليست هى فى الملكية وانما فى سوء استخدامها سواء فى أسلوب الحصول عليها أو فى طريقة استخدامها وما السرقة أو الاحتكار أو الاستغلال أو الاستعمار وطغيان ذوى الغنى الفاحش الا مظهر من مظاهر سوء استخدام الملكية أو الحصول عليها •

وأبلغ رد هو تعبير « انجلز » على فساد التفسير المادى فى نقد لما كتبه « ماركس » عن « الصراع الطبقى فى فرنسا » : « لقد أثبت التاريخ أننا كنا وكان كل الذين يفكرون مثلنا مخطئين » •

وليس فى استطاعتنا أن نقول فى هذا التفسير المادى أكثر مما قال « انجلز » عنه فى ختام حياته فى رسالته الى « بلوخ فى »٢١ سبتمبر سنة ١٨٩٠ : (انه على ماركس وعلى أنا يقع بعض التبعة فى توكيد العوامل الاقتصادية واعطائها فوق ما تستحق من التقدير وقد كنا أمام حملات خصومنا مضطرين الى توكيد المبدأ الأصيل فى دعوتنا لانكارهم اياه ولم يتسع لنا الوقت كل حين لابراز العوامل الأخرى بين الفعل ورد الفعل من العوامل المتعددة) •

وهكذا كان سهلا عليه وعلى ماركس أن يغالط ويكتم حقائق فى سبيل الرد على الخصوم وهذه ليست سمة العلماء لأن كسب المعارك الصغيرة لا يكون أثمن من تتبع الحق واظهاره والتمسك به اللهم الا ممن ينكر ذلك ممن لا خـــلاق لهم ولا عـــلم ، حتى اذا انكشف أمرهم أخذوا يتظاهرون بالاعتراف المسرحى دون خزى أو حياء •

وهذا الخطاب يدل أكثر من هذا على أن ما قدموه من تفسير لا يعتد به لأنه أهمل العوامل الأخرى باعترافهم فلا يطمئن اليه

فى تحليل أتفه الحوادث التاريخية فما بالك بمستقبل الانسانية ! •

سراب الشيوعية :

ونناقش فكرة الشيوعيين عن المستقبل أو الجنة الموعودة التى يبشر بها كهانهم البلهاء •

يقولون انه باستيلاء الدولة على ملكية وسائل الانتاج سيتقدم المجتمع حتى يحقق التوفير الكامل لكل السلع بحيث يقضى على الندرة هنا لن تكون هناك دولة لأن الدولة قوة تستغلها طبقة فى امتصاص دماء طبقة بها أو دولة أخرى ولن يكون هناك حاجة لنقود لأن الندرة قد انقشعت فكل سلعة ستصبح كالماء والهواء ـ وسيكون العمل ذاتيا لأنه منبعث من حاجة الانسانية الأساسية للعمل •

ان وفرة الانتاج التى يحلم بها الشيوعيون لن تحدث ابدا بالصورة التى قدموها • الحاجة بطبيعتها متطورة لا يقف الانسان عند حد منها يعتبره نهائيا ولعل هذه الحقيقة الأساسية هى سر النمو المتصل للحياة ، ولو تصورنا حدا أعلى من قرون لكان مجتمعنا اليوم شيوعيا اذا ما قورن بمستوى الحياة منذ هذه القرون •

وقد يرد على ذلك بأن المقصود من الوفر هو وفرة الحاجات الأساسية وبالطبع هذا لغو ، فان فكرة الحاجات الأساسية فكرة نسبية مرتبطة بالنمو الاقتصادى • لقد أصبح الراديو اليوم عندنا حاجة أساسية وكان بالأمس كمالية وفى أمريكا نجد السيارة أساسية وهى عندنا مثلا كمالية •

هذه الحقيقة تؤدى بنا الى ضرورة التسليم بوجود الندرة • وبهذا ينهار التحليل الجدلى من أساسه • انه لا بد من النقود ولا بد من وجود الدولة • لأن وجود الندرة باستمرار سيدعو الى السرقة والتهافت على الملكية مما يدعو باستمرار الى ايجاد رقابة من الدولة وثمن لتوزيع الأشياء توزيعا عادلا •

أما بالنسبة للعمل فانا نتساءل ما هى الأسس التى بنى عليها الشيوعيون تصور قيام الانسان بعمله تلقائيا؟ هل عندهم من تجربة

التاريخ الماضى ما يؤيد ذلـك أم عندهم من الدراسـة النفسـية الموضوعية ما يثبته ؟ .. لا شيء من ذلك اطلاقا اللهم الا الوهم ! . ان البديهية الأولى التى يدركها كل انسان أن العمل شقاء وأن الراحة نعيم . بل هم يستمرون فى ترديد دعوتهم الى تقصير يوم العمـل وتخفيف العبء عن العامل . والانسان أبدا يركن الى الكسل ما لم تدعه دعوة ملحة الى العمل . فما مصدر البهجة لعامل يشتغل فى منجم . وكيف يفضل هذا على عمل فى الجامعة مثلا أو فى السينما ؟ وكان على الماركسيين فى تجربتهم كما رأينا أن يجبروا العمال على العمـل بالحـديد والنار اذا ما أرادوا أن يسـووا بينهم فى الأجر والحاجات أو يعودوا الى الفطرة فى التمييز فى الدخول واباحة الملكية لاثارة الدوافع الأصيلة فى النفس الانسانية للانتاج والعمل . أما توهم أن العمـل سيكون ضرورة كالأكل والشرب فـانه خرافـة كخرافات العجائز لا سند لها من علم أو تجربة . ولولا أن روسيا قد عادت الى تمييز الدخول والسماح بدرجة من التملك لما استطاعت أن تخطو خطوة واحدة . ورغم ذلك فان الدوافع الفطرية من التمييز والتملك غير كاملة لهذا تستعيض عنها بوسيلتين :

أولاهما : استخدام النظام البوليسى والقوة الغاشمة التى لا تعرف معنى الرحمة مع العمال .

ثانيهما : اثارة التنافس القومى لوجود أمريكا بالذات أمامها فى مجال التنافس وبدرجة أكثر تقدما فهى تحاول تقليدها .

ولو تصورنا قيام هذا المجتمع لتصـورنا معه لزاما صـورة معينة وهى الكسـل والخمول فى أغلب الناس وانهيار مسـتويات الابتكار والتجديد ـ ورفض الأفراد القيام بعمل ينال ثمرته الآخرون ولا يستفيدون منه على الوجه الذى يرضيهم . انه نظام يتحرك فيه الانسان ببطء شديد وتنحل فيه الحضارة بالتدريج ولن يكون هناك معيار للانتاج أو التوزيع مما يؤدى الى الضياع وسوء توزيع الموارد .

سيأخذ كل انسان بالطبع جميع حاجته . وبلا شك أيضـا

سيأخذ ما يريد من الخمر والمخدرات وسيظل يعب منها ما استطاع ليحس باللذة فى هذه الحياة المملة التى تلاشت فيها الغايات الصغيرة والكبيرة ، ولك أن تتصور بعد ذلك ما هى الصورة التى سيكون عليها الانسان والمجتمع ، سينتشر الظلم والفوضى ولا يلتزم الأفراد بعهودهم ويصبح الضعيف لقمة سائغة فى فم القوى •

ونحب هنا أن نبين الأثر النفسى الناجم عن اتباع هذا التفسير المادى فى أخلاقيات المجتمع الموجود الذى تربى ورضع من الشيوعية والمفروض أنه تقدم بها وصورته الآن تدل على مستقبله • قال « لينين » فى رسالته الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ : (ان الرفيق ستالين وقح جدا ومثل هذا وان كان مقبولا فى التعامل بيننا نحن الشيوعيين فانه غير مقبول من سكرتير عام) !! ـ ويقول « هنرى لوفيفر » فى كتابه « أزمة الرأسمالية الراهنة » : (أما فيما يتعلق بالنظرية الأخلاقية فالنقص هنا مفزع وفادح • ان الماركسية تتأرجح بين نوعين من الأخلاق : أخلاق اجتماعية تدعو الى فضائل الأخلاق والتضحية قاصرة اياها على الطبقة العاملة أولا ، وبين لا أخلاقية سياسية تستمد قيمتها من مقتضيات العمل والنضال الآنية) • وردد « انجلز » ما ذكره « كارديلى » فى كتابه « الاشتراكية والحرب » : (بالنسبة الى أنا الثورى تكون أية وسيلة تؤدى الى الهدف وسيلة سليمة) • وعصر « ستالين » أحسن تطبيق لهذا المبدأ غير الأخلاقى الذى لم يصل ناره الا أصحابه • وهم لو بحثوا عن منهج أخلاقى لما وجدوا له أساس فكرى يقيمونه عليه ، ولا يستطيعون أيضا أن يعملوا به لأنه يحتاج لوازع من الداخل وليس فى الداخل الا الصراع والأثرة ذرية المادية والماديين •

وأظنهم سيقولون أن المجتمع يتدخل بعد تلاش الدولة ••• ولكن كيف يتدخل ؟ ـ أعن طريق استخدام القوة ضد من يرتكب الجرائم أو عن طريق سخط الجماهير ؟ • ولكننا فى هذه الحالة نكون

قد أعدنا مساوىء عدم اليقين والتسرع والانفعال التى تلازم عملية الاقتصاص العرفى دائما(١) ٠

يقول « رسل » (ان القسوة فى معاملة الأطفال وجرائم الغيرة والاعتداء على العرض وما اليها من جرائم لا جدال فى انها تحدث الى حد ما فى أى مجتمع ٠ ومنع فعل هذه الأعمال أمر جوهرى حتى يتمتع الضعفـاء بالحرية ٠ واذا لم يفعل شىء لمنعها فانه يخشى أن عادات المجتمع ستصبح أكثر خشونة شيئا فشيئا ، وتصبح بعض الأعمال التى يقل حدوثها الآن أكثر شيوعا)(٢) ٠

وبخصوص النظرة الخـاطئة للدولة التى قال عنهـا لينين : (لا نحتاجها قط من أجل الحرية ، بل من أجل قهر خصومنا ، ويوم يصبح فى الامكان الحديث عن الحرية لن تكون ثمة دولة) ٠ وبعد هذا الزمن الطويل فى المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى تحل (دولة كل الشعب) محل دكتاتورية البروليتاريا ٠ ويهتف ـ افانا سييف ـ لها فى كتابه « الفلسـفة الماركسية » : (لأول مرة تنشأ دولة ليست دكتاتورية لأى طبقة معينة بل أداة للمجتمع كله أى للشعب كله) ٠ فهل سمح الشيوعيون لعقلهم أن يفكر فى مصير النظرية التى تلغى الدولة بعد انتهاء صراع الطبقات وهل ردوا على ما أثاره الشيوعيون الصينيون من أن ذلك خروج على الماركسية اللينينية ٠

ولقد كانت فكرة الغاء الدولة فكرة هينة أيام ماركس وبرودون وباكونين حين كانت الدولة تقوم بدور ضئيل فى المجتمع ٠ فقد كانت الوحدات الفردية والنشاط الفردى سائدا فى بداية العصر الرأسمالى الا أنه رغم ذلك كان وجود الدولة ضروريا وقد صور لهم ضيق مجال عملها حينئذ هذا الوهم ٠

ليس معنى ذلك أن فى الدولة عيوبا نطالب بالغائها ، ان هذا

(١) سبل الحرية ٠ برتراند رسل ٠ ترجمة : عبد الكريم أحمد ٠ ص ١٣١

(٢) نفس المصدر ٠

شطط ، ان الدولة ليست فاسدة في ذاتها ولكن الفساد ينصب عليها من ناحية الوظيفة . فلا ينبغى أن تهدم الدولة ولكن نصلح من فسادها ونقوم معوجها .

أما فيما يختص بالحالة الاجتماعية فى هذا المجتمع الشيوعى فيقول لنا عنها انجلز (ما نستطيع استنتاجه حاليا عن تنظيم العلاقات الجنسية بعد تصفية علاقات الانتاج الرأسمالى فهو يعتبر استنتاجا ذا طابع سلبى يحدد ما سيختفى الزواج . ولكن ما الذى سيزيد على الزواج ؟ . هذا هو ما سيستقر بعد نمو جيل جديد ، جيل من الرجال لم تسنح الفرص أن يشترى استسلام المرأة سواء بالمال أو بأى وسيلة أخرى من وسائل السيطرة الاجتماعية ، وجيل من النساء لم يضطررن أبدا للاستسلام لأى رجل لأى سبب سوى الحب الحقيقى ، ولن تخاف المرأة حينئذ أن تمنح نفسها لمن تحب خشية النتائج الاجتماعية ، وعندما يظهر هذا الجيل فانه لن يهتم أبدا بما نعتقد اليوم أنه يجب عليه عمله ، فسيتبع طريقه الخاص وسيكون له رأيه الخاص بدون اكتراث بما نعتقد)(١) .

ان الدارس لتاريخ الزواج منذ القدم يجد أن المشايعة الجنسية لا نستطيع أن نطلقها على نظام يوجد به زواج لأن الشعب لا يعد سائرا على نظام المشايعة المطلقة الا اذا لم يكن فيه زواج وكان نساؤه مشاعا لجميع رجاله . أما الاستشهاد باباحة العلاقات الجنسية بين غير المتزوجين من الرجال والنساء فى بعض الشعوب البدائية أو وجود نظام من البغاء تقره الشعائر أو التقاليد فان هذا انحراف واستثناء لا يهز القاعدة الأصلية وهى احترام العلاقات الجنسية وتقييدها عن طريق الزواج .

أما الاستشهاد بأن النظام الأمى دليل على وجود المشاعية الجنسية قديما فهو استشهاد خاطىء لأن النظام الأمى يتصل اتصالا مباشرا بتحديد القرابة لا العلاقات الجنسية ، ولقد لوحظ ذلك فى

(١) أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة . ص ٧٩

العشائر الأسترالية التى تسير على النظـام الأمى ، فلم يشـاهد الباحثون فيها أىأثر للشيوعية الجنسية وكان الأبناء معروفى الآباء ، فالقول بنظام الشيوعية المطلقة خطأ لأنه لم نعثر عليه فى أى مجتمع من المجتمعات الانسانية سـواء فى ذلك البدائى منها والمتحضر ، فليس من بين المجتمعات الحاضرة والغابرة التى وقفنا على نظمها عن طريق ملاحظتها أو ملاحظة ما خلفته من آثار أو عن طريق ما كتبه المؤرخون أو الرحـالة أو علماء الأنتوجرافيا Enthographie أو القـانون • ليس من بين هـذه المجتمعات أى مجتمع آخـذ بنظام الشيوعية المطلقة فى علاقة الرجال بالنساء فكان جميع نسائه مشاعا لجميع الرجال صحيح أن بعض المنشئين للمدن الفاضلة ـ Utopia قد أراد أن تسير مدنه على هذا النظـام وأن بعض علماء القانون والانتوجرافيا قد زعم أنه كان النظـام السائد فى فجر الانسانية ولـكن هؤلاء وأولئك تنكبوا جادة الصـواب ولم تعبر آراؤهم عن الواقع فى شىء(١) •

ان الحقيقة أنه ليس هناك فرق بين الحركة الشيوعية وبين الحركة التى حدثت فى عهد سليم فى تركيا وفى عهد محمد على فى مصر للسيطرة على الموارد جنبا الى جنب مـع السيطرة السياسية للحصول على القوة • فمن الخطأ ربط تاريخ روسيا بالتفسير المادى للتـاريخ ، والأصح لنا أن نتصورهـا كأى حركـة من الحركـات السياسيـة كالحركـة التى قادهـا « هتلر » باسم النـازية أو « موسولينى » باسم الفاشية أو ثورة صن يات صن ، وكلها قامت تحت تأثير الهزائم وأزمات المعيشـة وقلاقل الحـكم ، ولم تعـدم الفاشية الايطالية من يؤلف لها : « دائرة معارف فاشية » أو العلماء الذين فسروا التاريخ لهتلر على أسس بيولوجية ترتبط بالجنس والسلالة وكما يفسر الصهيونيون التاريخ اليوم على أنهم شعب الله المختار •

(١) الأسرة والمجتمع • على عبد الواحد وافى • ص ٩٠ ، ٩١

يقول توينبي : « ونجد المشابهة الوحيدة لتحد خارجي فعال للمجتمع الغربي منذ فشل العثمانيين الثاني في الاستيلاء على فينا ، في تحدى البولشفية الذى ما انفك يجابه العالم الغربي منذ تنصيب لينين ومعاونيه عام ١٩١٧ أنفسهم سادة على الامبراطورية الروسية، على أن البولشفية ، لم تهدد بعد سيادة الحضارة الغربية أبعد من حدود الاتحاد السوفيتي •

على أنه حتى اذا حدث أن أتاح المد الشيوعي تحقيق آمال روسيا في الانتشار على سطح البسيطة بأسرها ، بغرض انتصار الشيوعية على الرأسمالية انتصارا عالمي الطابع ، لا يعني هذا انتصار ثقافة أجنبية طالما أن الشيوعية - عكس الاسلام - تستمد أصولها من مصادر غربية باعتبارها يقينا ، رد فعل ضد الرأسمالية الغربية التى تحاربها •

وفي الحقيقة يبدى انتحال روسيا في القرن العشرين هذه العقيدة الغربية الدخيلة عليها - بصرف النظر عما يحمله انتصارها من تعريض الثقافة الغربية للخطر - مدى ما بلغه نفوذها من حول واقتدار •

وثمة غموض عميق بالنسبة لطبيعة البولشفية التى بشر بها لينين ، فهل جاء يستكمل رسالة بطرس الأكبر أو ليدمرها •

ان اعادة نقل عاصمة روسيا من معقل بطرس غير المألوف الى موقع مركزى في الداخل ، هو بمثابة اعلان لينين نفسه خليفة البطريرك الأكبر وخليفة قدماء المؤمنين وأصحاب النزعات السلافية، وهنا قد نستشعر بأن لينين بمثابة نبي لروسيا المقدسة ، بعث ليبشر برد فعل الروح الروسية ضد المدنية الغربية ، لكن يعترض على هذا الرأى « أن لينين عندما أخذ يبحث عن عقيدة ، استعارها من ألماني يهودي - كارل ماركس - متأثر بالمدنية الغربية - وان كان لا ينكر أن العقيدة الماركسية تقترب من الانكار التام لنظام المجتمع الغربي أكثر من اتجاه أية عقيدة غربية أخرى الى هذا الانكار ،

الأمر الذى يجعل الماركسية أكثر العقائد الغربية مؤاءمة لأغراض نبي روسيا فى القرن العشرين ·

وفى الواقع ، فان العناصر السلبية لا الايجابية فى العقيدة الماركسية هى التى جعلتها موائمة للعقلية الروسية الثورية · وهذا ما يفسر كيف أنه فى سنة ١٩١٧ تولى مذهب غربي غريب يناهض الرأسمالية خلع الجهاز الرأسمالى الغربى الذى لا يقل عنه غرابة ، والذى كان ما يزال قائما فى روسيا فى ذلك الحين ··

على أن الظاهرات تأخذ طابعا مختلفا اذ تحول اهتمامنا من العقيدة الى الأعمال ونفحص ما أداه لينين وخلفاؤه للشعب الروسى فعلا ·

واذ نسائل أنفسنا عن مغزى مشروع ستالين للسنوات الخمس ، تحضرنا اجابة مدارها أنها مجهود لادخال الأجهزة الميكانيكية على الزراعة والصناعة والمواصلات وتحويل أمة من الفلاحين الى أمة من الميكانيكيين ، ونقل روسيا القديمة الى أميركا جديدة — وبكلمات أخرى — هى محاولة أخيرة ناحية التحول الغربى بلغت حدا من الطموح والتطرف والجور ، لم تعد معه رسالة بطرس الأكبر شيئا مذكورا(١) ·

وفيما يختص بتفسير الماركسية للدين تتناقض التفسيرات المادية وتهزل الى الحد الذى يستحق السخرية والرثاء — فانجلز الذى يقول : (بأن الدين نشأ نتيجة خطأ فكرى لتصور العقل فى مرحلة متخلفة) تجبره الحقيقة التاريخية أن يتناقض مع حتمية المادية ، حين رد على فيورباخ قوله : (ان تأكيد فيورباخ بأن مراحل الانسانية لا تتميز الا بتغيرات فى النظام الدينى لمغلوط تماما ، ذلك

---

(١) مختصر دراسة التاريخ · آرنولد توينبى ص ٣٤٠ : ٣٤١ · ترجمة : محمد شفيق غربال ·

أن الانعطافات التاريخية الكبرى لم تكن مصحوبة الا بمقدار ما يتعلق الأمر بالأديان العالمية الثلاثة الكبرى : البوذية والمسيحية والاسلام. ولم يكن للأديان القبلية والقومية القديمة التى نشأت بصورة طبيعية أى اتجاه نحو دعوة الناس للانتساب اليها واعتناقها وكانت تفقد كل قدرة على المقاومة منذ أن يتحطم الاستقلال القبلى والقومى . بل كان يكفى من أجل ذلك عند الجرمان احتفال بسيط بالامبراطورية الرومانية السائر فى طريق الانهيار وبالدين المسيحى العالمى الذى كانت قد تبنته منذ مدة قصيرة باعتباره موافقا لوضعها الاقتصادى والسياسى والايديولوجى ، ونحن لا نشاهد حركات تاريخية شاملة تحمل طابعا دينيا الا بالنسبة للمسيحية والاسلام) .

يقول الأستاذ العقاد مناقشا رأى الماركسيين فى تفسير الحركة الدينية : (والأكثرون من ناقدى الأديان يعللون العقيدة الدينية بضعف الانسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من القوى الطبيعية والأحياء ، فلا غنى له عن سند يبتدعه ابتداعا ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه اليه بالصلوات فى مصائبه وبلواه .

على أن القول بضعف الانسان تحصيل حاصل ان اريد به بطلان العقيدة الدينية واثبات التعطيل لأن الانسان ضعيف على كلا الفرضين فليس من شأن ضعفه أن يرجح أحد الفرضين على الآخر .

فاذا ثبت انه من خلق اله فعال قدير فهو ضعيف بالنسبة الى خالقه ، واذا لم يثبت ذلك فهو ضعيف بالنسبة الى الكون ومظاهره وقواه ... لكن الواقع أن الضعف لا يعلل العقيدة الدينية كل التعليل لأنها تصدر من غير الضعفاء من الناس وليس أوفر الناس نصيبا من الحاسة الدينية أوفرهم نصيبا من الضعف الانسانى سواء أردنا به ضعف الرأى أو ضعف العزيمة . فقد كان الأنبياء والدعاة الى الأديان أقوياء من ذوى البأس والخلق المتين والهمة العالية والرأى السديد . ومهما يكن من الصلة بين ضعف الانسان واعتقاده فهو لا يزداد اعتقادا كلما ازداد ضعفا ولا يضعف على

حسب نصيبه من الاعتقاد وما زال ضعفاء النفوس ضعفاء العقيدة ، وذوو القوة في الخلق ذوو قوة في العقيدة كذلك .

فليس معدن الايمان من معدن الضعف في الانسان وليس الانسان المعتقد هو الانسان الواهي الهزيل ، ولا امام الناس في الاعتقاد امامهم في الوهن والهزال ...

واذا رجح القول بأن العقيدة « ظاهرة اجتماعية » يتلقاها الفرد من الجماعة فليس الضعف اذن بالعامل الملح في تكوين الاعتقاد لأن الجماعة تحارب الجماعة بالسلاح المصنوع وقوة الجنان مع القوة العددية . وتقيس النصر والهزيمة بهذا المقياس المعلوم فلا تلجأ الى مقياس العقيدة المجهول الا اذا آمنت به لباعث غير باعث التسلح والاستقواء .

ورأى « فرويد » Freud قريب من رأى هؤلاء الذين يردون العقيدة الدينية الى شعور الخوف في وسط العناصر الطبيعية وربما اختلط به مزيج من الغريزة الجنسية في بعض المتهوسين وذوى الأعصاب السقيمة فان حب الله كما يفسره « فرويد » عند هؤلاء هو بمثابة الحب الجنس في حالة « التسامى » أو حالة الحماسة ، وتتشابه العوارض كلها مع هذا الفارق بين الحبين ... ومن الواضح أن حالة التسامى هى آخر ما ارتقت اليه الأديان فلا يمكن أن يقال انها ينبوع العقيدة الهمجية الأولى .

ولا يمكن كذلك أن يقال ان العقيدة الدينية حالة مرضية في الآحاد والجماعات لأننا لا نتخيل حالة نفسية هى أصح من حالة البحث عن مكان الانسانية من هذا العالم الذى ينشأ فيه . ولا يتجاهل حقيقته الا وهو فى حالة مرضية أو حالة من أحوال الجهالة تشبه

الأمراض(١) .

وها هو تاريخ الاسلام يظهر تهافت هذه النظرية ...

فالدارس لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجد أناسا قد تجردوا من الدنيا تماما وضحوا بأثمن ما فى الوجود فى سبيل نصرة هذا الدين ، لقد ضحوا بأرواحهم ..

وهل يستطيع أحد أن يقول ان محمدا عليه السلام كان يبغى الملك أو الدنيا بهذه الدعوة ؟ . لقد رأينا ما عرض عليه من ذلك بالحاح فأبى وفضل الموت عليه ... وذلك ما دفع « توينبى » أن يقول : (ان رجلا ثبت في دعوته ثلاثة عشر عاما قبل أن يهاجر الى المدينة ، تعرض خلالها للأذى والموت لا يمكن الا أن يكون عامر النفس بايمان دينى عميق) .

وهل كانت « سمية وياسر » يبغيان الدنيا حينما سلط عليهما أبو جهل العذاب لينطقا بكلمة الكفر . ولم يملك رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما شيئا الا أن يقول : (صبرا آل ياسر ـ فان موعدكم الجنة)(٢) . وظلا فى صبرهما حتى لقيا الله شهداء .

وماذا كان يبغى المهاجرون حين تركوا الدنيا وراءهم وهم يعلمون أنهم ذاهبون حيث الفقر والحاجة ؟ .. وهذا صهيب يضحى بكل ما له حين خير بينه وبين أن يلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بدار الهجرة ؟ . أين هو الهدف المادى اذن فى هذا الايمان ؟ .

وكان فى الدعوة الشريف الغنى كعثمان ، والفقير الذى لا يملك شيئا كبلال ، بل كان منهم من يضحى بكل ماله فى سبيل الله كأبى بكر دون أن يترك لأهله شيئا ـ وكان يستطيع أن يعيش فى سعة من ماله ورفعة من قومه دون أن يخالف ما هم عليه .

ولقد انتشر الاسلام بسرعة ما تزال خارقة ، فقد هزم فى أقل من عشر سنوات فارس وروما واستولى على السواد والشام وفارس

---

(١) الله . العقاد ص ١٠٨ ـ ٢٦

(٢) رواه الطبرانى واخرجه أحمد .

ومصر ، ولا زال التاريخ حائرا فى تبرير انتصار هذه القلة الضعيفة السلاح أمام الكثرة العددية بعددها وعدتها • وقد وضح من اللحظة الأولى أن الهدف من هذه الحملة ليس ماديا حيث كان يدعى الأفراد أولا الى الاسلام فان اسلموا تساوى الجميع فى الحقوق والواجبات هم وغيرهم من المسلمين دون تمييز ، فان أبوا الاسلام فالجزية والا فالقتال والجزية تصرف أولا على المحتاجين منهم وثانيا للدفاع عنهم حين يعفون من الحرب ان أرادوا ، فهى اذن لا تتضمن أى مغنم للمسلمين ، والهدف من الحملة كما يحدده القرآن هو اظهار الاسلام على الدين كله — دون اكراه فى الدين — ليسود العالم الحرية والسلام والعدل •

وفى التشريع الاقتصادى الذى قدمه الاسلام ما يهدم هذا التفسير فكيف نفسر الغاء الربا والاحتكار وتحريمهما ومنع أن يكون المال دولة بين الأغنياء •• وكيف يحدد الاسلام وظيفة الملكية •• الى غير ذلك من أصول الاسلام الاقتصادية ؟ •• وكانت المرحلة —حسب التفسير المادى — تحتم عليه أن يكون غير ذلك ويتجاوب مع قوى الانتاج !

ولقد كان عصر عمر بن عبد العزيز معجزة تاريخية حيث أوقف المدالمنحرف عن أصول الاسلام واستطاع بقوة الكتاب والايمان أن يرد للناس ما استلبه بنو أمية ، فنشر التوازن الاقتصادى فى المجتمع كله بعد أن كان قد اختل حتى أن عماله كانوا يبحثون عن الفقراء والمستحقين للصدقة فلا يجدونهم لأن الناس كلهم أصبحوا أغنياء •

الفصل الثالث

شقاق وشقاء

ان المادية الجدلية هي الأسطورة الكبرى التي تبرر بها الأخطاء ويملى بها للطغيان فحين يطغى الدكتاتور تكون الحتمية التاريخية والتفسير العلمي طوع بنانه يبرر له ، وحين يفشل يتحول الفشل نجاحا عن طريق التحليل الغامض الذى يسمونه جدلا علميا والعلم منه براء •

مثلا أدت الشيوعية الحربية في الفترة بين سنة ١٩١٩ ، سنة ١٩٢٢ الى انهاك قوى روسيا الى حد اضطر لينين الى العودة الى أساليبه الخاصة ، وأطلق عليها « السياسة الاقتصادية الجديدة » •

ففى ٨ نوفمبر سنة ١٩١٧ صودرت كل الملكيات الكبيرة بدون تعويض ، وآلت الملكيات الزراعية الى مجالس الفلاحين ، وفى ١٤ نوفمبر سنة ١٩١٧ خضعت كل المؤسسات الصناعية والتجارية للاشراف الفعلى المباشر للعمال • ثم تلا ذلك الغاء التجارة الداخلية ، وتأميم البنوك والشركات ، وتقرر الاستيلاء على فائض الانتاج عينا • ومضت أربع سنوات وفشلت التجربة وخرب الاقتصاد ونشبت المجاعة مخالبها في كبد الشعب المسكين نتيجة هبوط الانتاج الصناعى الى خمس ما كان عليه قبل ذلك وازداد التضخم فانهارت العملة الى ١٪ من قيمتها ومنى الغاء النقود بالفشل • وفى ٢٩ مارس سنة ١٩٢١ أفاق « لينين » قليلا فألغى الاستيلاء على فائض الانتاج عينا • وبعد ثلاثة أيام عادت حرية التجارة الداخلية • وفى ١٧ مايو سنة ١٩٢١ صرح لصغار المنتجين أن يبيعوا منتجاتهم لحسابهم • وفى ٧ يونيو سنة ١٩٢١ ألغى تأميم كل المؤسسات الصناعية التى لا يزيد عدد العمال فيها على عشرين عاملا • وفى ١٠ يوليو سنة ١٩٢١ أتيح للأفراد والشركات أن تقيم مصانع مملوكة لها ملكية فردية • وعندما

انعقد المؤتمر الحادى عشر للحزب الشيوعى فى مارس سنة ١٩٢٢ • قال « لينين » : (قد يكون الواحد منا شيوعيا مناضلا أمينا مخلصا لمبدئه ، مضحيا فى سبيله ، ولكنه مع هذا لا يصلح تاجرا ، لأنه ليس رجل أعمال ، ولأنه لم يتعلم ذلك ، أو لا يريد أن يتعلم ولا يعرف انه يجب أن يبدأ من ألف ياء • هذا الشيوعى الثورى الذى قام بأكبر ثورة فى تاريخ العالم ، والذى تحدى أربعين دولة لأربعين قرنا، يلزمه أن يتعلم درسا من سمسار عادى لم يفعل الا الجرى عشرات السنين فى بيوت التجارة) • وقال (كفوا عن المناقشات البيزنطية عن العلاقة بين الاشتراكية ورأسمالية الدولة ولا تنسوا المهمة الأساسية) أى مهمة الانتاج لدرء المجاعة ! •

ونشر « لينين » فى جريدة كراسنايانوفا فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٢١ قوله : « اننا أغبياء وضعفاء، وقد اعتدنا القول بأن الاشتراكية شىء حسن وأن الرأسمالية شىء سىء ، ولكن الرأسمالية ليست سيئة الا بالنسبة الى الاشتراكية أما بالنسبة الى القرون الوسطى ، حيث لا تزال روسيا متأخرة ، فليست الرأسمالية سيئة) •

وقد عارض المراجعة الكثيرون من أتباعه ووصفوها بأنها رجعية• ولم يجد لينين سوى تبرير واحد هو الضرورة القصوى. ولكن الماركسيون اليوم لا يعدمون من أساليب الجدل ما يصفون به هذه الحادثة ليصبح كل شىء مفسرا تفسيرا علميا ! •• قالوا : (ان الاعتراضات التى قامت فى ذلك الوقت انما قامت لقصور فهم الجدلية •• ان السياسة الاقتصادية الجديدة هى النقيض الجدلى للشيوعية الحربية ، وسياسة ستالين منذ عام ١٩٢٤ • وما بعده بمثابة تآلف النقيضين • وهكذا يتحول الخطأ بالتأويل والتزوير لا الى صواب فحسب بل الى حق مطلق لا بد من الايمان بحتميته ! •

ومثال آخر أوصى به ذلك الوهم الجدلى •• فقد تصوروا أنه لا بد لانتصارهم فى ألمانيا أن يتمتع « هتلر » بفترة قصيرة من

السلطان ولهذا صدرت الأوامر لعملائهم بأن يهاجموا الديمقراطيين الاشتراكيين بدلا من التعاون معهم ضد العدو المشترك وكانت النتيجة أن استولى « هتلر » على السلطة وقضى على الاثنين معا(١) ٠

وما انتهى بهم الى هذا الوهم الضار الا اعتقادهم اليقينى فى الجدلية واعتبارها الحق المطلق ٠ وهم لا يفتأون يرددون : (ان قوتها مستمدة من أنها تمكن الحزب من الاهتداء الى التوجيه الصحيح لأى موقف ٠ وفهم العلاقة الداخلية للأحداث الجارية والتكهن بمجراها ، وادراك الاتجاه الذى تتجه اليه فى الحاضر ٠ وكيف تتجه اليه ؟ وكذلك الاتجاه الذى تتجه اليه فى المستقبل) ٠ فالحزب الشيوعى وهو النتاج الشرعى لهذا الجدل له وحده حق التفسير والتأويل ٠

ولاحظ بامعان الحادثة التالية : (طلبت دائرة المعارف السوفيتية الى المشتركين فيها أن يحذفوا منها صفحتى ٢١٣، ٢١٤ من المجلد العاشر فقد كانت هاتان الصفحتان للكاتب الصينى الكبير « كاوكانج » وكان شيوعا وعضوا فى المكتب السياسى واتهم فى بكين بمنافسته « لماوتس تونج » وهذه هى المرة الثانية التى تعمد فيها دائرة المعارف السوفيتية الى نزع صفحات بعد صدورها٠ والمرة الأولى كانت من أجل « بريا » وزير الداخلية بروسيا الذى أعدم)(٢) ٠

وبلغ هذا التيار نهايته حين حدد العلم ذاته بهذا المنطق الجدلى لاعتقادهم أن عمليات الطبيعة محكومة بالجدلية ٠

ولقد كان سبب تخلف أوروبا فى العصر الوسيط هو الطريقة الاستنباطية التى سادت باعتبار التعاليم الدينية والعلمية للكنيسة وفلسفة أرسطو هى المصدر الأعلى للعلوم الطبيعية ٠

---

(١) الشيوعية نظريا وعلميا ٠ كاريوهنت ص ٥٥ ، ٥٦

(٢) الأخبار ، يوم ١٩٥٦/٦/٢٩

وكانت ثورة الطريقة التجريبية عليهسا ايذانا بظهور عهد النهضة المادية في عمارة الأرض بعد ما سببته الكنيسة من ايذاء لمفهوم الدين •

واليوم تعود الشيوعية مرة أخرى الى هـذا الأسـلوب من التفكير لتجعل نظرية المادية الجدلية الفلسـفية الحكم الاعلى فى الافاق التى يغزوها العلم والنتائج التى تصل اليها التجربة المحضه يقول الاستاذ Vavilov رئيس مجمع العلوم فى موسكو من بحثه عن العلم السوفيتى فى صورته الجديدة : (ان العلم السوفيتى لم يدن قصاراه انه فرع من العلم العالمى يتخذ مكانه فى الجمهوريات الروسية المتحـدة كلها ، بل هـو علم منعزل مختلف فى طبيعته ونطاقه ، وميزته الأولى هو انه دون غيره يقوم على أساس فلسفى واضح ، وهو الأساس الذى لا غنى عنه للبحوث العلمية ، وعلمنا نحن له أساس من المادية الثنائية التى قررها « ماركس وانجلز » وزكاها « لينين وستالين »(١) •

ومن المفارقات الغريبة أنهم يعيبون هذا الاتجـاه على علماء الاجتماع الرأسـماليين حينما أرادوا أن يحلوا نظرية « دارون » كتفسير للتاريخ بحجة العلم وكيف أدى هذا الى ما لا تحمد عقباه فحسب هذه النظرية كما يعرض الشيوعيون (حيث أن الانسان جزء من الطبيعة فلا بد أنه تنطبق عليه نفس قوانينها فى تطور الأنواع • وفى الطبيعة عندنا الانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح فى الصراع على الوجود فلا بد أن يحدث نفس الشىء فى المجتمع وانتهوا من هذا الى أن صراع الطبقات تعبير عن الصراع على الوجود وأن النظام الاستغلالى الرأسمالى والقهر الاستعمارى انما هو ظواهر وراثية فى طبيعة الانسان الحيوية وأن القوى لا بد أن ينتصر على الضعيف • وبهذا أعطوا للرأسـمالية مبررات حيوية وحتمية)(٢) • وهكذا

(١) أفيون الشعوب • العقاد ص ٣٥

Fundamentals of Marxism Leninism p. 19.

يحـذرون من أخطار تطوير العلم لنظريه حتى وإن كانت نظريـة « داروِن » التي يقدسونها أكبر تقديس ٠

ولـكنهم في أسس الماركسـية اللينية يقولون : (ان نظرة الماركسية اللينينية العالمية هي أيضا بوصلة صادقة في كل مجالات الجهود العلمية ليس فقط في العلوم الاجتماعية ولكن أيضا العلوم الطبيعية ٠ وذلك لأنه : أليس صحيحا أن ادراكا سليما للعالم وقوانينه العامة وعلاقاته وحركته يساعد العالم الطبيعي في كشفه الخلاق ؟ ٠ ان هـــذا الفهم تمدنا به المـاركسية اللينينية)(١) ، فما رفضوه للداروينية ارتضوه لأنفسهم !

وهكذا أصبح العلم خاضعا لمبادىء الشيوعية لا أن الشيوعية خاضعة لمبادىء العلم ٠

وفي كتاب المادية والنقد التجريبي يسرد « لينين » قواعـد البحث التي ينبغي أن يجرى عليها العلماء ولا يخالفوها ٠

وكان نتيجة هـذا أنه في سنة ١٩٣٢ قرر المؤتمر العـام للعلماء (أن علم التناسلات Genetics وتربية النبات يجب أن يطابق المادية الماركسية وعلى هذا رفضت تجارب مندل للوراثة لأنها تخالف قاعدة التفسير الشامل وذلك لفترة طويلة(٢) ٠

ونجد الاصرار على هـذا الموقف يتمثل في ظهـور المذهب « الميتشورى » للوراثة السوفيتية الحديثة الذى نشأ منذ عام ١٩٤٨ في روسيا ومن أكبر أنصاره « ليسنكو » و« بريزنت » ٠ ويتعارض هذا المذهب مـع قوانين الوراثة الـكلاسيكية ٠ المعروفة بقوانين « مندل ـ مورجان » اذ ينكر تماما وجود الجينات على الكروموسومات في الخلية ٠ ويهدف هذا المذهب الى اثبات أن في امكان الانسان التحكم في النظام الوراثي للكائنات وبخاصة في محاصيل الحقل ، كامكان انتاج قمح يحتوى على عدد أكبر من السنابل أو نوع جديد من النباتات يفوق الشعير أو الشوفان بطرق صناعية ٠ وقد قوبل

Fundamentals of Marxism Leninism p. 143.

(٢) الشيوعية والانسانية ٠ العقاد ٠ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠

هذا المذهب بموجة شديدة من المعارضة والنقد فى الأوساط العلمية الغربية • وفى ذلك يقول الأستاذ « سمبسون » الأمريكى : (فى عام ١٩٤٨ اعترفت الحركة الشيوعية بموسكو لاعتبارات جدلية وليست علمية بمذهب رجعى شبيه باللاماركيه الحديثة ، أطلقوا عليه اسم « الميتشورية » نسبة الى متشوريان • ومنذ ذلك الوقت صار « ليسنكو » ـ ذلك العالم المزيف المغمور الكاهن الأعظم للعلوم البيولوجية السوفيتية • أما العلماء الأمناء فقد أجبروا على الصمت أو اختفوا عن الميدان)(١) •

ان الاستثمار الفردى لم ينته فى الاتحاد السوفيتى ، أليس هناك قطاع خاص بنص القانون ؟ ثم ان الصحافة السوفيتية كتبت أن هناك من يصنع لحسابه المناجل الزراعية وبعض المشاتل الزراعية ويبيعها فى المناطق التى لا تتوفر فيها هذه الأشياء وأن هناك من يمتلك السيارات ويؤجرها لمن يدفع ثمنها ! وفى مقاطعة واحدة وجد بها ٨٨٠ مالكا يزرعون البصل فى قطع صغيرة من الأرض اقتطعوها من المزارع الجماعية لحسابهم • وأسوأ شىء أن بعض هؤلاء يستأجرون عمالا يشترون عمل الآخرين بأجور عالية نسبيا وهذه هى أكبر جريمة عند الشيوعيين ! • وكثيرا ما تلجأ بعض المصانع الى هؤلاء وتشترى منهم قطع الغيار • وبعض أعضاء الحزب الشيوعى نفسه يشترون منهم الملابس الأنيقة(٢) •

وفى ضواحى موسكو قام « ملوك النحل » كما تسميهم الصحافة السوفيتية باستغلال أزمة السكن وأقاموا بيوتا فاخرة باعوها فى السوق بالطريقة التقليدية • واننا لنجد نتيجة لاستحالة التخلص من الملكية ووجودها على أشكال منها ملكية الحكومة ـ وملكية المزرعة الجماعية ومنها الملكية الفردية ـ ان وجدنا ثلاثة

---

(١) جريدة الأخبار • يوم ٢٣ـ٥ـ١٩٦١

(٢) المجلة ـ يناير سنة ١٩٦٠ ـ د• انور عبد العليم •

أسواق للسلعة الواحدة سوق الحكومة وسوق المزرعة الجماعية والسوق الفردى ٠

ولقد بدأت الثورة السوفيتية سياستها فى الأجور بالمساواة فمالبث أن شاع الكسل والتواكل ونقص الانتاج بصورة كبيرة تهدد بالخراب ولم يجد استخدام الارهاب أو الاكراه فى حفز العمل ثم كانت المراجعة ٠

وقام ستالين بحملة تطهير واسعة ضد معارضيه فى الرأى قتلا وتشريدا وصرح سنة ١٩٣٤ : (ان هؤلاء يحسبون أن الاشتراكية الشيوعية تستلزم المساواة فى الأجور ، الا ما اسخفه من رأى ٠ ان المساواة التى نادوا بها أضرتنا أكبر الأضرار) ٠

ولما كان التفاوت فى الأجور لا يفيد اذا لم يسمح بالملكية ٠ فسمح بها فى حدود وسمح بالميراث ٠ ولقد جاء فى الدستور السوفيتى الجديد فى المادة العاشرة (ان حق الملكية الشخصية للمواطنين فى دخلهم وتوفيرهم الناجمين عن عملهم فى مساكنهم واقتصاديات بيتهم الاضافية وفى الحاجات والأدوات المنزلية وفى الأشياء ذات الاستعمال الشخصى والراحة ، وكذلك حقهم فى ارث الملكية الشخصية حق مصون بموجب القانون) ٠

وفى المواد ٧ ، ٩ ، ١٠ من الدستور السوفيتى نظمت الملكية الخاصة ٠ فللصانع غير الأجير Artist كصانع الأحذية مثلا حق فى تملك وسائل الانتاج وثمرات عمله بشرط عدم استغلال عمال أجراء ٠ وأيضا للمزارع الحق فى تملك المواشى والطيور والأدوات الزراعية البسيطة ومنتجات حقله ومنزل للسكن والأدوات المنزلية مع ملاحظة أن الأرض المقام عليها السكن والأرض الزراعية ملك للدولة وليس له فيها الا حق المنفعة ٠ والمدخرات لا يستطيع الأفراد استغلالها الا فى الاستهلاك أو ايداعها فى بنوك التوفير أو استثمارها فى قروض الدولة(١) ٠

(١) راجع الوجيز فى النظريات والأنظمة السياسية ومبادئه الدستورية ٠ د٠ عبد الحميد متولى ٠

ورغم هذه الصورة من التساهل فى مبادىء النظرية الماركسية فانه نظرا للتضييق على الملكية فان دافع الانتاج يعتمد فى الاتحاد السوفيتى على القوانين التى تبين كيفية معاملة العمال الذين قامت من أجلهم الثورة الشيوعية !

ففى مرسوم ١١ أكتوبر سنة ١٩٣٠ المؤيد بالمرسوم الصادر فى يناير سنة ١٩٤١ نص على أن العامل السوفيتى يجب أن يتقبل أى عمل تكلفه به الحكومة أينما يكن هذا العمل ٠

وفى مرسوم ٩ أكتوبر سنة ١٩٣٠ المؤيد بمرسوم ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٠ ينص على أنه لا يجوز للعامل السوفيتى أن يترك العمل المفروض عليه باختياره فاذا فعل ذلك اعتبر خائنا واستحق عقوبة عشر سنوات فى معسكر العمل ٠

ومرسوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، ٢٦ يونية سنة ١٩٤٠ يقرر عدم جواز التغيب عن العمل بغير اذن رسمى سابق وكل تغيب عن العمل أو تأخر عن موعد مباشرته ثلاث مرات فى خلال شهر واحد يستوجب فصل العامل وحرمانه من مسكنه وعقوبته السجن من ستة أشهر الى اثنى عشر شهرا ٠

وقانون ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠ الذى يعطى لمدير المصنع أو محل العمل الحق فى توقيع العقاب بالسجن مع الأشغال الشاقة الى أربعة أشهر بدون رفع الأمر الى المحكمة فاذا رأى أن مخالفة العامل تستوجب عقوبة أشد قدم العامل الى محكمة الشعب ٠

ورغم أنه صدر فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٥٦ مرسوم يخفف من هذه القسوة كتخفيف عقوبة السجن والعمل الاجبارى لمن يتغيب عن العمل الى الحرمان من مزايا أقدمية الخدمة الا أن العامل لا زال واقعا تحت ضغط « كتاب العمل Labour book » الذى ينظم الرقابة على القوة العاملة حيث أن تسجيل الأخطاء به والعقوبات الموقعة على العامل يحرمه من تشريع التأمينات الاجتماعية الذى لا يستفيد منه الا من كان كتابه نقيا فى فترة تتراوح بين سنتين

وخمس عشر سنة بحسب السن والجنس وطبيعة العمل(١) .
وكما فشلت النظرية فى أهدافها الاقتصادية فشلت أيضا فى أهدافها الاجتماعية ، فلقد أصدرت حكومة لينين قانون الأسرة سنة ١٩١٨ ومن نصوصه الاعتراف بالأبناء غير الشرعيين أى الذين أنجبوا سفاحا ولهم نفس الحقوق التى لغيرهم وذلك فى المادة ١٣٣ من هذا القانون وهذا اعتراف صريح بالزنا وتصريح ضمنى به . وأباح القانون السوفيتى الطلاق لكل من الزوجين على قدم المساواة . ودخلت المرأة فى العمل على قدم المساواة مع الرجل دون مراعاة لوظيفتها فى رعاية الأطفال . وكان الأطفال من سن ٣ : ١٠ يوضعون فى مستعمرات خاصة للأطفال ومن سن ٧ : ١٦ يستطيع الأطفال أن يلتحقوا بالمدن الدراسية .
وكان نتيجة ضعف الأسرة وكثرة الرذائل الخلقية أن رغبت النساء عن الحمل فانتشر الاجهاض الذى كان يبيحه القانون وظهرت قلة الاقبال على الزواج وكثرة الأولاد غير الشرعيين وانتشر الطلاق . فاهتز المجتمع السوفيتى هزة عميقة وقل عدد السكان مما أدى بالمشرع الى التدخل سنة ١٩٣٦ فحرم الاجهاض وقيد الطلاق بقيود صعبة جعلته أصعب من الطلاق الكاثوليكى ! .
وكما أعلنت الحرب على الملكية والأسرة فى بداية الثورة الروسية أعلنت الحرب أيضا على الدين ، وكما رجعوا الى الملكية كضرورة وعدلوا عن تحطيم الأسرة رجعوا الى الدين مرة أخرى فأباحوا للناس ممارسته بقدر مقيد .

ولكن لماذا ؟

نعم لكن لماذا تستمر الماركسية فى الظهور اليوم رغم هذا الجهل السائد فى فكرها والعجز الناجم عن تطبيقها ؟ . الحقيقة أن أسباب هذا الظهور بعيدة كل البعد عن المنطق أو الحق — انها

(١) الشيوعية اليوم وغدا . مقال « الشيوعية والفرد » . د. عبد الله العربى ص ١٧٧ ، ١٧٨

أسباب نفسية واجتماعية سيئة تعمى الناس عن التأمل العميق أو الفكر الصافى •

والأسباب التى دعت الى بقائها لليوم فى روسيا هى :

١ ـ الخراب الاقتصادى الناجم عن الحرب العالمية الأولى فى روسيا مما أدى الى تطلع الناس الى الخلاص من الحكم القيصرى وانهاء الحرب •

٢ ـ عدم وجود فئة منظمة ومدربة ومحددة الأهداف سوى الشيوعيين •

٣ ـ وجود مفسر واحد للنظرية هو التنظيم أدى الى عدم تفتت النظرية والاختلاف عليها • هذا التفتت الذى نراه اليوم واضحا فى يوغوسلافيا والصين والبانيا •• حيث تخف قبضة التنظيم ويسهل لهذه الدول الحركة المستقلة والفكر المستقل •

٤ ـ الهجوم الغربى على روسيا بعد انتصار « لينين » أدى الى التفاف الشعب حول لينين لمقاومة الغزو وربط النظرية بالمقاومة ضد الاستعمار •

٥ ـ يرجع « توينبى » سبب التماسك فى روسيا الى العقدة الحضارية فى روسيا لتخلفها وهزائمها المستمرة مما أدى بها الى تبنى نظرية ـ هى من بنات أفكار الغرب لتستعيد كرامتها الضائعة •

٦ ـ رغبة الروس فى تحقيق حلم الامبراطورية تحت زعامة روسيا وهو حلم القياصرة القديم وأصبح هذا الهدف مسلحا بمذهب منظم وقوى مادية ودعائية كبيرة ـ تلمح هذا الهدف فى العبارة التالية من الذكرى الأربعون لثورة أكتوبر : (والاتحاد السوفيتى باعتباره أول بلد ظفرت فيه الاشتراكية وباعتباره أقوى بلد فى عائلة البلاد الاشتراكية الأخرى مؤديا بذلك واجبه الأسمى، وشعوب هذه البلاد تنظر الى الاتحاد السوفيتى كحصن للاشتراكية وتحمل له مشاعر الود والعرفان الأخوى) •

أما بالنسبة لانتشارها فى العالم فذلك يرجع الى :

١ ـ الفراغ الروحى الذى سببه تنحى الدين وسيطرة الدوافع المادية على الانسانية ولعل أبلغ دليل على هذا هو أنه لا يؤمن بالشيوعية فى بلد كأمريكا الا الأغنياء غالبا • والشيوعية تحل لهم هذه الأزمة حلا مؤقتا الى أن يصطدموا بالواقع حين التطبيق وحينئذ لا يستطيعون منه فكاكا •

٢ ـ سوء الأحوال الاقتصادية فى البلاد المتخلفة مما يؤدى الى التطلع الى أى سبيل للخروج من هذا التخلف • وهم يرون الاتحاد السوفيتى تحرك فى جيل واحد من التأخر والتخلف حتى نافس أمريكا ـ ويرون حزبا دوليا يعارض الاستعمار والتفرقة العنصرية ويعد بالخير والسلام ولا يبحثون فى طبيعة هذا التقدم وثمنه ولا عن أحوال روسيا ومدى أخذها بالنظرية التى تدعو اليها •

٣ ـ سوء التوزيع الاقتصادى فى العالم الرأسمالى ووجود الاحتكار مما يعرض المجتمع لداء الشيوعية تحت وطأة الضعف الناجم عن هذه العلل الاجتماعية •

٤ ـ وجود دولة قوية هى روسيا تسهر على نشرها بمواردها الكبيرة ومروجيها الفنيين فى أساليب الدعاية ومعاهدها النفسية •

٥ ـ طبيعة الارتباط والتبعية للأحزاب الشيوعية بالروسيا مما يؤدى الى كفاءة التركيز والدعاية للحزب الشيوعى •

٦ ـ ان الجماهير لا تحركها الحقائق العلمية الهادئة وعلى الأخص الشباب وانما تحركها العاطفة التى تلهبها العبارات الرنانة والدعايات البراقة وغيرها من المؤثرات النفسية التى فى امكانها قلب الحقائق فى عقول الدهماء والتعصب لها حتى الموت •

٧ ـ هذا المرض الاجتماعى يجد استجابة كبيرة من أناس • قعد بهم العجز والحقد عن التفوق فأكل قلوبهم الغل وملأ نفوسهم الرغبة فى الهدم وحرمان المتفوق من ثمرة عمله •

٨ ـ السرية والمغامرة التى تجذب الشبان وضعاف العقول كما تجذبهم عصابات السرقة والاجرام والعدوان تماما •

٩ ـ الدعوى بأن مذهبهم يقوم على العلم وأنه حتم تاريخي مما يجعل الأغبياء يتصورون ضرورة وقوعه وعـدم جـدوى مقاومته • ويزيد هذا الاحساس أن الأسلوب الماركسى يشـوبه غموض كثير مما يؤدى الى تحوله الى طـلاسم محولة الى شـعارات طنانة كثيرا ما يذكرونها • ولكنهم لا يفهمونها • ولو فهموها ما ساروا وراءها •

١٠ ـ الشيوعيون يدعون انهم سيخلصون البشرية من آلامها وقيادتها الى نعيم مرتقب خال من الطبقات والصراع لا شعوبية فيه ولا تفاضـل بين الناس • عالم لا يعرف البؤس ولا الشقـاء ولا الاستغلال ولا الاستعباد ، كل ذلك يؤدى الى جذب كثير من راغبى الاصلاح دون وعى منهم بمدى الأثر السيء الذى يضاعفون به بلاء الانسانية بهـذه الأوهام • تماما كما يضـلل الشيطـان الانسان ويلبس عليه الباطل فيحسبه الحق •

١١ ـ لا تستطيع أن تترك سرد أسباب انتشار الشيوعية العالمى رغم ضلالها وفسادها دون الاشارة الى ظاهرة خطيرة هى أن كثيرا من قادتها ومفكريها فى روسيا والعالم يهود •

هذه هى أسباب انتشار هذا المذهب الضال ، أسباب كلهـا بعيدة عن تحرى الحـق والهدى • وقد رأينا هـذا المذهب المسمى التفسير المادى للتاريخ لا هو بالعلم ولا هو بالفكر بل هو الضـلال والشقاء •

انها بناء ماركس لهدم العالم ، استغل فيه ضلال « هيجل » الذى حتم الصراع لقيام الحياة وضلال « فيورباخ » الذى أعمته المادة فلم يعرف سر الوجود • وأصبح الوجود وجود الغابة بين حيوانات متصارعة تفنى بعضها البعض وتحكم بالقوة والارهاب •

الباب الثالث

حضارة الاسلام

حضارة الاسلام

يقول كلود فارير المفكر الفرنسى (فى سـنة ٧٣٢ م حدثت فاجعة كانت من أشأم الأحداث آلتى نكبت بها الانسانية فى القرون الوسطى ، وكان من آثارها أن غمرت العالم الغربى طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد الا على عهد النهضة • هذه هى الفاجعـة التى أريد أن أمقت ذكراها ، وأعنى بها ذلك الانتصار البغيض الذى ظفر به أولئك المحاربون من الأفرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسـلمين الذين كان يقودهم الغـافقى • ففى ذلك اليوم المشؤوم تراجعت المدنية ثمـانية قرون الى الوراء ، ويكفى المرء أن يطوف بفكره فى الأندلس ومدنهـا وحدائقها وحضـارتها الخالدة ليعرف ماذا عسى أن تكون قد بلغته فرنسا منذ ذلك العهد السحيق لو أنقذها الاسلام العمرانى الفلسفى المتسامح السلمى) •

والمدنية الاسلامية ليست جديدة على التاريخ أو جديدة على التجربة فهى أقرب المدنيات الينا وعلمنا عنها أدق علم تاريخى عن الحضارات • ولن يستطيع أن ينكر هذا العلم انسان أو أن يشـك فيه • ونرى فى هذه الدراسة معجزة الاسـلام الخـالدة حيث ظهر بمدنيته فى فترة زمنية محدودة الى مرحلة النضـوج والاكتمال • فخلق من العرب الحفاة الجفاة خير أمة أخرجت للناس • وأوجد دولة كانت أولى الدول رقيا فى العلم والمدنية •

والعلم الغربى الذى كون هذا التقدم المادى الهائل ليس ثمرة هذه الجاهلية المعاصرة فالسابر لغور التاريخ يعلم تماما انه ابن المدنية الاسلامية ونتاجها وأن أوروبا انما تعيش على الدفعـة التى بدأها الاسلام من قرون سواء فى مادة العلم أو فى أسلوبه • يقول كيرك : (على أن المملكة التى كان لها اليد الطولى فى وصول العلوم الاسلامية الى الغرب هى « الاندلس » التى كانت وقت فتح المسلمين لها فى مستوى من المدنية يعادل مستوى « صقلية » وقت فتحها ،

وقد درجت أسبانيا فى عهد المسلمين فى مدارج التقدم والرقى حتى صارت فى القرن التاسع الميلادى من أغنى بلاد أوروبا وأغزرها سكانا ،وقد كثرت صادراتها الصناعية والزراعية الى أوروبا المسيحية والشرق الاسلامي على السواء ، وكانت مدينتها « قرطبة » أعظم منهل للعلوم والمعارف فى أوروبا وضارعت فى هذا المضمار كلا من القسطنطينية وبغداد والقاهرة • كان عدد سكانها نصف مليون نفس ، وبهـا ثلثمائة حمام عام ، وسبعون دارا للكتب، وفيها من الطرق المرصوفة المضاءة ليلا ما تبلغ جملته أميالا كثيرة يضيق عنها الحصر ، فكانت بكل هذه المظاهر عروس المدن ، سابقة بعدة قرون كلا من معاصريها « لندن وباريس » اللتين كانتا لا تزالان فى حالة همجية ، فضلا عن انها كانت كعبة للثقافة يحج اليها حكام الولايات الصغيرة المسيحية بشمالى أسبانيا)(١) •

ولقد اتصل الاوربيون بالمسلمين فى الأندلس اتصالا وثيقـا واتخذ علماؤهم فلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون عليهم وأخذوا فى ترجمة المؤلفات العربية الى اللغات اللاتينية حتى اننا لا نجد بعض مؤلفات ابن رشد اليوم بالعربية ونجدها باللاتينية • وجاء فردريك الثانى سنة ١٢١٥ واتصل بالمسلمين اتصالا وثيقا فى « صقلية » وفى « الشام » وفى حروبه الصليبية وأنشأ فى سنة ١٢٢٤ مجمعا فى « نابلس » لنقل العلوم العربية والفلسفة العربية الى اللاتينيـة والعبرية لنشرها فى أوروبا وكان أهم مركز لتعاليم ابن رشد فى جامعة طولونيا وجامعة باروا فى ايطاليا • وقد انتشرت هذه الثقافة فى ايطاليا الشمالية الشرقية الى القرن السـابع عشر • واستمرت

---

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط • جورج كيرك : ترجمة : عمر الاسكندرانى ص ٥٩ ، ٦٠

كتب « ابن سينا » فى الطب سائدة الى ما بعد هذا العصر ، ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية كانوا يدرسون هذه الكتب أو يتتلمذون على من درسوا عليها ، فروجر بيكون الذى سبق أهل زمانه فى معارفه وطريقة بحثه اخذ ثقافته العلميـة من الاندلس ودرس فلسفة ابن رشد • ولقـد ارتفعت شـكوى رجال الدين المسيحيين فى الأندلس من المسيحيين الذين يدرسون علم العرب المسلمين • ويلخص الأمر الاستاذ Lecky بقوله : (لم تبدأ النهضة الفكرية فى أوروبا الا بعد أن انتقل التعليم من الأديرة الى الجامعات والا بعد ان حطمت العلوم الاسلامية والأفكار اليونانية والاستقلال الاقتصادى سلطان الكنيسة •)(١)

والمنهج العلمى التجريبى نتاج المسلمين • وما عرف اليونان هذا المنهج وما استخدموه ، ومؤلفات الأطباء والجغرافيين والرحـالة والآثار العلمية وعلماء الطبيعة والبصريات كلها تؤكد هذه الحقيقة • واننا لنلحظ كثرة الكلمات ذات الأصل العربى فى شتى ميـادين التجربة كالفن المعمارى والزراعة والصناعة والتجارة والحكـومة والادارة وشئون الحياة اليومية •

وفى كتاب « التقريب فى حدود المنطق » يؤكد ابن حزم أن الحس أصل من أصول العلم وابن تيمية يبين فى كتابه المسـمى « نقد المنطق » أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة الى اليقين• وفى كتاب بناة الانسانية Making of Humanity يقول مؤلفه Briffault ان روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربى والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلمين العرب فى الاندلس وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلامى التجريبى الى أوروبا المسيحية ••

(١) قصة الفلسفة الحديثة • احمد امين ، زكى نجيب محمـود • ص ٢٥ ، ٢٦ حاشية •

وهم لم يملوا قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة • والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى هى طرف التحريف الهائل لأصول الحضارة الاوروبية وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا وانكب الناس فى لهفة على تحصيله فى ربوع أوروبا)(١) •

ولم تكن الكشوف الجغرافية التى كانت سببا مباشرا فى ثراء أوروبا وانطلاقتها الصناعية الا غنيمة باردة أخذها الغرب من العرب فاتسعت الفتوح واستعمرت البلاد الغير أوروبية • ودارت عجلة الثورة الصناعية ، ونشطت حركة التجارة ، وتغير المجتمع تغييرا أساسيا من مجتمع زراعى الى مجتمع صناعى تجارى • كل ذلك كان نتيجة لنقل الكشوف الجغرافية التى تفوق فيها العرب بسيادتها على البحار المعروفة وقتئذ وقيامهم برحلات بحرية مستمرة على طول امبراطوريتهم •

يقول جيمس فيرجريف : (لقد نجحت غزوات القبائل المغيرة فى نشر بعض الافكار عن كنه هذا العالم ، كما نجح العرب فى نشر المعلومات عن البحار الشرقية ، وحفز التقدم فى هذين الميدانين العقول البشرية على التفكير ولكن فكرة الوصول الى الشرق عن طريق البر والبحر كانت أفعل تأثيرا فى مجرى التاريخ • لأن الحركة على الماء أسهل منها على اليابس ، لقد قام « ماركو بولو » برحلته الخالدة الى الشرق متخذا طريق البر فى ذهابه والبحر فى ايابه كلما أمكنه ذلك •

ويجب ألا يغيب عن الذهن قوة العرب الزمنية وقوة المسلمين عامة لم تقم على القوة العسكرية فحسب بل قامت على أساس التحكم أو السيطرة فى مسافة واسعة ذات أهمية تجارية ، وكان هذا التحكم ممكنا لأن كتلة اليابس كانت متصلة ، والبحر غير متصل

(٢) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام • محمد اقبال ص ١٤٨ ــ ١٥٠

اتصالا ينفع كل الاغراض العملية وكان تحكم العرب في هذه المنطقة التجارية شاملا باحتلالهم الاراضى ذات الموقع الهام بين البحر المتوسط من جهة والخليج الفارسي والبحر الاحمر من جهة أخرى •

وفي واقع الأمر لقد ورث العرب كل أعمال نقل التجارة التى مارسها الرومان والآشوريون والفرس وأهالى أواسط آسيا وشمال شرق أفريقيا ولو قارنا تجارة الماضي بتجارة الحاضر لوجدنا الأولى قليلة الحجم نسبيا لأن النقل فى تلك الازمان كان أعسر منه في هذه الايام ، وعلى أى الاحوال جمع العرب فى أيديهم تجارة العالم كيفما كانت ، ثم أخذت التجارة تنتشر باطراد ، وأخذ البشر يدركون فوائدها ، وقد وجدوا بالتدريج أنه من الخير أن يتبادلوا منتجات اقليم بمنتجات اقليم آخر ، وأن هناك وفرا فى الطاقة لو بذلوا بعض الجهود في نقل الحاصلات من اقليم الى آخر عما لو أنتجت جميع الحاصلات في الاقليم ذاته حتي ولو كان ذلك ميسورا ، وأخذت تطرق عقولهم فكرة وجود طريق مائى يمتد الى الهند وجزرها)(١) •

ومن هنا كان التقدم فى الكشف البحرى على يد العرب • ولذا لم يكن غريبا أن تبدأه الاندلس ثم هولندا فانجلترا • وهذا الكشف هو أصل النمو فى الحضارة الغربية •

وهكذا كان الرقى المادى والتفوق العلمى فى الغرب مدينا للاسلام •

فمادة العلوم والمنهج التجريبى وجغرافية العالم •• كلها تسلمتها أوروبا من العرب وبنت عليها حضارتها • الا أنها كانت نهضة علمية مؤذية ورقيا ماديا خطيرا • فبدلا من أن يستخدم للرفاهية استخدم فى التخريب وبدا هذا الذكاء الانسانى سيفا مسلطا على الانسانية جمعاء لأنه فى عقل الانسان الذى لا روح له

---

(١) الجغرافيا والسيادة العالمية ـ جيمس فيرجريف • ترجمة على رفاعى الانصارى ص ٢١٧

فلا مثل أعلى يطلبه ولا غرض نبيل يهدف اليه •

وقد كان بامكان أوروبا أن تتجه بهذه الحضارة وجهة انسانية وتصل بها الى مستوى لا يمكن تصوره الآن لو أخذت الاسلام كله وآمنت به وعملت له ولكانت حقنت دماء غزيرة وأموالا كثيرة أهدرت على صخرة الصراع المادى والتهافت عليه •

ان الحضارة يجب أن تكون فى القلب قبل أن تكون فى الاشياء والاسلام هو روح الحضارة وجوهرها فهو يكفل للنفس اطمئنانها وسعادتها بربطها بالله ، ووصلها بالمجتمع واستغلالها لخيرات الله فى الأرض وفق سنة الله الحقة •

ورغم توالى الغزوات الخارجية على الأمة المسلمة فانها لم تستطع أن تهز من البناء الاجتماعى الذى كونه الاسلام • حتى كانت محنة الاستعمار الغربى الحديثة • ورغم تلك الحرب الشعواء التى يشنها الاعداء نفسيا وماديا للقضاء على آثار الاسلام الاجتماعية فان هذه الآثار لا تزال عالقة بشدة فى الكيان الاسلامى الممزق وذلك لأن القوة الروحية والتماسك الاجتماعى اللذين وضعهما الاسلام فى العالم الاسلامى أقوى من كل أسلحة المستعمرين •

الا أننا لا نستطيع أن ننكر أن القوة الذاتية لحضارة الاسلام قد تعطلت وما بقى فهو آثار الاندفاع لا أكثر وأصبح الكيان الاسلامى مهددا بالضياع بين لحظة وأخرى باستنفاد قوة الاندفاع ليبقى المظهر المادى أو الصورة الحيوانية للوجود •

معنى الحضارة :

ان الأزمة التى تعانيها الحضارة الغربية والتمزق الرهيب فى كيانها حفز المفكرين الى اعادة النظر فى الأسس التى يقوم عليهـــا بناؤها والى البحث عن سبيل للخلاص من شقائها ٠

يقول توينبى : (واذن لا مناص لنـــا اليـوم من أن نسائل أنفسنا ما هى أسس حضارتنا ؟ بأى المبـــادىء نؤمن ؟ واذا كانت هذه المبادىء قد تدهورت فهل من ســـبيل لاستعادتها ؟ ان مبدأنا التقليدى هو تقديس الحرية الفردية ٠ فكيف يكون هذا التقديس ؟

أول شروطه ألا نخلط بين أنفسنا وبين الآلهة ٠ فاذا تشـبه الانسان بالله عبد نفسه ٠ وحين يعبد الانسان نفسه فهو ينشـــد السيطرة على المجموع ليستمد منه القـــوة ٠ ومتى تحول المرء الى عبادة نفسه وســـيطر على المجموع ، فقد سلبهم حينئـذ حريتهم وحولهم الى عبيد ٠

وعبادة الانسان نفسه شيء تأباه المسيحية ، ولقـــد ضحى الأولون بأنفسهم عمدا أيام قيام الامبراطورية ليشهدوا الناس عـلى أن المسيحية تأبى عليهم أن يكونوا عبيدا لقيصر ، وكذلك الاسلام يأبى عبادة الانسان ، ومن قبل المسيحية والاسلام حرمت اليهودية عبادة الانسان ٠٠

والتاريخ الانسانى مؤلف من سلسلة من المواقف يتعين عـلى الانسان أن يختار بين المضى فى سبيل الله ، أو الانحراف عن هـذا السبيل ، وقد لوحظ أن حرية الانســـان تبلغ أقصـاها حين يتم الاتصال بينه وبين الله ٠ وتهوى الى الحضيض حين ينـأى الانسان عن تعاليم الله وهديه)(١) ٠

ان هلاك أمم من قبلنا والذى يحكيـــه ما نراه من آثارها وما يقصه التاريخ عن مصارعها ، يحذرنا الله تعالى من مثله فيقول تعالى:

(فكأين من قرية أهلكناهـــا وهى ظالمـة فهى خاوية عـــلى

(١) مجلة المجلات العالمية أغسطس ١٩٥٨ عن مجلة الكويكرز ٠

عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ، أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)(١) •

ان كل الحضارات التى صعدت بالانسان انما نشأت عن أصول منزلة وما كانت النكسة الا انحرافا عن هذه الأصول • ومن حكمة الله تعالى أن الانسانية حين تصل فى نكستها الى السفح يأذن الله لدينه أن ينبعث من جديد ليؤدى دوره • « وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » (٢)

ان الايمان يصبغ الحياة بصبغة شاملة • فهو المحور الذى يدور عليه الوجود والحياة • لهذا كان ضروريا لكل علم حق وعمل نافع •

ان الكون كما أراد الله يتميز بالتنوع والاختلاف، ولو ترك دون ضابط لتنافر وانحل ، فهى سنة الله التى تمسكه فى نظام • « ان الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا »(٣) •

وهذا الكون من الذرة البسيطة الى المجرة الضخمة يتحرك فيتخذ أشكالا دائمة التغير والتحور والتطور • فالذرة لا تهدأ والنجوم تتقد أو تخمد والخلايا تتكون وتهدم ، لا يعرف الكون السكون أبدا •

والحال أيضا فى الانسان لا يتفق مع غيره فى الشكل أو الطبع بل متميز ومتنوع وهو أيضا فى حالة حركة اما الى شباب أو الى هرم• وكذلك المجتمعات متباينة مختلفة وفى حركة دائمة اما الى حضارة أو الى نكسة اما الى هدى أو الى ضلال « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر »(٤) •

ولكن هذه الحركة التى فى الوجود وفى الانسان ومجتمعاته

---

(١) سورة الحج آية ٤٥ ، ٤٦   (٢) سورة آل عمران • آية ١٤٠ ــ ١٤١
(٣) سورة فاطر • آية ٤١   (٤) سورة المدثر • آية ٣٧

لا تعمل كيفما اتفق • والا لتحول الوجود الى فوضى تؤدي الى اصطدامه وفنائه ـ ان الوجود تحكمه سنه يتحرك بمقتضاها • « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون »(١) • نشاهد ذلك في حركة الذرة والمجرة واحليه انها كلها تدور حول محور ـ الالكترون حول البروتون والكواكب حول الشمس والنجوم حول قلب المجرة •• « قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »(٢) •

والانسان محكوم بهذه السنة في حياته ـ محكوم بسنة التنفس ليحيا وسنة الطعام ليعيش وسنة الزواج ليمتد ، كذلك حركة قلبه في دقاته ودمه في جريانه •

هذه السنه هي قانون الله الذى يسلم له الكون طوعا وكرها • ويذعن له كل شيء وكل حي رضى أم لم يرض ، من أكبر سيارة في السماء الى أصغر ذرة في الانسان • « وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون »(٣) •

الا أن حكمه الله قضت أن يترك للانسان شقا يختار فيه ليبتلى في عمله وعليه يكون الحساب والجزاء « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٤) •

لهذا كان على الانسان أن يلائم الجانب الارادى من حياته مع سنة الكون كله لتهدأ وتنتظم وتهنأ ويستريح • ان عليه أن يلائم بين حياته التي يملك أن يوجهها وفطرته التي هيئت أصلا على الاسلام والكون الذى يسلم في حركته لسنة الله •

واذا لم يسلم نفسه لسنة الله كان مصيره الضلال والشقاء لأنه صار بذلك شيئا شاذا ممسوخا فينتكس ويتخبط وينفر منه كل ما في الكون من شيء وحي • وليس له من مكان بعد موته الا النار جزاء وفاقا •

---

(١) سورة يس • آية ٤٠ (٢) سورة طه • آية ٥٠
(٣) سورة آل عمران • آية ٨٣ (٤) سورة الكهف • آية ٢٨

ان شريعة الله فى القرآن هى سنة الوجود الانسانى كما أن نواميس الكون هى سنة الوجود المادى وهى كلها الحق من عند الله . « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين الا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار . لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار . خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ... »(١) .

فالحق هو قانون الكون اذا سار عليه انتظم واذا خرج عنه تفتت وانهار « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن .. »(٢) .

والحق هو قانون الانسان اذا أسلم له اهتدى وسعد ، واذا انحرف عنه شقى وتعس ، تماما كما يتفتت الكوكب حين يخرج عن مداره « فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا . »(٣)

هذا هو الأساس الذى يقوم عليه النظام العام فى أمة الاسلام وهو قاعدة العمل الصالح التى تؤسس عليها حضارة الاسلام . والعمل الصالح هنا فى شريعة القرآن ليس هو الشعائر فحسب أو الأخلاقيات فحسب وانما هو كل أعمال الحياة فى المصنع وفى المسجد فى المدرسة وفى المعمل حيث توجه نشاطات الحياة كلها بشريعة الله ابتغاء وجه الله ..

والحضارة فى التفسير القرآنى ليست هى التقدم المادى لأن

---

(١) سورة الزمر . آية ١ ـ ٥

(٢) سورة المؤمنون ، آية ٧١

(٣) سورة طه ، آية ١٢٣ ـ ١٢٤.

لله يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب وقد تنتفخ الجاهلية بالرفاهية والترف وقد يوجد معها بعض نماذج محدودة من الاخلاق لأن فطرة الانسان مجبولة على الخير ولا يمكن للجاهلية أن تستنفذها جميعا ، الا أنه من المؤكد أن ذلك الى زوال لأن الاصول التى بنيت عليهـا الحضارة ينخر فيها الانحلال فلابد أن تنهار وهى نتيجة قد لا تظهر فى أول الطريق ولكنها تظهر حتما فى نهايته • « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون »(١) •

والقيم الايمانية مرتبطة تماما بالسنة الطبيعية لأنها كلهـا سنة الله فى الارض • فالذنوب تهلك أصحابها تماما كما يهلك الوباء أهله ، فهى تؤدى الى الدمار على المستوى الفردى وعلى المستوى الاجتماعى اما بقارعة من الله واما بالانحلال البطيء الذى ينخر فى جسد الأمة • وها هى حضارة الغرب تبين كيف يفعل بها الانحلال الخلقى والترف واللهو ، وشهادة التاريخ تبين أن حضارة روما قد ماتت فى مواخير نابلى ولهوها رغم ما كان يبدو من مظاهر القـوة والترف • واتباع سنة الله فى عمارة الدنيـا • اذن هو مدلول الحضارة النامية الباقية • والذنوب هى مؤشر الانهيـار الحضارى ونكسته • « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون(٢) •

(١) سورة غافر آية ٨٢ ــ ٨٥

(٢) سورة المائدة آية ٤٩ ــ ٥٠

« ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنــاهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكنــاهم بذنـوبهم وأنشــأنا من بعــدهم قرنا آخرين . »(١)

ولكن المادة فى الاسلام ليست محتقرة ولا منبوذة لأنها جزء من كيان الانسان وهى جزء من بنية الوجود وهى موضوع الابتـلاء وحقل الخلافة . « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصـة يوم القيامة . »(٢)

فالمنهج القرآنى منشىء للابداع المادى ولكن فى اطــار القيم الايمانية . فان انفصل الابداع المادى عن القيم الايمانيـــة كانت النكسة والانهيار . « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراةوالانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم .»(٣) « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنــين ويجعــل لكم جنات ويجعــل لكـم أنهارا . »(٤)

ان مقياس المدنية الغربية الحديثة مادى بالطبـــع ، فالتفوق المادى هو الذى يسجل درجة أى دولة فى التقدم أو التأخر ، لكن هذا المقياس يتباين من وجهة نظر الرأسمالية عنه من وجهة النظر الشيوعية وان اتفقا فى النوع .

فالدولة الرأسمالية مقياس تقدمها أو تأخرها هو الدخــل

---

(١) سورة . الأنعام آية ٦

(٢) سورة الأعراف . آية ٣٢

(٣) سورة المائدة . آية ٦٥ ـ ٦٦

(٤) سورة نوح . آية ١٠ ـ ١٢

السنوى بالنسبة للفرد، فالدول التى يزيد دخل الفرد فيها عن كذا دولار فى السنة تعتبر دولة متقدمة والتى تقل عن ذلك تعتبر دولة متخلفة وبهذا ينقسم العالم الى قسمين : دول متقدمة وتشمل الثلث أما الثلثان فهم دول التخلف تقريبا ٠

وفى الدول الشيوعية نجد أن المقياس يرتبط بالمذهب أى يرتبط بصورة قوى وعلاقات الانتاج ٠ ومراحل التطور وضعهـــا الشيوعيون على درجات تبدأ بالمشاعية حيث الصيد الى الرق والاقطاع حيث الزراعة الى الرأسمالية حيث الصناعة وأخيرا يصل الى أعـلى مراحله فى الاشتراكية الماركسية ٠ وعلى حسب وضع أى دولة فى هذه الاطوار يكون مدى تقدمها أو تخلفها ٠

الا أن مقياس الحضـــارة الاسلامية غير هذا أن مقياسها هـو تقوى الله وطاعته ، انها النمو المادى فى اطار القاعدة الايمانية ٠ أو قل هى خضوع البشر المستخلفين فى الارض لله خضوعا يشمـــل الروح والمادة والفرد والمجتمع والدولة والعالم أجمع وما دون ذلك فهو الجاهلية ٠

ومن هذه الزاوية لا تعتبر الأمة المسلمة متحضرة اذا ما كانت ذليلة فقيرة ولا يمكننا أن نعتبر أوروبا متحضرة وهى تشرك بالله وتستعبد العباد وتسرق الارزاق ولا يمكن لأمريكا أن تكون دولـة متحضرة وهى تحاد الله وتعصاه تستغل وتحتكر وتفرق بين السود والبيض وكذلك روسيا مهما بلغت من نمو مادى حيث أن كفرهـا بالله وانحلال القيم والاخلاق سيوردها موارد التلف ٠ فالحضـــارة ليس معناها النمو المادى فحسب وهى أيضا ليس معناها النمـــو الروحى فحسب فلا هى مادية ولا هى رهبانية ٠ انها الاسلام أى الاذعان لله فتعمر الارض بالاسلوب الذى أمر به سبحانه وتعـــالى وهذا مفهوم الخلافة الذى خلق الانسان ليقوم به ٠

الاسلام والجاهلية :

الحضارة هي سيادة القانون الالهي في حياة الناس حيث لا حكم الا الله اى تحرير الانسان من عبودية الناس والاشياء ،والجاهلية هي سيادة حكم غير الله ـ اى عبودية الناس او الهوى أو الشيطان او الطواغيت ••

ولننظر الى أقوام نوح وهود وصالح وشعيب «كذبت قوم نوح المرسلين • اذ قال لهم اخوهم نوح الا تتقون ، انى لكم رسول امين، فاتقوا الله واطيعون وما اسالكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين ، فاتقوا الله واطيعون ، قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ، قال : وما علمي بما كانوا يعملون ، ان حسابهم الا على ربى لــو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين ، قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ، قال : رب ان قومى كذبون ، فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين ، فانجينــاه ومن معه في الفلك المشحون ، ثم اغرقنا بعد الباقين ، ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم ، كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم أخوهم هود الا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله واطيعون وما اسالكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين اتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون واتقوا الذى امدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون،انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ، ان هذا الا خلق الأولين ، وما نحن بمعذبين ، فكذبوه فاهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، ان ربك لهو العزيز الرحيم ، كذبت ثمود المرسلين ، اذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ، انى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله واطيعون ، وما أسالكم عليه من أجر ان اجرى الا على رب العالمين ، أتتركون فى ماههنا آمنين ، فى جنــات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا

فارهين ، فاتقوا الله واطيعون ، ولا تطيعـــوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قالوا انما أنت من المسحرين ، ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين ، قال هـذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذاب يوم عظيم ، فعقروها فأصبحوا نادمين ، فأخذهم العذاب ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم، كذبت قوم لوط المرسلين ، اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ، انى لكم رسول امين ، فاتقوا الله واطيعون ، وما اسألكم عليه من أجـر ان أجرى الا على رب العالمين ، اتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ، قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ، قال انى لعملكم من القالين ، رب نجنى وأهلى مما يعملون ، فنجيناه واهله أجمعين ، الا عجوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين ، وامطرنا عليهـــم مطرا فساء مطر المنذرين ، ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم ، كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، اذ قال لهم شعيب الا تتقون ، انى لكم رسول امين ، فاتقوا الله واطيعون ، وما اسألكم عليه من أجر ان اجرى الا على رب العالمين ، أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا النـــاس أشـــياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفســدين ، واتقوا الـذى خلقكم والجبلة الأولين ، قالوا انما أنت من المسحرين ، وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين،فاسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين ، قال ربى أعلم بما تعملون ،فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم ، ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم . »(١) .

دعوة واحدة الى تقوى الله وطاعة رسوله وحجة واحـــدة أن الرسل لا تسألهم اجرا ومصير واحد للمكـــذبين وايذاء واحـــد

(١) سورة الشعراء . آية ١٠٥ ـ ١٩١.

للمرسلين • وتتركز الدعوة الى تقوى الله وطاعة رســوله مرة فى مسالة اقتصادية كقوم شعيب ومرة فى مسالة اجتماعية كقوم لوط وأخرى عقيدية كقوم نوح •• وهو كله انحراف الى شرك الله بطاعة ما لم ينزل الله به سـلطانا وهى الجاهليـة التى تنتهى الى الدمـار والعذاب •

مقياس التاريخ والحضـــارة اذن هو طـــاعة الله فى النفس والمجتمع ، فى الدولة وفى العلاقة بالعالم اجمع ، فالحضـــارة هى الاسلام والتخلف هو الجاهلية ، والمجتمع الربانى المسلم هو المجتمع المتحضر المتقدم والمجتـــمع الجـــاهلى المشرك هو المجتـمع المتخلف الرجعى •

فاى مجتمع يؤمن بآلهة غير الله سواء كانت هذه الآلهة أصناما او طواغيت ، شفعاء أم ابناء يزعمون فهو مجتمع جاهلى رجعى •

ان العصــور الوسطى وما قبلها في أوروبا جاهليــة لأنهـا انحرفت عن دين الله باتخاذ الأحبار والرهبان مشرعين من دون الله يفسرون لهم الوجود بجغرافية الاغريق والعقيدة بفسلفة أرســطو حتي الغفران لا يتم الا بواسطتهم ولا يكون الا بصك منهم حتى ادعوا لأنفسهم حق تقسيم الجنة بين العباد ! • والعصور الحديثة جاهلية لانها ادعت لنفسها حق تفسير الوجود وحق التشريع فى هذا الوجود ، فألهت هواها وعبدت الدنيا وكان الرهبـــان هم « دارون وفرويد وماركس » وآلطواغيت من الدكتاتوريين ســواء كانوا أفرادا أو مجموعـــات تحمـل اسم الديمقراطيـــة أو اسم الشيوعية •

انها جاهلية عقلية قائمة على الظن « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية • »(١) ومن ثم كان النظـام الاجتمـــاعى قائما على الجهل

---

(١) سورة آل عمران • آية ١٥٤

« أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ». (١)
وبالطبع كانت جاهلية فى السلوك « اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية . » (٢)

أما الاسلام الذى ينزهه الله عن أى شرك ويفرده سبحانه بالألوهية والربوبية فانه مجتمع الهدى والفلاح والبركات « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . » (٣)

وأى مجتمع تسود فيه المصالح الطبقية والعنصرية فهو مجتمع جاهلى غير متحضر ، أما المجتمع المسلم فانه ينكر أى تفاضل على أساس اللون أو الجنس أو المصلحة ، وانما الفضل فيه بالتقوى والعمل الصالح . « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم . » (٤)

عن المعرور قال : لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة فسألته عن ذلك فقال : انى ساببت رجلا فعيرته بأمه فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر أعيرته بأمه انك امرؤ فيك جاهلية ، اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم .) (٥)

والمجتمع الجاهلى لا بد أن تسوده الفاحشة والمنكر والبغى ، فترى فيه الرذائل الخلقية واستغلال القوى للضعيف وبغى الغنى على الفقير . أما المجتمع المسلم فانه يسوده العدل والاحسان لأنه

(١) سورة المائدة . آية ٥٠

(٢) سورة الفتح . آية ٢٦

(٣) سورة فصلت . آية ٣٠ - ٣١

(٤) سورة الحجرات . آية ١٣

(٥) صحيح البخارى

منّ عند الله سبحانه الذى لا يتميز ولا يميل « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون • »(١)

وينهى تعالى عن التبرج لأنه من الجاهلية « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى • »(٢) وتعريف الجاهليةالأولى معناه أن الجاهلية موجودة على مدى الزمان ما وجدت أوصافها •

والمجتمع الجاهلى لأنه يستمد شريعته من الهوى فان اقتصاده لابد أن يقوم على الربا وهو نفسه المجتمع الجاهلى المعاصر الذى استشرى فيه هذا الداء • أما الاسلام فان نظامه الاقتصادى يقوم على أسس ربانية يحس معها الأفراد بتعاونهم لا بتناحرهم « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وان كان ذا عسرة فنظرة الى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون • »(٣)

ولقد أقسم الله تعالى بالتين والزيتون وطور سنين والبلد الأمين وهو قسم من الله عظيم أن الانسان وهو صاحب الحضارة ـ خلق على الفطرة « الايمان والاسلام » ولكنه يرتد بنفسه الى أسفل سافلين وهو الكفر والشرك وليس الضعف الجسدى لأنه يشترك فيه المؤمن والكافر ولذلك استثنى الله تعالى من هذا المصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأخذوا الاجر غير الممنون « والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات

(١) سورة النحل • آية ٩٠

(٢) سورة الأحزاب •آية ٣٣

(٣) سورة البقرة • آية ٢٧٧ ـ ٢٨٠

فلهم أجر غير ممنون ، فما يكذبك بعد الدين ، أليس الله بأحكم الحاكمين • »(١)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر المهاجرين خصال خمس ، اذا ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها الا فشا بينهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان الا أخذوا بالسنين وشدة المؤن وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم الا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا • ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله الا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما فى أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله الا جعل بأسهم بينهم • »(٢)

هذا هو البيان الالهى عن الحضارة ، الفرق فيه بين الحضارة والتخلف وبين التقدم والرجعية أى بين الاسلام والجاهلية هو أن الاسلام تصديق بالدين بالخضوع لحكم الله أحكم الحاكمين فتصلح الحياة وتنمو ، وأن الجاهلية كفر بالدين وشرك بالله أحكم الحاكمين فتفسد الحضارة وتخبو •

---

(١) سورة التين • آية ١ ـ ٧

(٢) رواه البزار وابن ماجه والبيهقى •

ميزان الحضارة :

القرآن هو المنهج الوحيد الذى يجب على المسلم أن يتبعه فى القيام بخلافته فى الأرض · ان حركته كفرد وحركته فى جماعة وحركة الأمة فى مواجهة العالم لا بد أن تستمد من القرآن · ان ترك القرآن فى تفسير التاريخ أو السياسة أو فى تحديد معنى الحضارة يؤدى الى بناء المعرفة على الظن أو الهوى ، وهو انحراف لا يقل عن انحراف من يترك الاسلام كتشريع أو يتركه كنسك ·

وحياة الرسل وقصص الأنبياء أكبر معين يستمد منه الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة منهاج العمل الصالح وهو أساس الحضارة الصالحة · ولقد اقتصر القرآن على نماذج تاريخية وهى قصص الأنبياء وفصل فيها وأبان فى عروض مختلفة وذلك يغنى تماما عن قص التاريخ كله · (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه)(١) ·

وتتبين وحدة الرسالات جميعا فى قوله تعالى عن عاد على لسان نبيهم هود عليه السلام (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح)(٢) · وعن ثمود على لسان نبيهم صالح عليه السلام (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد)(٣) · وعلى لسان عيسى عليه السلام (انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة)(٤) وعلى لسان محمد صلى الله عليه وسلم (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)(٥) · وفى وصف القرآن (ان هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى)(٦) ·

---

(١) سورة الممتحنة · آية ٤
(٢) سورة الأعراف · آية ٦٩
(٣) سورة الأعراف · آية ٧٤
(٤) سورة الصف · آية ٦
(٥) سورة المائدة · آية ٤٨
(٦) سورة الأعلى · آية ١٨ ، ١٩

والانسان لم يتغير على مر العصور • لهذا كانت رسالة الرسل واحدة
ان الحق واحد على مر الأيام والباطل مهما يكن فانه متشابه ومنهاج العمل واحد • ان ثمود وعاد ومدين وفرعون والمنحرفين من اليهود والنصارى ومن يشاركهم يقفون فى صف واحد بشكل واحد تحت راية حزب الشيطان فى مواجهة الجماعة المسلمة من نوح وهود وصالح وشعيب وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ومن تبعهم وهم صف واحد تحت راية حزب الله • انها مواجهة واحـدة ومواقف متشابهة وأزمات متشابهة على تطاول العصور وتباين الأماكن •

وهذا هو السر أن الخطاب يعبر المسافة الزمنية بين الأنبياء واتباعهم وبين أعدائهم ويتحدث عنهم حديثا واحدا كأنهم فى عصر واحد • يقول الله تعالى : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعـدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب ، قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون • وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعـودن فى ملتنا • فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ، واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ)(١) •

(١) سورة ابراهيم • آية ٩ ـ ١٧

ونحن ملزمون اذن بأن نستمد منهاج حياتنا من قصص الأنبياء والمرسلين لأنهم هداة الحضارة الصالحة ودعاتها : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون • »(١) « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذا الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين »(٢) • « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »(٣) • « ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين »(٤) • « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم »(٥) •

وكان لزاما علينا أن نتبين سبيل المؤمنين التاريخى لاتباعه وتبين سبيل المجرمين التاريخى لاجتنابه ـ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ • قال : فمن ؟ »(٦) •

* * *

حينما يتحدث الاسلام عن الصفات الحضارية نجد أنه يوجه الكلام الى الأمة وترددت كلمة الأمة فى القرآن الكريم مرارا لتصوير الموازين الحضارية التى يقوم عليها المجتمع المسلم أى الأمة المسلمة • ومن ثم كان مفتاح فهم ميزان الحضارة الذى أنزله الله لحضارة الأمة المسلمة هو دراسة آيات الأمة وتحديد الصفات التى وصف القرآن بها هذه الأمة أو دعاها اليها •

---

(١) سورة يوسف • آية ١١١

(٢) سورة هود • آية ١٢٠

(٣) سورة الأنعام • آية ٩٠

(٤) سورة النحل • آية ١٢٣

(٥) سورة النساء • آية ٢٦

(٦) رواه البخارى ومسلم •

الوصف العام للمجتمع المسلم كما صوره القرآن هو (الاسلام) ، والاسم الذى يحدد معالم الأمة هو (الأمة المسلمة) . يقول الله تعالى : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت ، واسماعيل ربنا نقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم »(١) .

يقول الاستاذ العقاد : (ان فكرة الأمة التى جاء بها الاسلام لم يسبق اليها فهى معنى خلقته العقيدة الاسلامية ، ولم يكن له مرادف بمعناه فى لغة من اللغات قبل الاسلام ولا بعد الاسلام فكلمة Nation التى تقابل هذه الكلمة باللغات الاوروبية مأخوذة فى أصلها من معنى الولادة ، ومفادها أن الولادة فى مكان واحد هى الرابطة التى تكسب أبناء الوطن حقوق هذه الوحدة الاجتماعية ، وكلمة People تقابل عندهم كلمة الشعب أحيانا باللغة العربية ، وترجع فى أصلها الى السكن والاقامة ، وكلا المعنيين ، معنى الولادة ومعنى السكن قاصر على الدولة القومية كما يفهمها علماء التفريعات الاجتماعية والسياسية فى عهدنا الحاضر ، وأصبح منها أن تكون رابطة الأمة هى رابطة الاشتراك فى وجهة عامة كما سبقت بها دلالاتها فى الآيات القرآنية .)(٢)

ويقول أيضا عن مجموعة البحوث الدولية ١٩٥٠/١٩٥١ التى تطبعها جامعة هارفارد باشراف الأستاذ Padelford (يقول السير أرنست باركر فى باب القومية على ضوء التجارب العصرية : ليست الأمة حقيقة بدنية من دم واحد ، ولكنها حقيقة عقلية أو نفسية من تراث واحد)(٣) .

---

(١) سورة البقرة . آية ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٢) منبر الاسلام . صفر سنة ١٣٨١ هـ

(٣) القائد الأعظم . تأليف العقاد . ص ٢٧٩

ويحدثنا أيضا الاستاذ العقاد عن الاستاذ مونتجومرى فى كتابه الاسلام والجماعة المتحدة . (ان فكرة الأمة التى جاء بهما الاسلام هى الفكرة البديعة التى لم يسبق اليها ، ولم تزل الى هذا الزمن ينبوعا لكل فيض من فيوض الايمان يدفع بالمسلمين الى الوحدة فى أمة واحدة تختفى فيها حواجز الاجناس واللغات والعصبيات والنسب والسلالة ، وقد تفرد الاسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه ، فاشتملت أمته على أقوام العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الاقطار ، وتفاوت المصالح ، ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها . ويقطع الصلة بينه وبينها ، بل كان المنشقون عنها يعتقدون أنهم أقرب ممن يخالفوهم الى تقرير وحدتها ، ولم شملها ، ونفى الغرباء عنها ، وأن فكرة الأمة هى التى جعلت أناسا من الفرس يؤمنون بأنهم أحق من بنى أمية بنصرة الخلافة الاسلامية على قواعد المساواة بين جميع المسلمين .. وان فكرة الأمة هى التى حددت للبلاد الاسلامية فى كل عصر قبلة تلوذ بها وتهتدى بهداها ، وهى التى ثبتت فى صدور المسلمين أنهم أمة واحدة أمام الغزوات الأجنبية .. وسر هذه القوة فى العقيدة الاسلامية أنها منحت الفرد مقياسا للحياة أرفع وأسلم من مقياس العصبية والمتعة ، وهو مقياس الضمير المستقل عن أصحاب السيادة ، وأنها مع هذا الاستقلال الفردى لم تترك الجماعة بغير وجهة معتمدة عليها فأيدت لها فكرة الأمة وحررت هذه الفكرة من ربقة العصبية ، وحدود الوراثة ، فأصبح معنى الأمة قابلا للتطور مع الحوادث والظروف(١) .

ان اصطلاح الأمة المسلمة لا يحده اذن زمان لأنه يمتد مع البشرية من أول يوم لأن الله سماهم المسلمين من قبل . ان المؤمنين من قوم عيسى وموسى وغيرهم من النبيين هم الأمة المسلمة على مر الزمان الى يومنا هذا .

---

(١) منبر الاسلام . صفر سنة ١٣٨١ هـ

وهو لا يحده مكان فلا يرتبط بارض ولا سياج أو دم لأنه ليس فكرة قومية أو عنصرية وانما هو فكرة عقيدية ، انها الأمة التى جمعت فى أول عهدها مع صهيب الرومى سلمان الفارسي وبلال الحبشي لا فرق بينهم وبين القرشى ٠

هذا هو الاطار العام للأمة : الاسلام شأنه شأن كل جزء فى الوجود المسلم لله طوعا وكرها فلقد نزل القرآن ليقيم أمة على أصول تحدد سلوك الأفراد وروابط المجتمع وعلاقة الأمم مع غيرها من الأمم ويمثل الخضوع لهذه الأصول مفهوم العبادة والتوحيد ٠

وخصائص هذا النظام يسميه القرآن الميزان « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب »(١) ٠

هذا الميزان انزله الله تعالى مع الكتاب ليقوم الناس بالقسط « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »(٢) ٠

فما هو اذن الميزان الذى يؤدى لأن يقوم الناس بالقسط ؟ ٠ انه هو نفسه الميزان الذى يحكم السماوات « والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)(٣) ٠

ان القسط يمنع من الطغيان والخسران أى من الافراط والتفريط فهو الوسط ميزان الحركة للأمة المسلمة (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهدا على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ٠ »(٤)

وميزان الحركة هذا هو الذى يقام عليه بناء الأمة المسلمة فهو منهج الله الذى رسمه للطريق الذى تسير فيه ٠ ومن ثم كان معجزة

(١) سورة الشورى ٠ آية ١٧

(٢) سورة الحديد ٠ آية ٢٥

(٣) سورة الرحمن ٠ آية ٧ ، ٩

(٤) سورة البقرة ٠ آية ١٤٣

فى تطبيقه ومعجزة فى نتائجه تقام به الحجة على غيره من المناهج ، فكما أن الانسان المسلم يشهد على غيره باسلامه فان الأمة المسلمة تشهد بهذا الميزان على غيرها من الأمم ٠

هذا الوسط من شأنه أن يمنع التناقض بين المصالح والتنافر بين الغايات فيجمع بين القلوب فى غايات واحدة تتحدد بها معالم الخصيصة الثانية للأمة المسلمة وهى أنها أمة واحدة « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فأعبدون »(١) ٠

والأمة المسلمة بحكم منهاجها وغايتها خير أمة أخرجت للناس لأن منهجها قائم على العدل والقسط فهو منهج أخلاقى وغايتها هو اسعاد الناس ٠ ولهذا وصفها الله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خير لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون »(٢) ٠

هذه الأوصاف الثلاثة : الوسط ـ الوحدة ـ الخير ٠ التى وصفت بها الأمة المسلمة تحدد حركتها وتماسكها واتجاهها ٠ ومن ثم توضح مقاصد الشارع أو فلسفة النصوص المشتملة على الأوامر والنواهى ٠

والصورة المادية للحياة تتغير ، ولكن الجوهر ثابت ٠ فالحياة الزراعية للمجتمع تختلف عن الحياة الصناعية ٠ مما يؤدى الى تباين النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تربط بين الأفراد ، الا أن هذا التغير تغير فى الشكل لا فى الجوهر حيث بقى الانسان كما هو على الهيئة التى كان عليها يوم خلق الله البشر لم يتغير منه شىء على مر الزمان ٠ لم يتغير بحثه عن الطعام أو الجنس أو الأمن أو التمييز ٠ ولم يتغير نزوعه الى البقاء أو الامتداد أو المعرفة أو الخلود ٠ ولهذا كانت العلاقات التى تترتب على ممارستها لا تتغير وان تغير

---

(١) سورة الأنبياء ٠ آية ٩٢

(٢) سورة آل عمران ٠ آية ١١٠

المعمل الذى تتفاعل خلاله • فالانسان هو الانسان فى القرية أو المدينة في مصر أو فى أمريكا فى القرن الأول أو فى القرن العشرين• ان خط النفس غير خط العلم ، فالعلم دائما فى ازدياد أما الخط النفسي فواحد أبدا بغرائزه وأشواقه، بفطرته وتطلعاته وبها يفلح أو يفسد ، ينحرف أو يستقيم ، ويصعد أو يهبط « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »(١) •

فليس العلم اذن هو مقياس الحضارة وانما النفس الانسانية وطريقة ارتباطها وتعاملها مع غيرها • وها نحن نرى أن العلم اليوم فى ذروته والوفرة المادية جاوزت حدودها ولكن الناس تطحنهم الصراعات النفسية والحروب المروعة • وأين هم اليوم من تلك الراحة وذلك الهناء الذى عاشه مجتمع الرسالات المهتدى بهدى الرحمن •

هذه الأوصاف التي وصفت بها الأمة المسلمة ليست مبنية على عرف أو عادة لزمن معين أو مكان محدد وانما هى فطرة الله التى فطر الناس عليها • والفطرة خالدة لا تتغير •

انها أمة وسط أى تتحرك في الاطار الذى رسمه الله فلا افراط ولا تفريط ، هذا الوسط تعيش فيه الأمة واحدة تتجه الى الخير وبهذا تكون خير أمة أخرجت للناس وهذه نتيجة طبيعية فالوحدة لا يمكن أن تتحقق بالتناقض فى افراط وتفريط وهو الخير لأن الوسط هو أمثل طريق يحقق السعادة للناس • ووحدة الأمة لا يمكن أن تتحقق الا بعمل الخير والدعوة اليه • الخير هو الوحدة ، والوحدة هى الوسط، والوسط هو الخير • مثلا الانفاق الوسط خير فى طبيعته يحقق

---

(١) سورة الشمس • آية ٧ ـ ١٠

الوحدة فلا حقد ولا شقاق . وهذا هو الميزان وحــدة فى طبيعته ووسط فى شكله وخير فى وجهته ، فالوحدة خير والوســط خير والوحدة والوسط والخير صفات ثلاث لشىء واحــد أو هى جوانب ثلاث لجسم واحد هو الحق « وممن خلقنا أمة يهــدون بالحــق وبه يعدلون »(١) .

---

(١) سورة الأعراف . آية ١٨١

الفصل الأول

أمة وسط

امة وسط

الحضارة الاسلامية هى حصيلة تاريخ حياة المسلمين على أرضهم ، وفى أوطانهم الواقعة بين المناطق الباردة وكثرتها مسيحية والمناطق الاستوائية وكثرتها وثنية وبالتالى بين العناصر البيضاء والسوداء • وكانت جزيرة العرب ـ موطن الاسلام ـ ملتقى القارات الثلاث في العالم القديم بين بحار الشمال ومنها البحر المتوسط وبحار الجنوب بادئة بالبحر الأحمر • ولعدم اتصال هذه البحور كانت الأمة المسلمة نقطة تغيير فى وسائل المواصلات وملتقى لكل الشعوب • ومن هذه البيئة الوسط انتشر الاسلام فى كل اتجاه • وكان لها أيضا الفضل فى الربط بين المسلمين فلم يتباعد شطر منهم عن الوطن الأم للاسلام مما كفل التماسك العضوى بين المسلمين والتفاعل الحضارى الواحد بينهم •

هذه نظرة بيئية لفكرة الوسط فى الاسلام • ولكن مفهوم الوسط أبعد من ذلك • انه يشمل الحياة كلها بكل أبعادها المادية والفكرية والروحية •

فقصور المعرفة الانسانية هو المسؤول عن الاضطراب فى مفاهيم الناس • ينطبق هذا ابتداء من تصورات الانسان عن الوجود والحياة الى رسم منهج الحركة فى هذا الوجود •

فلا شك أن النظرية التى ترد العالم الى المادة وحدها كالماركسية رد فعل فكرى للنظرية التى تنكر المادة وتعتبرها صورا من الفكر كفلسفة بركلى • والنظرية التى تؤمن بجبرية السلوك الانسانى وحتمية خضوعه دون ارادة ولا حرية لها رد فعل مماثل فى النظرية التى تجعل الانسان حرا فى اختيار مصيره دون قيود كالوجودية • والنظرية التى تؤمن بصدق الادراك الانسانى واعتباره حقيقة لا شك فيها رد فعل للنظرية التى تشكك فى كل ما يدركه الانسان •

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى أحد رسائله الى أهل القصيم بنجد (فالفرقة الناجية وسط فى باب أفعاله تعالى بين القدرية والجبرية. وهم وسط فى باب وعيد الله بين المرجئة والمعيدية. وهم وسط فى باب الايمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية ، وهم وسط فى باب أصحاب رسول الله بين الروافض والخوارج)(١) .

ولقد أخذ العقل الانسانى المحدود بزمام الانسانية طويلا يجرها بقصوره من النقيض الى النقيض فمثلا كان يصور لها أن الحرية مطلقة دون حدود وقيود وتدرك فى النهاية بعد تجربة مرة أن اطلاق الحرية قد أدى الى الاحتكار وأدى الى أن المال والحكم صار دولة بين الأغنياء وأن مصالح المجتمع تسخر فى سبيل مصلحة فئة قليلة ، واذا دافعت عن مصلحة المجتمع رفع فى وجهك شعار الحرية ! . فلم تصبح الحرية الا حرية الفئة الغنية فى استغلال الجماهير التى تستذلها الحاجة . وتدافع الطبقة الغنية عن مصالحها بشدة فيتعقد الموقف الاجتماعى بصورة تؤدى الى الثورة . وهنا تظهر للعقل الانسانى نواة فلسفة أخرى للحركة مستمدة من رد فعل عنيف للافراط فى الحرية . انه يدعو الى الديكتاتورية باسم مصلحة الجماهير . الدكتاتورية التى تقضى على الطبقة الغنية وتنهض بالجماهير لتحررها من ذل الحاجة . ويندفع العقل الانسانى بحماس فى سبيل تحقيق هذه الفكرة الجديدة فكرة الدكتاتورية ــ ولا يدرك الأخطار التى تحيق به من تفريطه فى الحرية ولا يتصور كيف يكون حاله حين تكبت حريته وينطلق الصولجان الى فئة أخرى تستغله . ولا ينفع هنا تذكير لأنه لا يتذكر الا بعد أن تصيبه ضربات معجزة يحس معها بوطأة التفريط فى هذا المبدأ .

وهذا شأن العقل الانسانى دائما اذا ترك لنفسه ينتقل من النقيض الى النقيض كالذى يتخبطه الشيطان من المس . وكما يقول

(١) الوعى الاسلامى ــ عدد ٨ شعبان سنة ١٣٩١ هـ .

جون ستيوارت مل : « نجد أن التطرف فى العقل البشرى قاعدة مطردة والتوسط شيء نادر ، ولذلك فان جميع الثورات الفكرية تنحصر عادة فى ظهور جانب من الصواب على أثر أقول جانب آخر منه » .

ولقد فشل الفلاسفة في ايجاد خط معتدل تسير عليه الانسانية على مدى الأجيال فتصوروا أن الحركة الانسانية تسير كلها فى هذه الذبذبات ومن ثم كانت فلسفة التناقض هى الحق المطلق عند الشيوعيين وهى أصل الحركة . فالحقيقة عندهم لا تظهر كاملة الا اذا مرت في نقيضها .

المبحث الأول
معنى الوسط

يقول الأستاذ العقاد عن الأستاذ شارل دارون فى كتابه The Next Million Years « أن العقائد لها خاصية أخرى أقوم وأجدر بالالتفات اليها ، وذلك أنها تكفل الدوام للخطط الاجتماعية زمنا أطول من الذى تتكفل به أية فكرة عقلية ، وفى التاريخ حالات عديدة تصدى فيها نخبة من الساسة المستنيرين لوضع سياسة يتوخون فيها المصلحة العامة ، ويقفون حياتهم فى انجازها ، وما هو الا أن ينقضى جيلهم حتى يعقبهم ساسة آخرون ينقضونها ايثارا لطريقة غيرها من طرق المصلحة الانسانية فلا يطول أجل الخطة القائمة على العقل أكثر من جيل واحد وهو أمد قصير جدا لا يكفى للتغلب على عقبات المصادفة »(١) .

والوحى أنزله الله للانسانية ليحدد لها معالم سيرها على توالى العصور واختلاف الزمان . وهو سبحانه وتعالى بكل شىء عليم وبعباده رؤوف رحيم . ولهذا لا يتعرض هذا التشريع لما يتعرض له نتاج العقل الانسانى نتيجة لظهور الظروف المتجددة على الدوام . والسر فى خلود التوجيه الالهى فى الحياة طبيعة الوسط التى أشار اليها القرآن صفة للأمة المسلمة عند تطبيق شريعة الله لأن عنده يكون التوازن والعدل . وهو الفطرة أو النظام المناسب لطاقات الانسان وتناسقه مع الوجود .

وادراك حقيقة الوسط هنا فطرية ولهذا نجد ادراكها قديما فى الفكر البشرى على مدى الزمان . قال أرسطو : « ان الوسط بالنسبة الى شىء ما هو النقطة التى على بعدين متساويين من كلا الطرفين ، والتى هى واحدة بعينها فى كل الأحوال . أما بالاضافة الى الانسان ، فالوسط هو الذى لا يعاب لا بالافراط ولا بالتفريط .

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين . العقاد ص ١٥٦

وكل انسان عالم وعاقل يجهد نفسه فى اجتناب الافراط من كل نوع سواء أكان بالأكثر أم بالأقل ولا يطلب الا الوسط القيم أو يفضله على الطرفين ٠

ولكن هذا الوسط ليس وسط الشيء عينه ٠ بل الوسط بالنسبة الينا ، وأنا أعنى بالكلام هنا بالفضيلة الأخلاقية ، لأنها هى التى تختص بانفعالات الانسان وأفعاله ٠

« فالفضيلة نوع وسط ، ما دام الوسط هو الغرض الذى تطلبه بلا انقطاع »(١) ٠

والوسط الذى نقصده ليس أوصافا اخلاقية كما يقصد أرسطو فهناك فضائل ليست وسطية كالصدق الذى يقابله الكذب ٠ أما الوسطية فى الاسلام فهى حدود لمنهج الحركة فى طريق مستقيم الى هدف بعيدا عن انحرافات فى سبل شتى تؤدى للضلال ٠

عن مجاهد « قصد السبيل » أى المقتصد منهجا بين الغلو والتقصير ، وذلك يفيد أن الجائر هو الغالى أو المقصر ، وكلاهما من أوصاف البدع »(٢) ٠

وحقيقة الوسط الذى توجده شريعة الله ليس هو أنصاف الحلول وليس هو نقطة بين طرفين كما صور أرسطو انما من معانيه الحسن والفضل والاعتدال والقصد والحكمة ٠ انه صراط الله المستقيم أى الاسلام محدد بمعالم ومتجه الى غاية ٠ حدوده أوامر الله التى تحقق الوسط ان خرج عليها وقع فى محارم الله وانفلت عن الصراط المستقيم الى السبل الشتى التى لا حدود لها ولا غاية تصل اليها ٠ هذا الوسط يتحقق عنده التوازن لا طغيان ولا خسران « والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »(٣) ٠ فهو موزون لا طغيان ولا خسران وهو

(١) علم الأخلاق ٠ أرسطو ١ ـ ٢٤٥.

(٢) سورة الرحمن ٠ آية ٧ ـ ٩

(٣) الاعتصام ٠ للشاطبى ٠ ص ٥٩

القسط أي العدل « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »(١) • وهـــذا الصراط ليس حدا ضيقا ، انه مدى متسع يصلح للضعيف والقوى ويناسب الواقعى والمثالى لاافراط ولا تفريط ، ولا طغيان ولا خسران ، ولا غلو ولا تقصير والاسراف والتقتير والوكس والشطط كما تعبر ألفاظ الكتاب والسنة هي بالتحديد محارم الله : « قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن »(٢) • والفحش هو ما زاد عن الحد • «قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ، قل أمر ربى بالقسط »(٣) •

فالوسطية هي الصفة التى تكون عليها الأمة المسلمة نتيجـة تطبيق سنة الحركة للانسان والأمة كما أراد الله وهي التى تتناسق مع الفطرة كما خلقها الله وكما أن القوانين الطبيعية هى سنة الحركة للنجوم والكواكب ، كلاهما سنن الله الخالدة التى يستقيم عليهـا الوجود ان اتبعها ويتحطم وينهار ان بعد عنها • وهي اذن منهج الله الذى يسلم له من فى السماوات والأرض • ولهذا كانت الوسطية محور الحركة فى التشريع والأخلاق وكل صور النشاط الانسانى والتى نلمسها فى حـدود القرآن وأوامره ونواهيه فى نتائج هـذا الاذعان لله تعالى •

مثلا الغيرة لها حد اذا جاوزته صارت تهمة وظنا سيئا بالبرىء وان قصرت عنه كانت تغافلا ودياثه ، وللتواضع حد اذا جاوزه كان ذلا ومهانة وان قصر عنه انحرف الى الكبر والفخر ، وللعزة حد اذا جاوزته كان كبرا وخلقا مذمـوما وان قصرت عنه انحرف الى الذل والمهانة •

يقول ابن قيم الجوزية « وضابط هذا كله العدل ، وهو الأخذ

---

(١) سورة الحديد • آية ٢٥

(٢) سورة الأعراف آية ٣٣

(٣) سورة الأعراف • آية ٢٨ ــ ٢٩

بالوسط الموضوع بين طرفى الافراط والتفريط وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة ، بل لا تقوم مصلحة البدن الا به فانه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك ، وكذلك الافعـال الطبيعية كالنوم والسـهر والأكل والشرب والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك اذا كانت وسطا بين الطرفين المذمومين كانت عدلا وان انحرفت الى أحدها كانت نقصا وأثمرت نقصا »(١) .

ويقول « وما أمر الله بأمر الا وللشيطان فيه نزغتان اما الى تفريط واضاعة واما الى افراط وغلو . ودين الله وسط بين الجافى عنه والغالى فيه ، كالوادى بين جبلين والهدى بين ضلالتين والوسط بين طرفين ذميمين . فكما أن الجافى عن الأمر : مضيع له ، فالغالى فيه : مضيع له . هذا بتقصيره عن الحد . وهذا بتجاوزه الحد »(٢) .

---

(١) الفوائد ـ ابن قيم الجوزيه . ص ١٢٥

(٢) مدارك السالكين ـ ابن قيم الجوزيه . ص ٤٩٦ جـ ٢

المبحث الثانى
دراسات وسطية

وحتى نفهم عظمة الاسلام فى منهج الوسطية علينا أن ندرس بعضا من هذه التطبيقات فى شكلها المقارن بين الشرق والغرب أى بين الافراط والتفريط ٠

١ ــ النظرية والتطبيق

النظرية وحدها دون عمل تصبح سفسطة ولا تنفع الناس ٠ وكلما بعدت النظرية عن الواقع أمعنت فى الخيال وكانت أقرب الى الضلال فمدينة أفلاطون ، وشيوعية ماركس كلها افكار نظرية لا يستطاع تطبيقها ٠

والعمل دون فكر تخبط على غير هدى ومنه التقليد الذى يتبعه الانسان دون تدبر وهو الذى نهى عنه الله تعالى بقوله : « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ، قال : أو لوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا انا بما أرسلتهم به كافرون ، فانتقمنا منهم فأنظر كيف كان عاقبة المكذبين »(١)

ومنه أيضا التصوف بدون علم ٠٠ يقول ابن قيم الجوزية : « وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد ٠ فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة ، التى لم يجىء بها الرسل ، فهو كالمريض الذى يعالج نفسه برأيه ، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب ٠ فلا سبيل الى تزكيتها وصلاحها الا من طريقهم ٠ وعلى أيديهم ٠ وبمحض الانقياد أو التسليم لهم »(٢)

(١) سورة الزخرف ٠ آية ٢٢ ــ ٢٥

(٢) مدارج السالكين ص ٣١٥ جـ ٢

ونلمح ذلك الاختلاف على مستوى الحضارة فيرى الهنادك أن حياة الانسان هى أصل المصائب والآلام وذلك منشؤه العمل ، وان حالة النفس الانسانية نتيجة محتومة لأعمالها ٠٠ ولا سبيل الى الخلاص الا بترك العمل ٠

وتمتاز أمم الغرب بين أمم العالم بميلها الى العمل الذى أنساهم رعاية أرواحهم وبلغ الاهتمام بالعمل القمة بظهور الفلسفة البراجماتية التى ردت النظرية تماما الى العمل فما ثبت صحته عمليا فهو الحق ٠

وكلتا الحالتين خطأ ، ان الأولى تؤدى الى الضلال مع العقل والثانية تؤدى الى الضلال مع الغرائز ٠ والاسلام يربط العقل بالتشريع أى النظرية الملائمة للواقع ويربط الواقع بالنظرية التى أرادها الله لهداية الانسانية فى وسط لا تسبق فيه النظرية التطبيق فتكون ضلالا ولا يسبق فيه التطبيق النظرية فيكون شقاء ٠

ولهذا يعتبر الاسلام العلم بكتاب الله وبأسرار الكون عبادة لأنه دليل الانسان لضبط بوصلته فى سير حياته ٠ ومن هنا يوقف القرآن أهل العلم مع الملائكة فى شهادة التوحيد ٠ « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم »(١)

والانسان مطالب أن يسير فى حياته على هدى العلم وهو مسئول عن ذلك (ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)(٢) ٠ ويصور مدى الحسرة التى تحل بالانسان حين يعطل فكره ومداركه ويندفع وراء غرائزه (وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فأعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير)(٣) ٠

والعلم هنا شامل كما يوضح القرآن « ألم تر أن الله أنزل من

(١) سورة آل عمران ٠ آية ١٨

(٢) سورة الاسراء ٠ آية ٣٦

(٣) سورة تبارك ٠ آية ١٠ ــ ١١

السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخش الله من عباده العلماء ، ان الله عزيز غفور »(١) والآية تبين ألوان العلم • فالعلم بالطبيعـــة دراســة للغلاف الجوى والعلم بالزراعة دراسة للثمار المختلفــة • والعــلم بالجيولوجيا • والعلم بالأجناس والحيوان تهدى الانسان لمعرفة الله عن علم ، وخشيته عن فهم (انما يخشى الله من عباده العلماء)(٢) •

وكانت أول آية نزل بها الوحى فيها أمر للرسول بالقراءة :
« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم »(٣) • ولقد نوه القرآن بالعلم والعلماء فى آيات كثيرة منها : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »(٤) • وقال تعالى : قل هـــل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٥) • وأقسم تعالى (ن • والقلم وما يسطرون)(٦) •

لهذا كان العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم »(٧) • ويقول صلى الله عليه وسلم « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها »(٨) • ويقول : «ان مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم فى السماء يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر فاذا انطمست النجوم

---

(١) سورة فاطر • آية ٢٨
(٢) سورة فاطر • آية ٢٧ ــ ٢٨
(٣) سورة العلق • آية ١ ــ ٥
(٤) سورة المجادلة • آية ١١
(٥) سورة الزمر • آية ٩
(٦) سورة القلم • آية ١
(٧) رواه ابن ماجه
(٨) رواه الترمذى

يوشك أن تضل الهداة »(١) • وقال : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة »(٢) •

ولكن العلم بدون عمل سفسطة كما أن العمل بدون علم تخبط ولهذا يأمر الأسلام بالجمع بينهما فقرن بين الايمان والعمل الصالح فى آيات القرآن كمكملين لبعضهما • فالعمل هو موضوع الابتلاء والمعراج التى تعرج به الروح • « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »(٣) • ويقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »(٤) • وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الايمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل »(٥) •

فمنهج الحركة الوسط يقوم على النظرية والتطبيق معا فلا هو اسراف فى النظرية يبعدها عن التطبيق الواقعى ولا هو مجرد عمل لا يقوم على أساس فكرى فيكون مصيره التشتت والضلال • انه الوسط الذى يؤمن بالنظرية ويؤمن بالتطبيق ويكفل لهما التلازم فى الحركة وليس الايمان لهذا بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وقر فى القلب وصدقة العمل •

٢ ـ الثبات والتغير

هذا أمر خطير لأنه يرتبط بقيم الانسان ومنظماته ـ هل الشريعة نصوص جامدة لا تتحرك ويجب أن تسود على أى وجه أم أن الشريعة تهتز لكل نسمة عابرة فتؤول وتعطل تحت أى دافع أو رغبة •

---

(١) رواه أحمد

(٢) رواه مسلم وابو داود والترمذى والنسائى

(٣) سورة الملك • آية ١ ، ٢

(٤) سورة الصف • آية ٢ ، ٣

(٥) أخرجه الديلمى فى مسنده الفردوس عن أنس

هذه الظاهرة يجيب عليها التاريخ • لقد فشلت اليهودية حين جمدت على القديم ولصقت بالشكل دون الجوهر •

وها نحن نرى اليوم نظرية التطور تطغى على الحياة يفسر بها التاريخ والاجتماع • فتوضع قيمة لكل جديد مهما كان هذا الجديد • ومن ثم تسلم الانسانية نفسها لأهـواء الناس تتقاذفهـا ولظنون الخارصين التى تضللها •

والواقع أن الاسلام بوسطيته هو وحده الذى يضع حدا لهذا التخبط وهذا الفساد • فللاسلام قواعد ثابتة لا تتغير لأنها شرعت للانسانية من عند الله العالم بمصالحها • هذه القواعد ليست ثابتة بالمعنى الذى يفهم من أنها لا تسمح بنمو الحياة فى اطارها • ولكنها ثابتة بالقدر الذى لا يسمح للنمو أن ينحرف • انها عـلاقات على طريق الحياة تهدى الى الطريق المستقيم فهى دليل صادق يوجه الخطى الى الخير والفلاح •

هذا الثبات المرن فى الشريعة يوائم الثبات المرن فى جوهر الانسان فالحياة وان نمت الا أنها فى طبيعتها واحدة فالذى يتغير هو الصور والحالات التى تتشكل بها المادة أما رغبة الانسـان فى الطعام والجنس والأمن والتمييز والنزوع للبقاء والامتداد والمعرفة والخلود فثابتة لم تتغير • ان نفس الانسان كما هى عرضة للهبوط والصعود والزلل والهداية أما عقل الانسان فانه ينمو باكتشافه لأسرار الكون ، ولكن النمو العقلى والنمو المادى لا يؤثر فى طبيعة النفس شيئا • ان اختلاف وجبة الطعام التى تقدم للانسان لا تعنى أبدا سعادته أو تعاسته فقد يكون الفقير سعيدا أو الغنى تعسا • لأن طبيعة النفس تعتمد على شىء آخر غيركم ودرجة الظروف المادية فالذى يؤثر فى الانسان هو درجة تعامله مع الحياة لا الدرجة التى نمت بها الحياة •

لهذا نجد فى القرآن ثباتا فى العقـائد القاطعـة كالتوحيد وارسال الرسل وانزال الكتب وختم النبوة بمحمد صلى الله عليه

وسلم والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال والدار الآخرة • بل نراه أيضا فى الأحكام العملية التى جاءت بها الشريعة بطريقة واضحة حاسمه فى جانب الايجاب أو المنع أو التمييز ، وذلك مثل وجوب الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا وكون الصلاة خمسا فى اليوم والليلة وكون الصلوات على هذه الهيئة المعروفة وكذلك فى النظم الاجتماعية التى لا تتغير كالزكاة والحدود والميراث لأنها تتصل بأسباب لا تتغير بتغير الزمان والمكان • أما النظم التى تتغير فقد وضع لها قواعد عامة تتعلق بالظروف المتغيرة الا أنها تحقق مقاصد واحدة كالبيوع وعقوبات بعض الجرائم •

وكذلك القواعد الكلية التى أخذت من الشريعة ــ بنص واضح كالقواعد الآتية :(١)

١ ــ **دفع الضرر** : المأخوذ من حديث (لا ضرر ولا ضرار)(٢) ومنه تتفرع القواعد الآتية :

أ ــ الضرر يزال شرعا : كثبوت الشفعة للشريك والجار •

ب ــ يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام : كهدم الجدار الآيل للسقوط فى الطريق العام •

ج ــ الضرر لا يزال بالضرر : كعدم جواز دفع غرق الأرض باغراق أرض الغير •

د ــ يرتكب أضعف الضررين لاتقاء أشدهما : تطلق الزوجة من زوجها للضرر والاعسار •

و ــ دفع المضار مقدم على جلب المنافع • كمنع تصرف المالك فى ملكه ان كان تصرفه يؤذى غيره والضرورات تقدر بقدرها فلا يباح المحرم الا بالقدر الذى لا تبقى الحياة بغيره •

٢ ــ **سد الذرائع** : مأخوذ من الآية « ولا تسبوا الذين يدعون

(١) روح الدين الاسلامى • توفيق عفيف طباره • ص ٢٥١ ، ٢٥٥

(٢) رواه احمد وابن ماجه والبيهقى والطبرانى •

من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم »(١) ويقوم عليه المبادىء الآتية :

أ ـ ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ٠

ب ـ ما أفضى الى المحظور فهو محظور ٠

ج ـ ما أضر كثيره حرم قليله ٠

٣ ـ رفع الحرج : مأخوذ من آية « وما جعل عليكم فى الدين من حرج »(٢) ٠ وتقوم عليه المبادىء الآتية :

أ ـ المشقة تجلب التيسير ٠

ب ـ الحرج مرفوع شرعا ٠ كقبول شهادة النساء وحدهن فيما لا يطلع عليه الرجال من النساء ٠

ج ـ الحاجات تنزل منزلة الضرورات فى اباحة المحظورات كالترخيص فى السلم ٠

٤ ـ **الضرورات تبيح المحظورات** : مأخوذ من الآية « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه »(٣) ٠

٥ ـ **الأصل الاباحة** : مأخوذ من الآية « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا »(٤) ٠ ويجب هنا أن نفهم نقطتين :

الأولى : هى القياس فليس معناه أننا بعدنا عن الثبات لأننا لا زلنا مربوطين بالنص ٠ فما القياس الا بحث عن تشابه العلل لتطبيق مقاصد الشارع على الحياة المتغيرة فى مظاهرها المادية ٠ وحكمها بمقاصد الشارع ضمان لتوازن النمو وعدم انحرافه وهنا نجد أن النص هو الشامل لهذه الجزئيات وأننا لا زلنا مقيدين بقيود الشارع نضبط بها الاتجاه ٠

---

(١) سورة الأنعام ٠ آية ١٠٨

(٢) سورة الحج ٠ آية ٧٨

(٣) سورة البقرة ٠ آية ١٧٣

(٤) سورة البقرة ٠ آية ٢٩

الثانية : فهي اباحة المحظور للضرورة ، وهي ليس معناها أننا عطلنا نصا تحللنا منه لأن قواعد الضرورة منصوص عليها في القرآن والسنة ، وهي بهذا تحجب نص الحظر ولا تلغيه وتوقف الواجب لتعارضه مع واجب آخر أولى منه وهي خاصية يتوقف فيها النص كتخصيص العام أو تقييد المطلق تماما وسبب الخلط في هذه المسألة هي تلك الرغبة الشيطانية في التفلت من قيود الأخلاق بفتح الثغرات ثم توسيعها قصد تعطيل عمل الشريعة ففرق بين اباحة المحظور في حالة الضرورة واتباع الهوى ببغي وعدوان لتنحية الدين عن توجيه الحياة رويدا رويدا اما جهلا بالدين واما هوى متبعا ونية مبيتة كلاهما أسوأ من الآخر .

فلنتنبه اذن الى الدعوة السامة باسم التطور للتحلل رويدا رويدا من أوامر الشارع ونواهيه باسم المصلحة والضرورة . وأولى بنا أن نتبع شرع الله لأنه خير كله وندع نفثات الشيطان التي توحي بالضلال واباحة الحرام والتساهل في الأوامر والنواهي لأن هذا ضار بحياتنا وضار بديننا تتحول به قيمنا الى ريشة في مهب الريح تتحرك لكل نسمة تهب عليها .

فالشريعة الاسلامية ليست جامدة ولكنها ليست في نفس الوقت متقلبة انها ثابتة في اطار نام متحرك تسير فيه الانسانية في الطريق الصحيح بعيدة عن الانحراف .

هذا الثبات المتحرك أي تفصيل ما لا يتغير واجمال ما يتغير هو الوسط بين الجمود والتحلل وهو خير طريق يؤدى به الفرد والأمة رسالتهما في الوجود والتاريخ وهو سر دوام الشريعة وخلودها .

٣ ـ المثالية والواقعية

ان الاسلام يبني تكليفه على الواقع ولكنه يصعد مع ذلك بالانسان الى الأفق السامي ويأخذ بيده الى المثل الأعلى . وتتوزع هذه الواقعية والمثالية في القرآن والسنة ليقوم المكلفون بما

يستطيعون فلا تحمل نفس فوق طاقتها ولا تحرم نفس من أن تبذل ما استطاعت .. انه يوجه للناس كافة أصل « فاتقوا الله ما استطعتم »(١) . ويوجه الى المتطلعين الى المثل الأعلى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته »(٢) . هذا الاتجاه نلاحظه في كل شأن من عقيدة أو عبادة أو معاملة ، ونجده أيضا على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة وعلى مستوى الأمة وهذا كله يسع طاقات الناس جميعا الذى يقصر جهده فى العبادة على الحد الأدنى الى الذى يجاهد بشوقه حتى يصل الى النور الأسنى .

فهو يقدر أن للانسان ضرورات وغرائز وله أيضا أشواق وروح . فاذا أخذنا على سبيل المثال : المال ـ نجد أن الانسان يحبه حبا جما يقول تعالى : « وانه لحب الخير لشديد »(٣) الا أن الاسلام يوحد بين المجتمع برعاية المسكين والفقير فيفرض فى هذا المال قدر الزكاة كحد أدنى ليس هو كل شيء وانما هو الحد الواقعى الذى يتركه الانسان بطيبة من نفسه . ثم يترك الباب بعد ذلك واسعا أمام الانسان لينفق ما يريد وهو يعده بهذا الانفاق الجزاء اضعافا مضاعفة . ولكنه أيضا يربط هذه المثالية بالحد الذى يترك له اهله مستورين (٤) . يقول الله تعالى : « وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين »(٥) . « جاء رجل ببيضة من الذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقذفه لو أصابته لأوجعه . ثم قال : يذهب أحدكم فيخرج ماله ثم يجلس كلا على الناس »(٦) . ويقول الله تعالى : وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن

(١) سورة التغابن . آية ١٦

(٢) سورة آل عمران . آية ١٠٢

(٣) سورة العاديات . آية ٨

(٤) هناك حالات استثنائية كالحروب لا يتقيد فيها بهذا الحد كانفاق الصديق لكل ماله فى الجهاد .

(٥) سورة الأنعام . آية ١٤١

(٦) رواه أبو داود

السبيل ولا تبذر تبذيرا »(١) . ودرجة التفاوت المادى بين الناس نجد أنه بميزان الوسط شرع حدا أدنى من الغنى هو نصاب الزكاة بعد سد الضرورة وهو حد الحاجة لا يقل عنه مسلم بحال وتكفله الدولة حتى ولو لم تكف الزكاة ـ وترك للمسلم الباب مفتوحا ليزيد ثروته من عمله الا أنه وضع حدا أعلى لهذا الغنى يقف عنده خوفا من أن يطغى صاحبه وتكون دولة بين الأغنياء لهذا يأمر سبحانه « خذ العفو »(٢) . وذلك لحكمة « كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى »(٣) .

والوسط بذلك يمثل حدين حد أدنى ، وحد أعلى يمثل الأول الواقعية ويمثل الثانى المثالية .

ولقد كان هدف الاتجاه المثالى للاسلام أن يلغى الرق والخمر ولكن حتى من ناحية الأسلوب لم يأخذ الاسلام تجاه هذه الأمراض الاجتماعية التى ترسبت فى النفوس الا الاتجاه الواقعى فى العلاج وهو يدفع الناس نحو المثالية . ففى الرق لم يلغه بجرة قلم وانما أخذ يجفف منابعه حتى يقضى عليه . ولم يجعل له سوى باب واحد هو باب ضرورة المعاملة بالمثل فى الحروب ثم جعله كفارة لكثير من الذنوب وخصص له جزءا من حصيلة الزكاة وفتح له باب الاكتتاب للتحرير وأخذ يحرر العبيد من داخل نفوسهم بالأمر بحسن معاملتهم .

وفى الخمر اتخذ القرآن نفس الأسلوب الواقعى فى المعالجة فانه لم يأمر بتحريمها فجأة وانما قال حين سئل عنها : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما »(٤) فأخذت النفوس تحس بثقل الاثم واقتربت نفوس من

---

(١) سورة الاسراء . آية ٢٦
(٢) سورة الأعراف . آية ١٩٩
(٣) سورة العلق . آية ٦ ، ٧
(٤) سورة البقرة . آية ٢١٩

المثالية فحرمتها ، وتحرك ضمير البقية التى لم تتركها فى قلق ، ثم نزلت الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون »(١) • ولما كانت الصلاة خمس أوقات فى اليوم فانها تستوعب أغلب ساعات اليقظة التى يمتنع أن يكون الانسان فيها مخمورا • هذا التدرج الواقعى البديع هيأ النفوس لتركها النهائى فنزل التحريم « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، لعلكم تفلحون »(٢) •

هذا هو ميزان الوسط الذى يرسم دليلا للحركة واقعيا فى مثاليته ومثاليا فى واقعيته •

٤ ـ الروح والمادة

تتأرجح الحضارة فى اتجاهين متطرفين : الاتجاه الأول هو سير الحضارة فى الجانب المادى فحسب الذى يتجلى فى الفنون والصناعات والمؤسسات الاجتماعية والعمرانية •• والاتجاه الثانى ينظر الى الحضارة من جانبها الداخلى وذلك هو الاتجاه الروحى •

فاذا ساد الاتجاه الأول فان المدنية لا تنمو الا فى الآلات والمبانى وفى الترف والبذخ ولا ينمو معها سوى زيادة الحروب وحدة الصراع وانتشار المباءات الخلقية فينضب فى قلوب الناس معين الحياة الطيبة المتعاطفة والمتراحمة وتتفكك روابط الأسرة وتنتشر الفردية والأنانية وتختلط الانساب وتخرج المرأة متشبهة بالرجال• ان المادة تصير غاية الحياة يعبدها الناس ويقدسونها ويتصارعون فى سبيل الحصول عليها •

أما اذا ساد الاتجاه الروحى الذى يهمل الحس والجسم وينبذ

---

(١) سورة النساء • آية ٤٣

(٢) سورة المائدة • آية ٩٠

الحياة فان الحضارة تذوى ويقف نمو الانسـان الفكرى والمادى وتتحول الحياة الناشطة الى خراب • ولا تلبث الضرورات الحيوية فى جسم الانسان أن تثور ثورة عارمة فتنقلب الى رد فعل عنيف يقضى على هذه السلبية الضعيفة العقيمة • وهذا ما حدث فى أوروبا حين ثورتهـا على الدين والرهبانيـة ، فانزوى الدين وترك الحياة دون توجيه ، ورغم ذلك لم يسلم حتى وهو فى زاويته المهجورة ـ من الهجوم والازدراء بعد أن عجز عن أن يتفاعل مع الحياة وترك المادية تجرف الحضارة •

والاتجاه الوسط هو الذى لا يسرف فى المادة كعامل حضارى ولا يفرط فى الروح كعامل حضارى وهو الوسط الملائم للفطرة فلقد خلق الله الانسان من قبضة طين فى فطرته نوازع الشهوة التى تصله بالمادة ومن نفخة روح فى فطرته أيضا أشواقه الروحية التى تصله بالله تعالى••ولكن الانسان لا يستطيع أن ينمو بروحه ويهمل ضروراته أو يجرى وراء ضروراته ويهمل روحه • هـذه هى النظرة الضيقة التى ينظر بها العقل الى هذه المسألة الخطيرة ،اما افراط أو تفريط ولهذا لم يستطع أن يتصورها الا على صورة الصراع • صراع بين الناس فى المـادية وصراع بين الروح والجسـد فى الرهبانية • أما الصورة الحقة فهى صورة الوسط الذى يؤدى الى التعاون والتكامل والوحدة •

ولقد نهى الاسلام عن الرهبانية واعتبر العمل فى الدنيا هو الرهبانية • يقول ابن قيم الجوزية فى قوله تعالى : « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » الوقف التام عنـد قوله (ورحمة) ثم يبتدىء (ورهبانية ابتدعوها) أى لم نشرعها لهم بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم ولم نكتبها عليهم ، لم يفعلوها ولم يبتدعوها الا لطلب رضوان الله ودل على هذا قوله (ابتدعوها) ثم

ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية وأنه هو طلب رضوان الله ثم ذمهم بترك رعايتها اذ من التزم لله شيئا لم يلزمه اياه من أنواع القرب لزمه رعايته واتمامه(١) ٠

ولهذا كانت رهبانية الاسلام فى الجهاد ٠ قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوصنى ٠ فقال له : أوصك بتقوى الله فانه رأس كل شىء وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فانه روح لك فى السماء وذكر لك فى الأرض »(٢)٠ فذروة سنام الاسلام الجهاد ٠ وقال صلى الله عليه وسلم « تزوجوا فانى مكاثر بكم الأمم ولا تكونوا كرهبانية النصارى »(٣) ٠ قال صلى الله عليه وسلم : « لا تشددوا فيشدد الله عليكم فانه كان قبلكم شددوا فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم »(٤) ٠ ونهى الاسلام عن الافراط فى حب المادة حبا يعلق الانسان ويشغله ويصده عن عبادته يقول تعالى : « كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة »(٥) ٠

«اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور »(٦) وأمر بالوسط لا افراط رهبانية ولا تفريط فى الروح ولا افراط فى حب الدنيا ولا تفريط فيها لأنهم مأمورون بعمارتها وهو قول الله تعالى : « وابتغ

---

(١) مدارج السالكين ٠ ابن قيم الجوزية ٠ جـ ٢ ٠ ص ٦٠ ، ٦١

(٢) رواه أحمد ٠

(٣) رواه البيهقى ٠

(٤) رواه أبو داوود ٠

(٥) سورة القيامة ٠ آية ٢٠ ، ٢١

(٦) سورة الحديد ٠ آية ٢٠

فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »(١) •
ومن هذه الزاوية كان مفهوم الزهد فى الاسلام ليس بتحريم الحلال ولا اضاعة المال ولكن أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك(٢) ، وهو تعبير عن قول الله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور »(٣) •
هذه صورة الأمة المسلمة أيام الرسول وخلفائه الراشدين ومن سار على نهجهم ، كانوا عبادا فى المسجد خاشعين وبناة للحضارة مجدين ، جامعين الروح والمادة فى اطار واحد من تعاليم الله تعـالى فى خلافتهم عن الله فى هذه الأرض •

٥ ـ العبادة والمعاملة

ويتصل بتحديد المفهوم السابق تحديد صلة العبادة بالمعاملة، فالغاية التى خلق الله تعالى الانسان من أجلها عبادته • وهذه العبادة ذات مفهوم واسع • انها ليست قاصرة على النسك وانما تشمل كل عمل يقوم به الانسان فى الأرض ما دام هذا العمل موجها الى الله تعالى يحس الانسان أنه يقوم به كخليفة عن الله • ان العبادة هى الحياة نفسها لأن مفهومها واسع يشمل النسك والمعاملات فى آن ، فالشعيرة والشريعة حزمة واحدة لا يجحد بأحدهما أو بهما جميعا الا كافر •

بل ان النسك نفسه متصل بالحياة لأنه وسيلة لاصـــلاح المعاملات • ان التوحيد يحرر الانسان من الخوف فرزقه بيد الله ، لن يستطيع انسان أن يمنعه ، فلا عبودية اذن من أجل ضرورة •• وحياته لها ميعاد لن يستطيع أحد غير الله أن يقدم منه لحظـة او يؤخره ، فلا يخيفه سلطان ولا يخشى بأس انسان ، ولهذا قال الله

(١) سورة القصص • آية ٧٧
(٢) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٣
(٣) سورة الحديد • آية ٢٣

تعـــالى : « ولله العزة ولرســوله وللمؤمنين ولـكن المنـافقين لا يعلمون »(١) ٠

وفي الصلاة تذكير متصل برقابة الله ٠ فلا تنحرف النفس في طريق الضلال ويخرج الانسان بعد صـلاته ليلاقى المجتمع بقلب سليم نقى طاهر فتترطب العلاقات ويســود التعـاون وحين يقف الانسان في صلاته ، الأسود مع الابيض والصغير مع الكبير انما يأخذ درسا عمليا فى المساواة ٠ وحينما يقف في صفوف لا فرج بينها ولا اعوجاج انما يتعود النظام ٠ ويتلقى درسا فى الطاعـة حين يتبع الامام فى القيام والركوع والسجود والقعود ، وهو يرده الامام ليصلح له الخطأ أو لا يقف وراءه حين يزيد ركعة انما يبين واجب الفرد فى محاسبة الحاكم وحدود عدم طاعته ، وصلاة الجماعة وفضلها عنوان وحدة الأمة والحفاظ على كيانها ٠

يقول اقبال :« وتعيين مواقيت الصلاة فى كل يوم ـ تلك الصلاة التى يرى القرآن أنها سكن للنفس يحقق بها الانسان ضبط قياده وامتلاكه زمام نفسه ، بالتقريب بينها وبين المصدر الأول للوجود ، والحرية ـ قد أريد بهذا اليقين تخليص النفس من آثار الآلية الموجودة في النوم والعمل ، فالصلاة فى الاسلام خلاص للنفس ينقذها من الآلية الى الحرية »(٢) ٠

والزكاة عبادة يتقرب بها الانسان الى الله يخرج من ماله صدقة لوجه الله عز وجل ، القصد منها في المجتمع هـو كفـاية المحتاج والمحروم ـ هذه العبادة يقصد منها تنظيم اجتماعى فهى عبادة من جانب ومعاملة من جانب آخر ٠

والصيام عبادة الا أنه قوة تربوية تعلم الانسان كيف يتحكم فى شهواته فتتقدم للمجتمع أفرادا يستطيعون أن يضبطوا شهواتهم لا أناسا مدفوعين بشهواتهم فلا يكون بينهم الا الاحتكاكات والصراع على حطام الدنيا ٠ هذا المعنى التربوى يشترك فيه المسلمون عامة

(١) سورة المنافقون ٠ آية ٨

(٢) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، ص ٩٦

غنيهم وفقيرهم • وحين يحس الغنى بألم الجوع ويعلم قوة الحرمان ترق نفسه للبذل والعطاء • فالصيام عبادة • الا أنها أيضا لهـا هدف اجتماعى • والصيام علاج لاضطرابات الأمعاء المزمنة وزيادة الوزن والبول السكرى والتهاب الكلى وأمراض القلب والتهـاب المفاصل المزمن •

والحج عبادة يقوم بها الانسان ابتغاء وجه الله الا أنها لها أثر فعال على التنظيم الاجتماعى فاجتماع المسلمين فى مكان واحد ونحو وجهة واحدة تذكير بوحدة الهدف ووحدة الأصل • وتجردهم فى لباس واحد وتوجههم وجهة واحدة ودعاؤهم بدعاء واحد رمز للأخوة الانسانية عامة كما أنه مؤتمر سياسى وثقافى واجتماعى تتبادل فيه وجهات النظر وتبحث فيه المسائل الاجتماعية وتعقد فيه الصفقات التجارية • يقول الله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين »(١) •

وفى الوضوء نجد أن غسل الوجـه خمس مرات يقى العين الرمد وكذلك الاستنشاق يمنع الزكام كما يقى السواك الأسنان من التلف • وقد ثبت طبيا أن الجسم يفقد حيويته بالاتصال الجنسى والاستحمام يعطيه نشاطا وهذا الهـدف الطبى نراه أيضـا فى الاستنجاء وطهارة الثوب وغسل اليد بعد الاستيقاظ وقبل الأكل وبعده وتقليم الأظافر •• الخ •

ولقد نهى الاسلام عن الغلو فى العبادة الذى يورث الحرج • يقول الله تعـالى : « قـل يا أهـل الـكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق »(٢) • ويقول تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم »(٣) • ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الدين يسر ولن يشاد الدين

(١) سورة البقرة • آية ١٩٨

(٢) سورة المائدة • آية ٧٧

(٣) سورة التغابن • آية ١٦

أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة »(١) • ويقول « سددوا وقاربوا واعلموا انه لن ينجو أحد منكم بعمله • قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ • قال : ولا أنا الا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل »(٢) •

وعن أنس رضى الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبى صلى الله عليه وسلم فلما أخبروه كانوا تقالوها وقالوا : أين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر • قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا ، وقال آخر : وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا • فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا •• أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »(٣) •

فالاسلام لا يقصر معنى العبادة على النسك فكل سعى فى الدنيا ما دام فى سبيل الله فهو عبادة • عن أنس قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فمنا الصائم ومنا المفطر ــ قال : فنزلنا منزلا فى يوم حار ، فسقط الصوام اعياء وقام المفطرون وضربوا الأبنية وسقوا الركاب • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله »(٤) •

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وفى بضع أحدكم لأجرا ، قالوا : يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ثم يكون عليها أجر • قال : أرأيتم لو وضعها فى جرام أكان عليه وزر ؟ قالوا : نعم • قال : فاذا وضعها فى حلال فله عليها أجر »(٥) •

(١) رواه البخارى •
(٢) رواه الشيخان والنسائى •
(٣) أخرجه الستة •
(٤) رواه مسلم •
(٥) رواه مسلم •

فالعبادة معنى شامل يشمل كل جوانب الحياة التى تكون فى سبيل الله ، وما النسك الا محطات يقف عندها الانسان ليلتقط أنفاسه ويضبط بوصلته فى رحلته التى يقوم بها عبر الدنيا ، ولا معنى اذن لنسك لا يصلح العمل ولا لعمل لا يقصد به العبادة . نبين ذلك فى سورة الجمعة حيث يبين القرآن الوحدة بين الشعائر والحياة والصلة الوثيقة بينهما فى حياة الانسان « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » . فهو الأمر بالصلاة فى وقتها للتزود بزاد التقوى وهو الأمر بالانتشار فى الأرض وعمارتها وتحديد وقت لكل ، لا يفوت قضاء أحدهما وانما يزاوج بينهما فى وحدة واحدة لخير الانسان .

والحياة لذلك ليست عبادة رهبانية يترك فيها الانسان الدنيا، ولا هى غاية قاصرة على الدنيا ولكن وسط يتحرك الانسان فيه لا ينسى نصيبه الحلال من الدنيا وهو يبتغى الآخرة لا افراط ولا تفريط .

٦ ـ الفرد والمجتمع

ولقد عانت الانسانية الكثير من نوعين من الفلسفات ـ الأولى ، هى التى تقدم مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة ، والثانية ، هى التى تقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، وانتهت الأولى كما رأينا الى طغيان الفرد على الجماعة ، وتسخير الجماعة لمصلحة الفرد ، وانتهت الثانية الى ذوبان الفرد فى الجماعة واعتباره مجرد كم يضاف الى المجموع ، هذا الذوبان لشخصية الفرد أدى الى تجريده من الحقوق واعتبار مصلحة الفرد أمرا ثانويا بجانب مصلحة المجتمع وحريته ، ولعل تجربة الفرد فى روسيا أبلغ دليل على ذلك حيث بذل ثمنا فادحا فى سبيل الطفرة التى تبغيها روسيا مضحيا براحته

وحريته وسعادته ·

ومن جهة أخرى نلاحظ أن مدى تأثر الأفراد بمجتمعهم ، هذا المجتمع الذى ينمو فيه الفرد متأثرا به ومؤثرا فيه · كيف يعيش تاجر أمين فى سوق تسوده الخيانة ، وكم يعانى من ضبط نفسه والاحتفاظ بخلقه من يعيش فى مجتمع تسوده الرذيلة ، لهذا كان لا بد من مجتمع نظيف لينمو الانسان النظيف ونحتاج الى انسان نظيف لينمو المجتمع النظيف ·

ومن هنا يوازن الاسلام بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة فيعطى الفرد بالقدر الذى لا يطغى به على الجماعة ويعطى الجماعة بالقدر الذى لا تطغى به على الفرد ·

ان الفرد مسئول عن عمله مسئولية فردية · يقول الله تعالى : « ولا تزر وازرة وزرة أخرى »(١) ، « كل نفس بما كسبت رهينة »(٢) ، « لا تجزى نفس عن نفس شيئا »(٣) ·

ولكنه مسئول مسئولية جماعية أيضا · يقول الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »(٤) · لهذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض على كل فرد · ويأثم الجميع ان لم تقم الأمة بفرض الكفاية كالجهاد والتعليم والعمران ·

وهذا هو السبب في أن التكليف موجه للجماعة فى كثير من الأمور · يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء »(٥) ، « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار »(٦) ، « وأمرهم شورى بينهم »(٧) · ويظهر ذلك جليا فى

(١) سورة فاطر · آية ١٨
(٢) سورة المدثر · آية ٣٨
(٣) سورة البقرة · آية ١٢٣
(٤) سورة الأنفال · آية ٢٥
(٥) سورة الممتحنة · آية ١
(٦) سورة التوبة · آية ١٢٣
(٧) سورة الشورى · آية ٣٨

فهم عقوبة القصاص • « ولكم فى القصاص حياة يا اولى الألباب »(١) • لأن القصاص من الفرد حياة للمجتمع •

واذا أخذنا مسألة اجتماعية كالملكية مثلا من وجهة النظر هذه لوجدنا فى تشريع الاسلام هذه الوسطية واضحة جلية • فالملكية الفردية محترمة مصونة لكل انسان لأنها استجابة لغريزة فطرية فيه • « وانه لحب الخير لشديد »(٢) • ومن هنا أحيطت بالضمانات التشريعية فلا يحل مال امرىء مسلم فيما بعد الفروض والضروريات •• الا بطيبة من نفسه ـ هذه الضمانات أدت الى تشدد بعض الفقهاء بالقول ان ليس فى المال حق سوى الزكاة حتى رفضوا بتاتا العقوبة بالمال • الا أن ميزان الوسطية فى الاسلام يرشدنا الى حقيقة مقاصد الشارع في هذه المسألة الهامة فالله سبحانه وتعالى يقول : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »(٣) • فالمال مال الله لم يخلقه الانسان وان أضاف اليه منافع بتغيير الشكل أو النقل من مكان الى مكان آخر أو من زمان الى زمان غيره • فالملكية لذلك هى ملكية استخلاف لأن القاعدة الأصولية تنص أن ما أضيف الى الله فهو للجماعة • فالملكية أصلا ملكية الجماعة والفرد مستخلف فيها • فاذا تعارضت مصلحة الجماعة مع مصلحة الفرد قدمت مصلحة الجماعة فمثلا المحتكر أو المرابى لا يستطيع أن يتمسك بقاعدة الملكية • وهو يضر المجتمع ولهذا يضرب على يديه وتقييد حريته وزاوية أخرى ، نفرض أن حصلت مجاعة فهل يترك انسان يمتلك أكثر من حاجته وجيرانه يموتون جوعا باسم احترام الملكية الفردية ؟ لهذا قرر الفقهاء قاعدة : « اذا احتاج المسلمون فلا مال لأحد » •

وفى هذا الوسط يتحدد دور الدولة فى التوجيه فهو التوجيه

(١) سورة البقرة • آية ١٧٩

(٢) سورة العاديات • آية ٨

(٣) سورة النور • آية ٣٣

الذى لا يقضى على حرية الأفراد ويمنع الاضرار بالجماعة فى آن • انه دور الوسط الذى يسلم به الناس للحق الذى أنزله الله •

ولهذا نرى أن العلاقة بين الفرد والمجتمع فى الأمة المسلمة هى علاقة التعاون لا الصراع • « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »(١) ، « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أوليـــاء بعض »(٢) ، « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم »(٣) • لأنها العلاقة المثلى الوسط التى لا تطغى فيها الجماعة على الفرد ولا يطغى فيه الفرد على الجماعة •

٧ ـ السلبية والايجابية

السلبية والايجابية ظاهرتان عامتان ، فالذرة تتكون من سالب وموجب والجنين من التقاء البويضة الأنثوية والحيوان المنوى • ولكل من السالب والموجب طريقه الخاص الذى يسير فيه فالبويضة تسير مع التيار والحيوان المنوى يسير ضـده ، وفى طبيعته القـدرة على المغالبة والالتحام وكذلك نجد فى الذرة أن حركة البروتون تختلف تماما عن حركة الالكترون وكلاهما يؤدى دوره فى الذرة من حيث تكوينها وحركتها •

وتتفاوت درجة الايجابية والسلبية بين الرجـل والمرأة وان وجدا معا • فالايجابية والسلبية يختلف تقديرها فى المرأة عنه فى الرجل ، فنجد المرأة لديها فضائل سلبية هى رذائل عند الرجل • لنأخذ مثلا قضية العمل ، فانه فضيلة ايجابية الا أن عمل المرأة فى المنزل وعمل الرجل فى المصنع • هذا الاختلاف ينجم عن طبيعـة الاختلاف الأساسى فى التكوين الجسمانى فطبيعة الارادة عند الرجل تغلب على سلبية العاطفة وان كانت لا تمنعها • ولهذا كان « الرجال قوامون على النساء »(٤) • والانسان فى طبعه ميل الى السلبية وميل

(١) سورة المائدة • آية ٢
(٢) سورة التوبة • آية ٧١
(٣) سورة الفتح • آية ٢٩
(٤) سورة النساء • آية ٣٤

الى الايجابية فقد يكون سلبيا تستذله شهوته فينقاد فى تيارها لا يقاوم ، وكما يستذل للشهوة يستذل للمادة ويستذل للسلطان ويصبح كما سالبا يوجه ولا يوجه ترسم له التعليمات فينفذها ولا يفكر يوما فى اختبارها ليرى مدى صلاحيتها أو فسادها .

وقد تغلب عليه الايجابية فينحرف فى تبجح وعناد واصرار فى فعل السيء من الأمور فيطغى ولا يعرف الا « أنا » فيمتلىء غرورا وظلما ويتباهى بالشر ويتنافس فيه .

فلكل من الغرائز السلبية والايجابية مجالا لو افرط فيه كان طغيانا أو فرط فيه كان خسرانا .

لنأخذ مثلا على ذلك من مجتمعين الأول مجتمع خضع طويلا للسيطرة الأجنبية والاستبداد فنرى الانسان يتصف فيه بالتردد والضعف والسلبية والاستكانة والتواكل والانعزال والانانية .

ثم نموذج المجتمع المشاعى حيث يقضى على الايجابية بالاباحية التى يفرضها الايمان بالمادية وحينئذ لن يحس الفرد بمسئوليته ويبقى المجتمع مفككا لا يحس الأفراد فيه بأى دافع للواجب .

ومجتمع آخر على النقيض كالشعب النازى فى حكم هتلر حيث يظهر الافتتان بالقوة الذى يصل الى التهور ويفنى الفرد فى سبيل اشباع أغراض السلطة التى تسعى اليه أمته .

والاسلام يربى النفس الانسانية على الخضوع لله وخفض الجناح للمؤمنين وعلى الايجابية الكاملة فى الحياة وكفاح الشر .

والخضوع لله الخالق المنعم القادر العزيز لأنه وهب للانسان وجوده ومواهبه وسخرله ما فى السموات والأرض ولأن الانسان محتاج اليه فى كل لحظة .. هذا الخضوع يؤدى الى ايجابية ضرورية . ان الانسان لا يملك لغيره نفعا ولا ضرا والحياة والرزق بيد الله ومن ثم فلا يخاف أحدا على حياته ولا على رزقه ومن

ثم يقوى فى نفسه الاحساس بالعزة والشعور بالمساواة والحرية ٠

وازاء المؤمنين يكون بخفض جناح الذل لهم فلا يتعالى عليهم وهو معهم كالجسد الواحد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ٠ فيعفو عن مسيئهم ويجبر ضعيفهم ويعود مريضهم وينفق على فقيرهم (رحماء بينهم)(١) ٠

ولكن هذا الخضوع يؤيده ايجابية الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠ يقول تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »(٢) ٠ فهو يصدهم عن الشر بكل طريق ويدعوهم الى السنة الحسنة ما وسعه ذلك ٠

هذه الايجابية أمام الشر يربى عليها المسلم ليمنع الظلم ويعلى كلمة الحق ويملأ الدنيا أملا وسلاما ٠ ومن هنا كان ثواب المجاهد في سبيل الله كبيرا وكان الجهاد هو رهبانية الأمة المسلمة ٠

أنظر الى شخص سلبى تهون عليه نفسه ويسيطر عليه الجبن والكسل وانظر الى شخص ايجابى يعتدى على الناس ويظلمهم ثم أنظر الى الوسط بين ذلك فى خفض الجناح للمؤمنين وفى جهاد الكافرين الظالمين ٠ وتصور لنا الآيات القرآنية هذه الصور الثلاث : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم : قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا »(٣) ٠ « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين ٠٠ »(٤) ٠ والنموذج الوسط في ذى القرنين قال « أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن

(١) سورة الفتح ٠ آية ٢٩
(٢) سورة آل عمران ٠ آية ١٠٤
(٣) سورة النساء ٠ آية ٩٧
(٤) سورة القصص ٠ آية ٧٦

وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا »(١) ٠

فليست هى سلبية الضعف والبعد عن الناس والذل ولا ايجابية التعالى والكبر أى التفريط والافراط انما هى الوسط سلبية الرحمة وايجابية الخير ٠

ودعوة الاسلام الى عمارة الكون ايجابية بالضرب فى الأرض والتمتع بطيبات الحياة الدنيا التىسخرها الله للانسان « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله »(٢) ٠ الا أنها مرتبطة بسلبية الزهد وعدم تعلق القلب بالدنيا يربطها بالآخرة « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منه وما له فى الآخرة من نصيب »(٣) ٠

والتملك فضيلة ايجابية تدفع لزيادة الانتاج ولكن زيادته عن حده يؤدى الى الطغيان ومن ثم قيده بسلبية أخذ العفو من الأغنياء (خذ العفو)(٤) ٠ والانفاق اتجاه ايجابى قد يؤدى الى افقار صاحبه لذلك قيده الاسلام بسلبية الأمر بالابقاء على ما يقيم حياته في يسر ٠ والرغبة فى القتال فضيلة للدفاع عن النفس ولكن استخدام القتال للعدوان افراط يرد الى الرذيلة ولهذا قيده بسلبية الموادعة ٠ (وان جنحو للسلم فاجنح لها)(٥) ٠ والسلام سلبية مطلوبة ليعيش الناس فى أمن ولكن الافراط فى الدعوة اليه بحيث تضيع الحقوق ويستشرى الظلم رذيلة أى رذيلة فقيده بايجابية القتال عند الظلم فلا سلبية تشجع على العدوان ولا ايجابية تؤدى الى الظلم ٠

وفى هذا يصف القرآن المؤمنين :

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله

(١) سورة الكهف ٠ آية ٨٧ ، ٨٨

(٢) سورة الجمعة ٠ آية ١٠

(٣) سورة الشورى ٠ آية ٢٠

(٤) سورة الأعراف ٠ آية ١٩٩

(٥) سورة الأنفال ٠ آية ٦١

بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »(١) ٠ « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون ، وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم »(٢) ٠ « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »(٣) ٠ « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »(٤) ٠ « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان انكر الأصوات لصوت الحمير »(٥) ٠ « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »(٦) ٠

فالاسلام يتبادل هاتين النقطتين كما هو شأنه فيضع لكل منها حركته الوسط التي تنطلق معها الحياة في قوة وسلام وخير ٠

---

(١) سورة المائدة ٠ آية ٥٤
(٢) سورة الأنفال ٠ آية ٦٠ ، ٦١
(٣) سورة الفرقان ٠ آية ٦٦
(٤) سورة الفرقان ٠ آية ٦٧
(٥) سورة لقمان ٠ آية ١٨ ، ١٩
(٦) سورة الاسراء ٠ آية ٢٩

المبحث الثالث

نماذج وسطية

الدارس للتاريخ الانسانى يجد أنه فىحركته يسير من النقيض الى النقيض فى افراط أو تفريط كالذى يتخبطه الشيطان من المس ٠ هذا التخبط واضح وضوحا تاما فى كل نواحى الحياة سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية ٠ والأصل فى هذا البلاء اعتماد الناس على عقولهم فى رسم منهاج الحياة ٠ فلا يكون فكره الا ظنا ولا يكون اتجاهه الا هوى « وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم »(١) ٠

١ ـ الوسط الاجتماعى :

هذا الضعف الانسانى يظهر على أتم افراطه وتفريطه فى المسألة الاجتماعية ٠

ففريق مال الى جانب الأخلاق والروحانية ، وغلا فيه الى أن جعل العلاقة الجنسية بين الصنفين فى ذاتها شيئا يعاب ويزدرى ٠ وهذا الانحراف عن القصد تجده فى ديانة (بوذا) والنصرانية وفى بعض الديانات الهندكية ٠ ومن تأثيره ما يوجد فى جزء كبير من هذا العالم من اعتقاد العلاقة الجنسية بذاتها اثم ، سواء كانت فى دائرة الزواج أو خارجها ٠ فماذا كانت نتيجته ؟ ٠ كانت النتيجة أن جعلت حياة الرهبنة المنعزلة غير المتمدينة غاية الأخلاق ومقصود التزكية النفسية ٠٠

وفريق على عكس ذلك ، راعى للانسان دواعيه الجسدية ، وغلا فيها غلوا جعله يتعدى مقتضيات الطبع الحيوانى فضلا عن الطبع الانسانى وقد اتضح هذا الافراط فى التمدن الغربى وضوحا لا يمكن معه ستره ، مهما حاول المحاولون ٠ فالزنى ليس بجريمة فى

(١) سورة النجم ٠ آية ٢٨ ـ ٣٠

قانونه ، وانما الجريمة هي ما كان معه اكراه أو تدخل في حق شرعي لشخص آخر .. فانحرف بذلك عن فطرته الانسانية فاسترسل في العلاقة الجنسية المطلقة كالتي تكون في الحيوانات ، ولا يمكن أن تكون أساسا لتمدنه .

وفي تقدير الأسرة نجد قوما نظموها بقيود وحدود جعلت فردا من أفرادها كالأسير المغلول ولم يراعو الموازنة بين الحقوق والواجبات . ومن أمثلة ذلك البارزة : نظام الأسرة الهندكية الذي لا حرية فيه للمرأة في ارادتها أو عملها ولا حق لها في التمدن والمعاش . ولكن هذا النظام بما حط وصغر من شأن النصف الكامل من جماعة الانسان قد أقام في سبيل نهوضه وارتقائه عقبة جسيمة ومفسدة هائلة ، عادالهنادك بأنفسهم يحسون بسوء عواقبها ومضارها .

وجماعة اخرى قاموا لرفع مكانة المرأة ومنها الحرية في الارادة والعمل فتغالوا في ذلك الى أن أفسدوا نظام الأسرة ، فعادت الزوجة حرة مختارة والبنت مطلقة العنان والابن مخلى له في الرهان ، والعائلة كالقطيع الشارد « لا راع يذود ولا حظيرة تؤوى »(١) .

فاذا انتقلنا الى مسألة الطلاق نجد الترددبين هذين الطرفين من افراط وتفريط ، فالمسيحيون قيدوا الطلاق ومنعوه منعا باتا والشيوعية أباحت الطلاق كما رأينا دون قيد أو شرط .

وكانت النتيجة أن رأينا هذا العنت ينعكس بشدة على الصورة الاجتماعية في الطرف الأول حيث المنع بأن تصبح الحياة الزوجية جحيما لا يطاق تنتشر الآفات الخلقية حتى أصبح من المعتاد أن يكون للزوج خليلة وللزوجة خليل .

وفي الطرف الآخر شاهدنا كيف أصبحت الحياة الزوجية ألعوبة فتناقص عدد السكان في روسيا وانتشرت الأمراض السرية

(١) الحجاب ابو الأعلى المودودى . ص ٢٤٦ . ٢٥٠

وحالات الاجهاض وتحلل المجتمع حتى اضطر الروس الى تقييد الطلاق بصورة كالكاثوليكية وأشد ٠

وفي هذا العالم المتخبط بين الافراط والتفريط يوجد منهج واحد مراعى فيه كل نواحى الفطرة الانسانية لأنه مستند على المعرفة التفصيلية للوجود والتاريخ ٠

هذا المنهج الوسط بكل معانى الوسط من تناسق وتوازن واعتدال هو وحده الذى يستطيع أن يصلح حال الناس ويحقق لهم الخير ٠

فلقد خلق الله الوجود على أساس الزوجية « ومن كل شىء خلقنا زوجين »(١) ٠ وبهذا كانت الزوجية أصل للحياة النظيفة المحترمة وهى ضرورية لانتظام الحياة ذاتها ٠٠ والانسان ينفرد عن الحيوان بأن له من الزوجية مقصدا أنبل فهى ليست علاقة الشهوة فحسب بل أيضا علاقة الأنس والمحبة « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة »(٢) ٠

وعلى أساس هذا التفسير نجد أن الذكر والأنثى سواء أمام الله والناس « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »(٣) ٠ الا أن لكل من الذكر والأنثى العمل الذى يتناسب مع تكوينه الحيوى والنفسى ، فالرجل للعمل والكسب ، والمرأة للنسل والتربية ٠

والأسرة لذلك ضرورة فطرية يحيطها الاسلام بالرعاية فيحرم الزنا وينظم قواعد النكاح وحدود الطلاق والميراث ٠٠٠ الخ ٠

ولما كان لا بد للأسرة من قوامة وكان الرجل هو المنفق وهو الأقوى كان لا بد أن تكون له القوامة فى حدود يرسمها له الشرع « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما

(١) سورة الذاريات ٠ آية ٤٩

(٢) سورة الروم ٠ آية ٢٦

(٣) سورة النحل ٠ آية ٩٧

أنفقوا من أموالهم »(١) • ولأنه هو المنفق كان فى الميراث ضعف الأنثى التى ليست عليهـــا واجب النفقـــة « للذكر مثـل حـظ الأنثيين »(٢) •

وقد جعل الاسلام للمرأة حق اختيار زوجها وخول لها الحق فى طلب الخلع والفسخ والتفريق وأمر الرجل بالتزام السماحة والمعاملة الحسنة فى استعماله السلطـة التى خولهـا اله على المرأة وسوى بينهما فى القوانين المدنية والجنائية تماما •

وتظهر وسطية الاسلام في مسالة الطلاق ، فالاسلام لا يمنع الطلاق ولكنه يعتبره أبغض الحلال • ويضع لذلك القواعد لاصلاح الحياة الزوجية من تحسين الأخلاق الى تحديد الحقـوق والواجبات والدعوة الى الصلح والتراضى واعطاء مهلة بعد الافتراق حتى تضيع حمية الغضب « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فان فاءوا فان الله غفور رحيم وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر • وبعولتهن أحق بردهن في ذلـك ان أرادوا اصـلاحا ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ، الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » (٣) •

ويدعو القرآن الى الصلح وفض النزاع قبل الشروع في الطلاق « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا »(٤) وفى حالة نشوز الزوج يقول تعالى : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزا

(١) سورة النساء • آية ٣٤

(٢) سورة النساء • آية ١١

(٣) سورة البقرة ٢٢٦ ـ ٢٢٩

(٤) سورة النساء • آية ٣٥

أو اعراضا فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا ، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما »(١) . وفي حالة نشوز الزوجة يقول تعالى : « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا بهن سبيلا ان الله كان عليا كبيرا »(٢) .

ان لم يفلح هذا كله فان الزواج لا يصبح الا نارا حامية يتلظى فيها الزوجان وتصبح أضراره شديدة ويتعذر علاجه ، وهنا يبيح الاسلام الطلاق « وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما »(٣) .

ويحدد أبو زهرة مسلك الشريعة بالنسبة للتعدد بقوله : (وهي وسط بالنسبة للشرائع فمنها ما أباح التعدد من غير قيد في العدد ولا قيد في الزواج ، ومنها ما منع التعددمنعا مطلقا . وكانت الشريعة الاسلامية بين ذلك قواما .

أ ـ ولا شك أن ذلك المسلك هو مسلك الشريعة التي تخاطب المعتدل المزاج المعتدل في شهواته وتخاطب الحاد المفرط في شهواته، ولذلك وجب أن يكون فيها من السعة والمرونة ما يرضى المعتدل ، وما يهذب المفرط من غير أن يضيق القيد فينخلع من ربقته ، انه لا ريب الاقتصار على واحدة هو الزواج الأمثل في الجملة وهو البعيد عن نطاق الظلم ، ولكن لا يرضى به الا أمثل الرجال ، فهل الناس جميعا على هذا الطراز ، واننا لو اغلقنا على ذوي الشهوات الحادة باب الزواج ، لفتحوا لأنفسهم باب الفساد ، فتهتك الستور ويكون

(١) سورة النساء . آية ١٢٨ ـ ١٢٩
(٣) سورة النساء . آية ٣٤
(٢) سورة النساء . آية ١٣٠

الأولاد الذين لا آباء لهم ، ولو خيرنا بين زواج معيب وبين الزنا لاخترنا الأول ، ان كنا نسير على هدى العقل ونوره ٠

ب ـ وقد يكون التعدد علاجا اجتماعيا لنقص يعرض للأمة فى رجالها فقد يقل عدد الرجال الصالحين للانسال فى بعض الأمم بسبب الحروب ٠ ولقد ذكر بعض الثقات العالمة بالاحصاء أنه بعد الحرب العالمية الأولى وجد فى بعض الأمم الأوروبية أن الرجال الصالحين للزواج قل عددهم حتى صار كل رجل قادر يعادل فى التعداد ثلاث نساء صالحات للزواج ، ففى هذه الحالة يكون التعدد مطلوبا ، ليصون المرأة من الدنس وليكثر النسل وتنمو الأمة وتعوض ما فقدت وقد زادت نسبة النساء الصالحات بالنسبة للقادرين من الرجال فى ألمانيا بعد الحرب الأخيرة زيادة فاحشة حتى تنادى بعض المصلحين فيها بإباحة التعدد ٠

جـ ـ وليس التعدد شرا على المرأة دائما فقد تكون المرأة فى حال تستوجب أن يتزوج أخرى لمرضها ، أو عقمها ، فيكون الزوج أمام أمرين ، الفراق أو الزواج ، والثانى بلا شك فى مصلحتها فوق مافيه من عدالة فى ذاته »(١) ٠

ولتحقيق العدالة اشترط الشارع مع هذا التعدد شرطان :

١ ـ العدالة فى المعاملة ٠

٢ ـ القدرة على الانفاق من قوله تعالى : « وان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا »(٢) ، أما العدالة القلبية فقد قال تعالى فيها : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل ، فتذروها كالمعلقة »(٣) ٠

٢ ـ الوسط السياسى :

ونموذج من النظام السياسى نجد فيه التاريخ الانسانى

(١) الأحوال الشخصية (قسم الزواج) محمد أبو زهرة ص ٨٧ ، ٨٨

(٢) سورة النساء ٠ آية ٣

(٣) سورة النساء ٠ آية ١٢٩

يتخبط بين الطرفين الافراط والتفريط ·
فلقد سجلت الديمقراطية أكبر فشل لها فى دول الغرب · فالديمقراطية هناك تقوم على أساس النظام النيابى · والنظام النيابى يقوم على أساس حزبى ــ كل حزب يسعى الى اسقاط الحزب الآخر حتى يصل الى الحكم · ومن ثم يهاجم الحزب المعارض كل ما يعمله الحزب الحاكم سواء كان صالحا أو طالحا · فتتعثر مصالح الأمة أمام عقبات الجدل والتنازع والخصام وسوء القصد ، وتصبح أمور الأمة غير مستقرة لأن النزاع المستمر والمؤامرات التى لا تنفض تؤدى الى اسقاط الحكومات وصعوبة استقرارها فتنتهى الى فوضى الحكم وصعوبة السيطرة السياسية وضعف التنمية الاقتصادية ·
ومن جهة أخرى نجد أن هذا النظام الحزبى يضر ضررا بالغا بمصلحة الأمة لأن النائب يبحث له عن مؤيدين لينجح · وحينما ينجح لا يخدم غير مؤيديه بل ويضطهد معارضيه ·
ثم انه جريا وراء مصالح مؤيديه يتصل بالوزير المختص ليقضى المصالح المشروعة وغير المشروعة وهذا يؤدى الى القضاء على قدرته على نقد ذلك الوزير الذى خدمه وهكذا تتعطل الرقابة الدستورية ·

وفى النظام الحزبى يتجه النواب الى تأييد المشروعات الأكثر شعبية لا الأكثر صلاحية ولا يعنيهم الفائدة الحقيقية التى تعود على المجتمع منها وانما يعنيهم اهتمامهم بارضاء الناخبين · وهكذا يجانبون الحقيقة والخير اذا تعارضت مع رغبات الناخبين لأنهم يعلمون أن بقاءهم مرتبط بخداع الناخبين وتملقهم · والجماهير تتحرك بعواطفها ولا تتوفر لها الدراسة الكاملة للقضايا مما يجعل احتمال خطئها فى التقدير كبيرا ·
وفى هذا النظام الحزبى تعتمد الأحزاب على اثارة الجماهير لمصلحتها · والجماهير عاطفية بطبيعتها ولا يتيسر لها الوقت للدراسة

الموضوعية للمشاكل التى تحيط بها • وهى حين تندفع لا تتوقف ، فليس عندها فرق بين الهدم والبناء أو الحب والكره • وانما تحركها الاثارات وتؤثر فيها الدعايات وتكرار الشعارات وتأكيدها • انها تفكر بغريزتها لا بعقلها ، بهذا كان تفكيرها بدائيا للغاية • وهذا هو الذى يعطى رجال الأحزاب المجال لتضليلها تحت ستار المصلحة العامة •

وأخيرا فان الديمقراطية السياسية الحديثة اقتصرت على الحرية السياسية فحسب ولم تحرر الفرد اقتصاديا • فماذا كانت النتيجة؟ اضحت الأموال دولة بين الأغنياء ، وصار الطريق مفتوحا امام الأغنياء للسيطرة على الحكم ، والجماهير مشدودة الى المادة التى تحتاجها للضرورة • وبالمال استطاعوا شراء الأصوات وافساد الذمم • وبقيت الحرية السياسية مظهرا خادعا يخفى وراءه أسوأ ألوان العبودية •

وفساد الديمقراطية هذا أدى الى ظهور نقيضها وهى الدكتاتورية • فتحت وطأة الفوضى التى سببتها الديمقراطية وتعطل المشاريع الاقتصادية وانتشار الفقر وسوء التغذية برزت الدكتاتورية لقدرتها على حسم المشاكل • ان الدكتاتورية تستطيع انقاذ المواطنين فى لحظة بينما كانت تتعطل السنين فى مناقشات كما انها تنفذ ما يحلو لها دون تقيد برأى •

الا أن هذه الدكتاتورية تصبح خطرا للغاية ، لأن سيطرتها التامة تؤدى الى الطغيان •• ثم ان تعطيل الشورى يؤدى الى سقطات حادة تهز الأمة من أعماقها • حقا ان الدكتاتورية تبنى بسرعة ولكنها تهدم بنفس السرعة • ولما كان السلطان المطلق طغيانا مطلقا فانه يؤدى الى الكبت والظلم والضغط الذى يقتل فى الناس القدرة الخلاقة وفقدان الاحساس بالمسئولية والخنوع • ولعل تجربة روسيا الاستالينية وألمانيا الهتلرية وايطاليا الفاشية أبلغ دليل •

هذا هو التاريخ المعاصر يقص الفشل فى النظام السياسى

فافراط فى الحريات الديمقراطية أدى الى افساد الحكم وتفريط فيها بالدكتاتورية أدى الى الارهاق والذل والخراب ٠

ان النظام الديمقراطى أساسه الشورى حقا ولكن فساد التطبيق وضعف المبادىء الأساسية المنظمة لها وخضوعها لأهواء البشر انتهى الى تسليط المحكومين على الحاكمين وتضليل الحاكمين للمحكومين ٠ وبينما النظام الدكتاتورى يقوم على الطاعة المطلقة من الحاكمين للمحكومين ، فان قصور العقل الانسانى وغروره انتهى بتسليط الحاكمين على المحكومين واندفاع دون روية للعواقب والاستبداد دون رحمة بالناس ٠

أما الاسلام فانه يقوم على الشورى بأمر من الله فى مرحلة الاستشارة ، فاذا كان التنفيذ فالسمع والطاعة ، فلا مجال لأهواء المحكومين ولا لتسلط الحاكمين على المحكومين ٠ ان الشورى واجبة فالله تعالى يقول « وشاورهم فى الأمر »(١) ٠ وهى ملزمة للحاكم كما توضح سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ٠ وذلك فيما لا نص فيه وفيما لا يعارض نصا ٠ ولكن أهل الشورى لهم شروط معينة تضمن عدم ضلالهم أو جهلهم فليست الشورى مطلقة لكل الجماهير من هذه الشروط العلم والعدالة ــ أى حسن الخلق والمروءة ــ وأن يكون ذا رأى وحكمة حتى يستفاد من مشورته ٠ ووراء أهل الشورى الأمة كلها مسئولة ان قصر أهل الشورى فى منع الظلم أو اقامة العدل، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض على المسلمين جميعا « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »(٢) ٠

وهنا يشترك الجمهور وأهل الشورى والامام فى المسئولية فى تكامل لا افراط فى الشورى يترك الحبل على الغارب لكل من يريدها، ولا تفريط فيها يترك الأمر للحاكم دون قيد ٠

(١) سورة آل عمران ٠ آية ١٥٩

(٢) سورة آل عمران ٠ آية ١٠٤

٣ ـ الوسط الاقتصادى :

ونموذج سريع من النظام الاقتصادى المقارن : نلاحظ كيف تتردد الانسانية حين تتبع مدركاتها الذاتية بين الافراط والتفريط وما يترتب عليه من شقاء وضلال لمجتمعاتهم • فمذهب الحرية الذى ساد العالم فى فترة مداها قرن ونصف قرن تقريبا • بدأ فى الناحية الاقتصادية بكتاب « آدم سميث » « ثروة الأمم ١٧٧٦ م » • وتقوم فلسفة هذه المدرسة على أن الانسان وهو يحقق كسبه الخاص انما يحقق مصلحة المجموع وهو مدفوع الى ذلك بيد خفية لتحقيق غاية أخرى لا يقصدها • فاهتمام الفرد بمصلحته الخاصة غالبا ما ينتهى لمصلحة المجتمع أكثر مما قصد الفرد ذلك • والسرور والألم هما الأهداف القصوى من حساب التفاضل فى الاقتصاد والوصول الى السرور كما يقول « جيفونز » هـو مشكلة الاقتصـاد • وقوانين الاقتصاد الخالدة هى قوانين السـوق التى يمـكن الكشف عنهـا بالتحليل لنظرية القيمة من الاسعار والدخول••ولم تعن هذه المدرسة بفكرة العدالة الاجتماعية كثيرا لأن قوانين التوزيع بناء على فلسفتها ليست قوانين اجتماعية ولا تنظيمية ولا تاريخية ، بل قوانين طبيعية تشبه قوانين عالم الطبيعة ! •

انتهت هذه المدرسة ـ لتركيزها على ناحية الحرية دون غيرها من الفضائل لقصور العقل الانسانى عن فهم الوسط الذى يوازن بين المبادىء الأساسيةالتى تنظم المجتمع المثالى ـ الى مجتمع ممزق متصارع متنافر • ولم تخدم هذه المدرسة الفكرية الا حفنة من رجال الأعمال فى شركة الهند الشرقية وغيرها كل هدفهم جمع الثروة على حساب الناس وظهر مع الزمن الوجه القبيح للرأسمالية حيث انقسم المجتمع الى فئتين مستغلين ومستغلين وأصبح مصـدر الدخـول من الربا والاحتكار هو أساس الغنى • كل ذلك باسم الحرية مما أدى الى ارتفاع الصرخات هنا وهناك •

وانتقل العقل الانسانى الى نقيض التفكير الأول فخرج ماركس ليركز اهتمامه فى اقتصاديات الجماعة فتناول نظرية القيمة ليثبت انها تؤدى الى الاستغلال لا الى العدالة لأن أساس نظرية القيمة هو كمية العمل المبذول فيها • لذلك كان كل دخل غيره هو سلب من العامل حقه •• سواء أكان هذا الدخل ربحا أم ريعا أم ربا • ونظر ماركس الى التاريخ الانسانى على أساس أنه سلسلة من الصراع المستمر بين الطبقات المستغلة والمستغلة •• وسبب هذا الصراع هو فائض القيمة الذى يستولى عليه صاحب رأس المال من العامل لملكية رأس المال • وهنا صب جام غضبه على الملكية الفردية وبشر الناس حين القضاء عليها بجنة ينعم فيها الجميع بالمساواة التامة يأخذ الانسان فيها كل حاجته ويبذل ذاتيا أقصى انتاجه •

ونفس الخطأ الذى أودى بحياة الرأسمالية لتركيزها على ناحية واحدة هى الحرية ، وقعت فيه الماركسية حين ركزت على المساواة دون التفات الى المبادىء الأساسية الأخرى التى لا يجور فيه مبدأ على آخر • لقد بنى هذا التحليل على أساس أن كل عائد غير العمل نهب تحت وطأة شرور الاحتكار والربا دون دراسة واقعية لمجتمع متوازن يسمح فيه بالملكية النظيفة غير المستغلة • وحين طبقت هذه النظرية لم تستطع أن تعيش الا بالقهر والارهاب ، لأنها هاجمت الفطرة الانسانية ودوافعها الأصيلة فى الملكية والتميز كحوافز للابتكار والانتاج مما أدى الى تحويل الجماهير الخاضعة لها الى مجموعة من العبيد لا يحركها الا الارهاب والخوف •

والاسلام بوسطيته يوازن كل هذه المبادىء دون افراط أو تفريط فبينما يحارب الربا والاحتكار والاستغلال فانه لا يمنع الدوافع الفطرية في التملك والتميز • ان اختلاف الأشياء هو سنة الكون • والذى أرق ذوى الضمائر ليس الفرق فى المتاع بين انسان وانسان وانما ضخامة هذا الفرق وليست الملكية رذيلة فى ذاتها وانما الرذيلة فى تحولها الى ملكية مستغلة • والمساواة الحسابية لن تنتهى بنا

الا الى مرحلة من الهمجية والتخلف وبينما الربح عائد لعمل مدخر نجد أن الربا الذى يتميز بالثبات فى عائده يتحول الى استغلال فى حالة الخسارة · الخير اذن فى وسط لا طغيان فيه ولا استغلال · وأيضا لا كسل فيه ولا تواكل · لهذا كان لكل فرد فى المجتمع حدود · حد أعلى مبنى على العدل « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »(١) · وحد أدنى مبنى على الحق تكفله الزكاة · « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »(٢) · والحد الأعلى للغنى والحد الأدنى للمعيشة يمثل وسطية الاسلام التى لا فقر فيها يورث الذل ولا غنى يدفع الى الطغيان وبين الحدين ينطلق المجتمع مبدعا ومنتجا بدوافعه الفطرية من تملك وتميز لا استغلال فيها ولا طغيان(٣) ·

هذه خلاصة موجزة جدا لوسطية الاسلام فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد · والمناقشة المقارنة تمتع قلب الانسان وعقله لأن الله تعالى شرع هذا النظام الوسط متناسقا مع فطرة الكون وفطرة الانسان · ونحب أن ننبه هنا الى أن الافراط والتفريط وهما يمثلان الانحراف عن الوسط ليست هى النقائض كما تصورها الماركسية ، لأن النقائض كما تدعيها الماركسية ظواهر مادية وحتمية تنتهى الى ظهور مركب آخر يبدأ معه النفى من جديد · الا أن الحقيقة كما عرضنا تثبت أن الاختلاف بين الأشياء والأحياء الغرض منه التزاوج والتكامل · وليس الصراع بين الناس الا استثناء على الأصل · ونرى لذلك أن ظواهر الافراط والتفريط هى عوارض قصور العقل الانسانى عن أن يرسم للانسان الحركة المنسجمة مع فطرته ومع الناس ومع الكون · وهى لذلك يسهل تجنبها باتباع

(١) سورة الحشر · آية ٧

(٢) سورة الذاريات · آية ١٩

(٣) هذا المبحث مستوفى فى كتابنا القادم « اقتصاديات الأمة المسلمة » ان شاء الله ·

صراط الله المستقيم الذى هدى اليه الله • وتصل بذلك الى أعلى قمة للرشد الانسانى وتكون شهادة حق على غيرها من الأمم التى تتخبط كالذى يتخبطه الشيطان من المس •

وصدق الله العظيم « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله ، وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم ، قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون** »(١) •

---

(١) سورة البقرة • آية ١٤٢ ـ ١٤٤

الفصل الثاني

أمة واحدة

امة واحــدة

تتعرض المدنية المعاصرة لخطر الفناء وألم الشــــقاق والصراع ونكتفى هنا بنقل مقتطفــات من أحد أبنائها حين يقول : وأول نقد يوجه الى الحضارة الحديثة هى أنها تفتقر الى الاتحاد كما أنها تفتقر الى التوازن والتناسب • ونحن نهتم بهذه الظاهرة لأنها قادرة على انهاء عهد التقدم العظيم الذى نعيش فيه بطريقة مؤسفة وفجائية •

الافتقار الى الاتحاد :

وقد لا يكون آلاتحاد أو الانسجــام هو الشيء الوحيد الذى تحتاجــه حضارتنا ولكنه بالتأكيــد أعظم ما تفتقر اليــه هـــذه الحضارة •

واذا نظــرنا الى حضـــارتنا من الناحيتـــين ـ الجغرافيـــة والاجتماعية ـ نجد أنها ليست الحضارة القويمة ، فنحن نجد داخل المجتمعات والهيئات على سطح الأرض الثروة والفقر والأميةوالتعليم والصحة والمرض جنبا الى جنب ، وهذا لا يرجع الى الظروف المادية بقدر ما يرجع الى الوظيفة التى تؤديها الحضارة •

وهناك دفاع عن التناقض والتصارع بين قيمنا باسم التنوع أو الاختلاف فى الرأى ، ونحن لا نعتقد فى صحة هذا الدفاع فأهم شيء فى علم الحضارة انه يكتشف سر الجمع بين الاتحاد وبين الحرية والتنوع ، ولابد من احترام التنوع أو الاختـــلاف فى الرأى ولابد من العمل على بقائه ونموه• أما التصارع فلا بد من التقليل منه ان لم نتمكن من القضاء عليه ، ولنكن شجعانا فلقد أظهر الاتحاد امكانيات واسعة للنمو بالرغم من وجود الضعف البادى والأخطار الرهيبة •

انعدام التناسب فى حضارتنا :

يشير تشخيصنا العام الثانى بأن التطور غير المتزن قد أدى الى زيادة تصارعنا أو على الأقل الى الوصول بنا الى تلمس الخطر المحيق

بنا بسبب هذا التصارع • فحالتنا الحضارية يمكن تشبيهها بعملاق لا تتناسب أعضاؤه فهو غير قادر على ايجاد صلة بينها فى العمل • فنحن قد تقدمنا حثيثا فى بعض النواحى ، بينما بعض النواحى الأخرى فى تقدم معيب ـ فمثلا نرى آن التقدم الداخلى للانسان يسير ببطىء جدا بينما تقدم الانسان الخارجى قد قطع شوطا طويلا، فهناك تقدم ميكانيكى كبير بينما يوجد تأخر فى العلوم الاجتماعية فالأدوات المادية قوية جدا بينما الأدوات الاجتماعية أو الطرق الاجتماعية غير مؤكدة على الاطلاق ونحن فى حاجة الى حضارة موحدة وأكثر توازنا ، حضارة نجد فيها المشاعر والأفكار الموحدة والتنظيم الجيد والمعرفة والتفاهم ، ولكن هل يمكن تحقيق هذا ؟(١)

(١) نحو علم السلام ـ ثيوليتز • عرض وتلخيص : احمد مختار الجمال • ص ١٤ ، ١٥ ، ١٦ •

المبحث الأول
منهج الوحدة

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « انا معاشر الأنبياء ديننا واحد »(١) • هذه الحقيقة تتضح في أن أصل كل دين يقوم على توحيد الله سبحانه وتعالى وكانت الراية التى رفعها كل نبى من أول آدم عليه السلام هى راية « لا اله الا الله » • ومن ثم كانت الأمة المسلمة امتدادا للأمم المسلمة من قبل • يقول الله تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل »(٢) ويقص القرآن قصة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك • »(٣) • ويوسف عليه السلام « توفني مسلما وألحقني بالصالحين »(٤) • وأصحاب عيسى عليه السلام « قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون »(٥) • وملكة سبأ « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »(٦) • ونوح عليه السلام « فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين »(٧) • وموسى عليه السلام « ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين »(٨) • ويصف الله تعالى أنبياء بنى اسرائيل • « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها

(١) متفق عليه بنحوه •
(٢) سورة الحج • آية ٧٨
(٣) سورة البقرة • آية ١٢٨
(٤) سورة يوسف • آية ١٠١
(٥) سورة المائدة • آية ١١١
(٦) سورة النمل • آية ٤٤
(٧) سورة يونس • آية ٧٢
(٨) سورة يونس • آية ٨٤

النبيون الذين أسلموا للذين هادوا »(١) • وفى وصف قوم لوط « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين »(٢) •

فالأمة المسلمة تمتد فى شعاب الزمان ترفع راية الحق بأمر الله تتفق فى أصولها وان اختلفت فى التفاصيل كأشكال العبادة أو وضع أغلال واصر على بنى اسرائيل • فبر الوالدين وصلة الرحم والوفاء بالعهود والعدل وتوفية الكيل والميزان واعطاء السائل والمحروم وتحريم قتل النفس بغير حق والفواحش والاثم والبغى بغير الحق أصل فى كل دين • يقول تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب »(٣) •

ولهذا يهدد القرآن من يفرق بين الرسل « ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا »(٤) •

ولقد كان المسيح عليه السلام مصدقا لشريعة التوراة مع بعض التعديلات الخفيفة لرفع بعض الاثقال التى فرضت عليهم فى صورة عقوبات تأديبية أو كفارات عن معاصى « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم »(٥) • « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك

(١) سورة المائدة • آية ٤٤
(٢) سورة الذاريات • آية ٣٦
(٣) سورة الشورى • آية ١٣
(٤) سورة النساء ١٥٠ ـ ١٥١
(٥) سورة آل عمران • آية ٥٠

جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون »(١) • وقد أقرت هـــذه الشريعة المعدلة لتكون نظاما للحكم والحيـــاة « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الانجيل بمـــا أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »(٢) •

ولقد دعا المسيح عليه السلام الى الصلة المباشرة بالله وكـــل ما نسب الى المسيحية بعد ذلك كان من عمل تابعيه • « ثم قفينـــا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبنـــاها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينـــا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاســقون »(٣) • قال أبو امامه فى تفسيرها وعليه أكثر علماء الأمة « لم نكتبها عليهم ولم يبتدعوهـــا الا ابتغاء رضوان الله فعابهم الله عز وجل بتركها فقال الله عز وجل « فما رعوها حق رعايتها »(٤) •

ولقد كانت أحكام التوراة ملزمة للمسيح عليه السلام لهـــذا يقول « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل ، فانى الحق أقول لكم الى أن تزول السماء والارض لا يزول حرف أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل »(٥) • فرسالة المسيح عليه السلام مكملة لرسالة ســــيدنا موسى عليـــه السلام • يقول السيوطى « التوراة أصل والانجيل فرع له •»(٨)

(١) سورة الأنعام • آية ١٤٦

(٢) سورة المائدة • آية ٤٦ ـ ٤٧

(٣) سورة الحديد آية ٢٧

(٤) الرعاية لحقوق الله • أبو عبد الله المحاسبى ص ٢٤

(٥) انجيل متى الاصحاح الخامس •

(٦) الاتقان فى علوم القرآن • السيوطى ص ١١٣

ولكن المسيحيين رغم اعترافهم بالتوراة وعدها من كتبهم المقدسة الا أنها انفصلت فى حسهم نتيجة عداء اليهود وبهذا لم يعد للنصارى لهذا الانفصال شريعة مفصلة تنظم الحياة ٠

قال ابن كثيرعن سعيد بن أبى عروبهعن قتاده أنه قال فى تفسير (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا يقول سبيلا وسنة ، والسنن مختلفة هى فى التوراة شريعة وفى الانجيل شريعة وفى الفرقان شريعة ، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ومن يعصيه ، والدين الذى لا يقبل الله غيره هو التوحيد والاخلاص لله الذى جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام ٠ وقيل المخاطب بهذه الآية هذه الأمة ومعناها لكل جعلنا القرآن منكم أيتها الأمة شرعة ومنهاجا أى هو لكم كلكم تقتدون به وحذف الضمير المنصوب فى قوله « لكل جعلنا منكم » أى جعلنا يعنى القرآن شرعة ومنهاجا أى سبيلا الى المقاصد الصحيحة وسنة أى طريقا ومسلكا واضحا بينا ٠ هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله »(١) ٠

ولقد أرسلت الرسل لتوضيح ما أصاب الدين من التحريف٠ وكشف ما وقع نتيجة الاختلاف ٠ ومن المؤلم أن ذلك لم يحدث الا من الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب بغيا بينهم ٠ فانفرط عقد هذه الوحدة بهذا الاختلاف وفى هذا يقول الله تعالى « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم »(٢) ٠

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢

(٢) سورة البقرة ٠ آية ٢١٣

ويبين الله تعالى هذا التحريف بقوله « ولقد أخـــذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله انى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برســـلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ، فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلمة عـن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فأعفوا عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين ، ومن الذين قالوا : انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون »(١) .

وعلى سبيل المثال نرى التحريف فيما يزعم أنه من وصـــايا موسى عليه السلام التي أمر بتبليغها الى بنى اسرائيل فتحكى كتبهم المحرفة « لا تقرض أخاك ربا ، ربا فضة أو ربا طعام أو ربا أى شيء مما يقرض بربا ، للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض ربا لكى يباركك الرب الهك فى كل ما تمتد اليه يدك فى الأرض التى أنت داخل اليها لتمتلكها »(٢) . وتعالى الله عن ذلك ومن يتصور أن الله يحرمها عليهم فيما بينهم ويحلها لهم مع الآخرين ؟ . ولكنـــه ظلمهم وافتراؤهم . ولا عجب وهم قد حرفوا أصل العقيدة «وقالت اليهـــود عزير بن الله وقالت النصـــارى المسيح بن الله ذلك قولهم بأفواههم يضـــاهئون قـــول الذين كفـــروا من قبـــل قـــاتلهم الله انا يؤفكون »(٣) .

ولذلك نجد أن هناك أشياء غير معقولة كتشبيه الله تعالى . (والتي من أجلها لعن ارمياء « أقلام النساخ الكاذبة » والذى هبط

(١) سورة المائدة . آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤

(٢) سفر التثنية اصحاح ٢٣

(٣) سورة التوبة . آية ٣٠

فيها رب العالمين تعالى الى اله قومى وكتاب أرمياء هـــذا هو الذى تضمنه الوثائق التاريخية وتجعل لتاريخه الشخصى قيمة موضوعية والواقع أن البروفيسور مونتييه Montet قد توصل فى دراستـه للوثائق الدينية الى تجريد الكتاب المقدس من كل صفات القيمـــة التاريخية فيما عدا كتاب أرمياء وهو الذى قال باله العالمين)(١) ٠

والمحنة المرة التى تمر بها الانسانية منذ انحرف الناس عن طريق الله فارتدوا حتى انتهوا الى الوثنية مرة أخرى بعبادة المال والشهوات فى واقع الحياة بأوروبا وأمريكا بل وصل الشر مداه حين جهر الماركسيون بعبادة المادة واعتبارها أصل الوجود ومادة الحياة وأنكروا وجــود الله ٠ ولم تسعف الديانات المحرفة النـاس ليصلوا الى الحق ٠ ولهذا نرى البشرية اليوم وقد تحولت الى وحوش مفترسة يفترس فيها القوى الضعيف وتجور الأسرة على أختهـا والأمة على جارتها وتنوع الخلاف حتى نشأ الصراع على أساس اللون والدم ٠ وفى هــذه الفــوضى المقيتة والاختلاف العنيف والصراع الدموى لا تجد البشرية الدواء فى فلسفة البشر ولا فى شرائعهم ٠

ولم يبق من الوحى الالهى دون تحريف أو نسيـــان سوى القرآن الكريم كما أراد الله تعـــالى « انا نحن نزلنـــا الذكر وانا له لحافظون »(٢) ٠ ولهذا كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وكان القرآن مهيمنا على الكتب جميعا أى أنه الرسالة الاخيرةالشاملة للبشرية كافة (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليـــــه فاحــــكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبــع أهواءهم)(٣) ٠ وعلى الناس أن يتبعوا هـــــذا الدين فينجوا من ضلال التحريف وشقاء الاختلاف « فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق »(٤) ٠

(١) الظاهرة القرآنية : مالك بن نبى ٠ ص ٤٨ — (٢) سورة الحجر ٠ آية ٩

(٣) سورة المائدة ٠ آية ٩ — (٤) سورة البقرة ٠ آية ١٣٧

المبحث الثاني
وحدة الأمة

ان الاسلام أصبح وحـــده سفينة النجاة لأن الله حفظـه من التبديل والتحريف ليقود الانسانية الى الحق ادراكا والهدى سلوكا حتى يرث الله الأرض ومن عليها • ففى هذا الهجير نلمح واحـة الاسلام التى تحقق الوحدة بين الناس وتغذيها من منبع عقيدتهـا التى تربط بين الناس بعقيدة لا اله الا الله فترد الناس الى رعاية ربهم وتحررهم من عبودية بعضهم البعض •

أثر العقيدة :

لقد وحدت هذه العقيدة بين المسلمين جميعا بما أوجبت عليهم من الايمان برب واحد والخضوع لاله واحد واتباع كتاب واحد وشرع واحد وآداب واحدة وأخلاق واحدة فشهادة التوحيد توحد المسلمين نحو رب واحد لا شريك له فيشعر الجميع بالأخوة التى أمر الله بها الجميع فتتقارب القلوب ولا يستعلى انسان على انسان ولا يطغى فرد أو جماعة على غيرها بمال أو جاه •

ونظرة لثورة التحرير الانسانى منذ الاسلام تبين تاريخيـــا كيف انتقلت المجتمعات التى آمنت بالاسلام من العصـــبية القبلية والأسرة التى تورث الشرف للسادة والمهانة لسواهم الى المساواة بين الناس • ومن النظرة القومية الضيقة التى لا يحدد الرابطة بـــين الناس فيها سوى حدود الأرض أو النظرة السـلالية التى يستعلى فيها قوم على قوم باللون ••• الى الأمة الواحدة ذات الأصل الواحد والرب الواحد •

فليس الاختلاف الى شعوب وقبائل الا كالاختلاف بين الذكر والأنثى القصد منه التعارف والتزاوج لا الصراع والشقاق • وليس

غاية وجود الانسان هو اشباع الشهوات والاستعلاء بالقوة وانما تقوى الله · وليس جوهر الانسان هو الطين وانما الروح التى كرمه الله بنفخها فيه فافترق عن الحيوان ·

انها أمة واحدة لا يربط الناس مع بعضهم فيها حدود الأرض ولا سلالة الدم وانما رابطة « لا اله الا الله » · فهى التى تحدد للمسلم دستوره ووطنه وجنسيته : انها دستوره فلا يخضع لبشر أو سلطان الا طاعة لله فيتحرر من كل طغيان · وهى التى تحدد وطنه لأن كل وطن بدونها وطن ذل واستعباد · وهى تحدد جنسيته لأن كل من يشهدها يرتبطون برباط العقيدة وهو أعظم رباط · وهى مقياس تفاضله فأقرب الناس اليها هو أكرمهم عند الله والناس ·

أثر الشعيرة :

والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فيطمئن الناس لبعضهم فتصفو مشاعرهم وتهدأ خواطرهم ولا يخشون على أموالهم وأعراضهم · وأمر الاسلام بصلاة الجماعة لأنها رمز الوحدة الانسانية فالصغير يقف بجانب الكبير ، والغنى مع الفقير الكل سواسية فى صف واحد نحو قبلة واحدة وايمان واحد انها رمز وحدة الجماعة حين تتجه الى الله ومن هنا كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة »(١) ·

وذهبت الظاهرية الى أن صلاة الجماعة فرض عين على كل مكلف · وفرضت صلاة الجمعة جماعة على المسلمين فيجتمعوا دائما على هذه المعانى حتى وان باعدت بينهم الديار لأن الوجهة واحدة والدعاء واحد · فيسرى فى جنبات الأمة آصرة الوحدة فى كل مكان مهما بعد وفى كل زمان سابق أو لاحق ·

(١) متفق عليه ·

والصيام امتناع كامل عن كل شهوات الدنيا يقوم به المسلمون جميعا فى أثناء النهار يلتزمون فيه بآداب عامة فتسود مشاعرهم معانى الخشوع وتتجاذب أرواحهم بآيات الصفاء والحب • ويشعرون أيضا بالجائع والمحروم فتتحرك فى نفوسهم عواطف البذل والانفاق •

والزكاة وسيلة لمنع الحرمان من المجتمع وهى تؤخذ من مال الغنى لترد على الفقير • فيتلاشى من المجتمع الشقاء ويشعر الجميع بالحب الأخوى فلا يمتلىء قلب انسان بالحقد حين يحس بالجوع وجاره شبعان • فلا وجود اذن للصراع بين الطبقات •

والحج ذلك المؤتمر الكبير الذى يجتمع فيه المسلمون جميعا من كل فج عميق من الشرق والغرب والشمال والجنوب مهما تباين نوعهم ذكورا واناثا أو أجناسهم بيضا أم سودا ليذكروا أنهم من أب واحد وأن لهم هدفا واحدا ووجهة واحدة فتنصهر نفوسهم فى معنى الوحدة الانسانية وقد لبسوا لباسا واحدا تتلاشى معه الفوارق • والطواف فرض عين على كل مسلم ، يحج فيسعى سبع مرات حول الكعبة ، والحكمة من ذلك — أن الكعبة التى يولى كل مسلم وجهه شطرها فى صلاته ترمز الى وحدانية الله ، وان الطواف حولها يرمز الى جهود الحياة الانسانية فليست اذن الشعيرة المقصودة وحدها لتحقيق معنى العبادة وانما حياتنا الدنيوية الممثلة فى حركة الطواف لا بد وأن تكون ربانية يتحقق فيها معنى الاخلاص لله تماما كما تتحقق فى شعائر الصلاة والصيام •

أثر الشريعة :

هذه الحقيقة التى لاحظناها فى الشعائر نجدها منهاج الاسلام فى شرحه للعلاقة بين العبادة والمعاملة فعمل الانسان المسلم فى الدنيا ما دام بعيدا عن الحرام مقيدا بأوامر الله فهو فى سبيل الله « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا

فى مناكبها »(١) فمثلا حين يسعى على قوته انما هو يعبد الله وحين يتزوج يعبد الله • قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله »(٢) • ذلك لأن الجسم معمل الروح لا حياة لأحدهما بدون الآخر • وبلوغ الكمال الانسانى انما يكون فى وحدة الروح والجسد برباط من طاعة الله •

ولقد وحد الاسلام بين الدنيا والآخرة والجسد والروح فالهدف الأخروى يشد وقائع الحياة حيث الدنيا مرحلة الى الآخرة والآخرة امتداد لها •

والاسلام بذلك وحد النفس الانسانية بأن وحد بين أشواق الانسان ونوازعه وبين روحه وجسده فلم يكبت الضروريات الطبيعية بل نظمها وجعل نمو الروح باستعمالها لا رهبانية تقف أمام السنن ولا مادية تقضى على القيم •

وعلى مستوى الأمة وحد الاسلام بين الفرد والمجتمع فالجماعة خادمة للفرد والفرد خادم للجماعة فى اطار لا يعنت الفرد ولا يعنت الجماعة بل يصون لهما الحرية والمصلحة ويحقق الوحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأمة واليك بعض النماذج التطبيقية :

١ ـ الوحدة السياسية :

فالوحدة السياسية التى يقيم صرحها الاسلام تقوم على تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم • فللحاكم شروط تؤمن عدالته وعلمه وتقواه • وله حدود تنظمها قاعدة الشورى والتساوى فى الحقوق والواجبات • فله على الرعية الطاعة فى المعروف ولا طاعة له ان عصى الله • والنصوص الكثيرة ترسى هذه القواعد • فضرورة وجود الأمير ينظمها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم »(٣) • ووحدة الأمة يقتضى وجود امام

(١) سورة تبارك • آية ١٥

(٢) متفق عليه •

(٣) رواه أبو داود وحسنه

واحد ويهدر الاسلام لذلك التفرق . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه »(١) . وأوجب الشـــورى رعاية لحقوق الرعية ومنعا من استبداد الراعى . يقــول الله تعــالى « وأمرهم شورى بينهم »(٢) . وأوجب الطاعة للأمير بعدها « يا أيهــا الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرســـول »(٣) . ويغلق الطريق أمام البغى باتباع مجموعة القواعد التى ينظمها قول الله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقســطين ، انما المؤمنون اخــوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »(٤) .

ولا بد هنا أن نعرض مسألة البغى وكيف يكفل الاسلام حماية الأمة من الفرقة . فالبغى هو الخروج على امام الجماعة المسلمة مغالبة أى يكون استعمال القوة هو وسيلة الخروج . أما ان لم يستعمل القوة كرفض مبايعة الامام أو معارضته دون ارتكاب محرم فلا يعتبر بغيا . ومن المتفق عليه أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

والبغى بغير الحق محرم « قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق »(٥) .

ومن المتفق عليه فى كل المذاهب الشرعية أن قتال الخارجين لا يجوز قبل سؤالهم عن سبب خروجهم فاذا ذكروا مظلمة أو جورا وكانوا على حق وجب على الامام أن يرد المظالم ويمنع الجور ثم يدعوهم

(١) رواه أحمد ومسلم
(٢) سورة الشورى . آية ٣٨
(٣) سورة النساء . آية ٥٩
(٤) سورة الحجرات . آية ٩ ، ١٠
(٥) سورة الأعراف . آية ٣٣ .

للطاعة فان رفضوا قاتلهم • قال تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهم فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله »(١) • عن ابن عمر ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن مسعود : « هل تدرى يا ابن أم عبد كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة ؟ قال : الله ورسوله أعلم • قال : لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيؤها »(٢) •

يقول ابن تيمية : « روى مسلم فى صحيحه عن أبى قيس زياد بن رباح ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من خرج من الطاعة ، وفارق الجماعة فمات ، مات ميتة الجاهلية • ومن قاتل تحت راية عمياء يغضب لعصبية أو يدعو الى عصبية أو ينصر عصبية • فقد قتل قتلة الجاهلية • ومن خرج على أمتى برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ، ولا يفى لدى عهدها فليس منى ولست منه » •

ذكر صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الأقسام الثلاثة التى يعقد لها الفقهاء باب قتال أهل القبلة من البغاة والعداة وأهل العصبية •

فالقسم الأول : الخارجون عن طاعة السلطان ، فنهى عن نفس الخروج عن الطاعة والجماعة ، وبين أنه ان مات ولا طاعة عليه لامام مات ميتة جاهلية • فان أهل الجاهلية من العرب ونحوهم لم يكونوا يطيعون أميرا عاما ، على ما هو معروف من سيرتهم •

ثم ذكر الذى يقاتل تعصبا بقومه ، أو أهل بلده ونحو ذلك •

وسمى الراية « عمياء » لأنه الأمر الأعمى الذى لا يدرى وجهه، فكذلك العصبية يكون عن غير علم بجواز قتال هذا •

(١) سورة الحجرات • آية ٩ •

(٢) راجع التشريع الجنائى للاسلام • جـ٢ ص ٦٧٥ ، ٦٧٩ ، ٦٨٧ والحديث سبل السلام الصنعانى جـ٣ ص ٢٧ •

وجعل قتلة المقتول قتلة جاهلية ، سواء غضب بقلبه ، أو دعا بلسانه أو ضرب بيده •

وقد فسر ذلك فيما رواه مسلم أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليأتين على الناس زمان لا يدرى القاتل فى أى شىء قتل ؟ ولا يدرى المقتول على أى شىء قتل ! • فقيل : كيف يكون ذلك ؟ قال : الهرج • القاتل والمقتول فى النار » •

والقسم الثالث : الخوارج على الأمة اما من العداة الذين غرضهم الأموال كقطاع الطرق ونحوهم ، أو غرضهم الرياسة • كمن يقتل أهل مصر الذين هم تحت حكم غيره مطلقا وان لم يكونوا مقاتلة ، أو من الخارجين عن السنة الذين يستحلون دماء أهل القبلة مطلقا • كالحرورية الذين قتلهم على رضى الله عنه • ثم انه صلى الله عليه وسلم سمى الميتة والقتلة : ميتة جاهلية وقتلة جاهلية : على وجه الذم لها والنهى عنها ، والا لم يكن قد زجر عن ذلك »(١) •

والاسلام ليست الصلة بين بلاده هى حواجز الأرض أو روابط الدم وانما حقيقة العقيدة التى تسوى بين الناس وتقيم العلاقة بينهم على أساس تقوى الله فالأمة المسلمة أمة واحدة بامام واحد لا تفرقها حدود ولا تفصل بينها سلالة أو نسب •

ويرجع « توينبى » أزمة المدنية المعاصرة الى عبادة الاقليمية ونزعة القومية حيث دبت السموم النازية والفاشية وغيرها • يقول « ان التائهين فى بيداء المجتمع الغربى قد انحرفوا عن طريق الرب الواحد الحق الذى آمن به أجدادهم ، أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بأن الدولة الاقليمية ـ قبل الكنائس الطائفية ـ أوثان تجلب عبادتها الحرب لا السلام • وهذا ما يجعل التائهين يندفعون صوب التعلق بهدف بديل : النظم السياسية الشاذة » •

(١) اقتضاء الصراط المستقيم • ابن تيمية • ص ٧٤ ، ٧٥ •

٢ ـ الوحدة الاقتصادية :

اذا تأملنا أسباب الصراع داخل الدول لوجدنا من أهم أسبابه سوء توزيع الدخل ، والقاعدة الاسلامية تربط الطغيان بالغنى الفاحش والانحلال بالترف والحقد بالفقر ، لهذا يشرع الاسلام لضمان حد أعلى مبنى على العدل وحد أدنى مبنى على الحق ٠

فالنظام الاسلامي يعيد التوازن تلقائيا بين الدخول بالأدوات الآتية :

١ ـ منفذ الانفاق فى سبيل الله قربى الى الله وكفارة عن السيئات٠
٢ ـ تحريم الدخول الاستغلالية كالربا والاحتكار وأكل أموال الناس بالباطل ٠
٣ ـ قيام دخل رأس المال على المشاركة كالمزارعة والمضاربة ٠
٤ ـ الميراث وسيلة لتفتيت الثروات الكبيرة بين الأبناء ٠
٥ ـ الزكاة أداة الشريعة الأولى اقتصاديا تعيد توزيع ١/٤٠ من رأس المال من الأغنياء سنويا الى الفقراء ٠

أما ضمان حد أدنى مبنى على الحق فان الاسلام هو أول نظام اجتماعى يشرع التكافل فى التاريخ وهو للآن النظام الوحيد الذى يقيمه على الحق لا الاحسان أو الاشتراك المستقطع ، وفلسفته تقوم على أن خيرات الكون التى سخرها الله للناس جميعا لم يخلق أحد منها شيئا ليدعى ملكية العين بتغيير شكلها ٠ فليس معنى أن الانسان مستخلف فيها بالميراث أو الملكية تنظيما للعلاقات الاجتماعية واشباعا للدوافع الفطرية انتفاء صفة التسخير للخلق جميعا ٠

ونصيب كل فرد فى هذا التسخير العام هو الزكاة التى تؤخذ من الغنى لترد الى الفقير حقا له تأخذه الدولة لا يملك منعه أو التفضل به ٠

ويبدأ الاسلام فى نظامه بالأسرة فالأب مسئول عن كفالة ابنه

والابن مسئول عن كفالة أبيه • ولهـــذا لا يجزى دفع الزكاة الى الأصول أو الفصول لأن الفرد ملزم بنفقتهم •

وفى تكافل المجتمع قرر الاسلام أن الفقير العاجز اذا لم يكن له قريب غنى كانت نفقته من بيت مال المسلمين وتصرف الزكاة على نفس البلد فان بقى منها شيء نقل للبلد الآخر •

ويعمم الاسلام التكافل من المجتمع الى الانســـانية مجتمعة بصرف النظر عن اختـــلاف الدين والجنس فلقد كفل رســول الله صلى الله عليه وسلم قريشا حين نزلت بها جائحة ولا يقف الاسلام عند هذا الحد من التكافل بل انه يمده بين الأجيال كما فعل سيدنا عمر فى رفضه توزيع أرض الخراج لينتفع بهـــا المسلمون فى كل زمان •

هذا النظام يكفل وحده اعادة التوازن الدائم داخــــل الأمة المسلمة فيؤسس وحدتها على أرسخ القواعد أما اذا حـدثت ظروف اســـتثنائية تزيد من الغنى كأن تزيد الموارد فى دخـــل فجائى كالبترول أو الغنائم أو أن تحدث مجاعة تزيد من قطاع الحاجة داخل الأمة فان الله تعالى يأمر فى القرآن الكريم بأخذ العفو أى الزيادة فى حالة الغنى وبالفرض فى رؤوس الأموال فى حالة الحاجة بناء عـلى قاعدة الاسلام « اذا احتاج المسلمون فلا مال لأحد » •

٣ ـ الوحدة الاجتماعية :

والمسلمون وحدة اجتماعية • فهم متضامنون فى كل ما يأتيهم من خير أو ما يحيق بهم من شر • يقول الرسـول عليه الصـلاة والسلام « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له ســائر الأعضـاء بالسـهر والحمى »(١) • ويقــول « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشــد بعضــه بعضا »(٢) • ويقول « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا

(١) متفق عليه •

(٢) متفق عليه •

يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله اخوانا ، المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ها هنا ـ يشير الى صدره ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله »(١) ويقول « ان انسابكم هذه ليست بسباب على أحد كلكم بنو آدم ، طف الصاع ولم يمنعوه ، ليس لأحد فضل على أحد الا بدين وتقوى »(٢) . ويقول « ليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية »(٣) . ويقول « ألا لا فضل لعربى على أعجمى ولا أعجمى على عربى ولا أسود على أحمر ولا أحمر على أسود الا بالتقوى ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب »(٤) .

بدأ الاسلام وحدة الأمة اجتماعيا بالأسرة لبنة المجتمع وخليته فنظم العلاقة بينها على أساس التراحم « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة »(٥) . فالعلاقة بين الابن والأب هى صلة الاحسان والشكر والعرفان « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ، ان اشكر لى ولوالديك الى المصير »(٦) . كذلك جعل العلاقة بين الزوج والزوجة أساسها الاصلاح والخير والاحسان والتقوى « وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا »(٧) . بهذا نجد الأسرة متماسكة

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه أحمد .
(٣) رواه أبو داوود .
(٤) رواه مسلم وابو داوود .
(٥) سورة الروم . آية ٢١
(٦) سورة لقمان . آية ١٤
(٧) سورة النساء . آية ١٢٨

بما دعمت به من قواعد المحبة والبر بين الزوج والزوجة والوالد والولد وبما حفظت به من قواعد التشريع التى توجب النفقة والعدل والمساواة ٠

كل هذه التوجيهات مستمدة من قول الله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا »(١) ٠ « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »(٢) ٠

يقول الأستاذ هارولد ب ٠ سميث : « ان الحضارة الاسلامية ذات أساس متين تمكن الاصلاح فى ميادين السياسة الاجتماعية ، فان ما فى نظام الاسلام الأساسى من مساواة ومن ديمقراطية يصلح أن يتخذ باعثا مناسبا على أنه حركة اجتماعية ترمى الى التخفيف من الحرمان والضعف اللذين تعانيهما أى طائفة داخل الجماعة سواء أكانوا نساء أم فلاحين ، وسواء أكانوا من ذوى الحرف الصغيرة أو من العمال الصناعيين ، وحينما أنتج النظام الطبقى للمجتمع أقلية غنية وأغلبية ساحقة من الفقراء فان المصلحين يستطيعون أن يعتمدوا على المبادىء الاخلاقية الأساسية فى الاسلام فى المطالبة باصدار تشريع يكون من شأنه رفع مستوى معيشة الفقراء ومنح طبقات المجتمع كلها فرص متكافئة فى التعليم وفى الدخل المناسب وفى التعبير الاجتماعى ٠٠

على أن فى التفسير الاسلامى للانسان اتجاها جمعيا ٠ فادراك الانسان أنه ينتمى الى كل أكبر وارتباطه بغيره ممن ينتمون الى نفس الجماعة التى تؤمن ايمانه يهيآن للحيوات الفردية وضعا اجتماعيا ليس له فى الغالب وجود فى الغرب الذى ينزع الى الفردية ٠ فالأخوة فى الاسلام تهب قوة وأمنا ومجالا من الوعى

---

(١) سورة آل عمران ٠ آية ١٠٣

(٢) سورة المائدة ٠ آية ٢

المشترك وينتج عنها ذلك النوع من الترابط الذي يتجاوز حدود الاوطان والأجناس · والذى يعمل الناس متلهفين فى سبيل تحقيقه فى سائر بلاد العالم ، مجاهدين ضد العقبة الوحيدة العجيبة التى ظهرت فى القرن الماضى · عقبة التقسيم الى دول وطنية ذات سيادة· انه لو أمكن اثارة التماسك الاسلامى فى أغراضه الايجابية وتكتيل الدول الاسلامية الكثيرة المختلفة فى وحدة حية لأمكن أن تصير هذه الوحدة قوة ايجابية فى العالم بل ان هذه الوحدة لتكون أكثر فاعلية اذا أدخلت فى نطاقها من سواها · واذا بلغ من سماحتها أن تشترك فى وجدانها وفى أطوائها كل مخلوقات الله »(١) ·

محنة الاختلاف :

يجب أن نشير هنا الى أن الخلاف الذى أصاب الأمة المسلمة انما كان سببه البعد عن السنة فأصابها ما أصاب غيرها من الأمم · فتنظيم المجتمع على أساس السنة هو الذى يضمن الوحدة ويدعمها والبعد عن السنة يؤدي للخلاف والشقاق · يقول ابن تيمية « كل من كان عن السنة أبعد كان التنازع والخلاف بينهم فى معقولاتهم أعظم ، فالمعتزلة أكثر اختلافـا من متكلمـة أهل الاثبات ، وبين البصريين والبغداديين منهم من النزاع ما يطول ذكره ···

وأما الشيعة فأعظم تفرقا واختلافا من المعتزلة ، لكونهم أبعد عن السنة منهم ، حتى قيل أنهم يبلغون اثنتين وسبعين فرقة ·

وأما الفلاسفة فلا يجمعهم جامع ، بل هم أعظم اختلافا من جميع طوائف المسلمين واليهود والنصارى(٢) ·

وما أحسن ما قال أبو محمد بن عبد الرحمن بن اسـماعيل المعروف بأبى شامة ـ فى كتاب (الحوادث والبدع) ـ حيث جاء

(١) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة جمع « بيلربروز » مقال : مذهب الاسلام فى الانسان وأثر هذا المذهب على السياسة الاجتماعية والنظرية السياسية ـ هارولد سميث ـ ص ٥٧ ترجمة : محمد خلف الله ·

(٢) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول · ابن تيمية جـ ١ ص ٩٠/٩١ ·

الأمر بلزوم الجماعة ، فالمراد لزوم الحق واتباعه وان كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيرا ، لأن الحق هو الذى كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم ، ولا ننظر الى كثرة أهل الباطل بعددهم ، وعن الحسن البصرى رحمه الله انه قال : (السنة ـ والذى لا اله الا هو ـ بين الغالى والجافى ، فاصبروا عليها رحمكم الله ، فان أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى ، وهم أقل الناس فيما بقى ، الذين لم يذهبوا مع أهل الاتراف فى اترافهم ، ولا مع أهل البدع فى بدعتهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك تكونوا »(١) ٠

وطريق أهل السنة : ألا يعـدلوا عن النص الصحيح ، ولا يعارضوه بمعقول ولا قول ، فلأنه ـ كما أشار الشيخ رحمه الله ـ وكما قال البخارى رحمه الله : سمعت الحميدى يقول : كنا عند الشافعى رحمه الله فأتاه رجل فسأله عن مسألة ، فقال : قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا ٠٠ ، فقال رجـل للشـافعى : ما تقول أنت ؟! ٠ فقال : سبحان الله ٠ أترانى فى كنيسة ٠ أترانى فى بيعة ٠ اترانى على وسطى زنار ؟! ٠ أقول لك : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت تقول ما تقول أنت ؟! ٠ ونظائر ذلك فى كلام السلف كثير ٠ وقال تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »(٢) ٠

وخبر الواحد اذا تلقته الأمة بالقبول عملا به وتصديقا له : يعتبر العلم اليقينى عند جماهير الأمة ، وهو أحد قسمى المتواتر ٠ ولم يكن بين سلف الأمة فى ذلك نزاع ، كخبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه : انما الأعمال بالنيات ، متفق عليه وخبر ابن عمر رضى الله عنه « نهى عن بيع الولاء وهبته » متفق عليه ٠ وخبر ابى هريرة « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » ٠ متفق عليه ٠ وكقوله

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ٠ (٢) سورة الاحزاب ٠ آية ٣٦ ٠

« يحرم الرضاع ما يحرم من النسب » متفق عليه ، وأمثال ذلك . وهو نظير خبر الذى أتى مسجد قباء وأخبر أن القبلة تحولت الى الكعبة ، فاستداروا اليها . » متفق عليه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل رسله آحادا ، ويرسل كتبه مع الآحاد ولم يكن المرسل اليهم يقولون لا نقبله لأنه خبر واحد ، وقد قال تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله »(١) . فلابد أن يحفظ الله حججه وبياناته على خلقه ، لئلا تبطل حججه وبياناته »(٢) .

عن معاوية رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وان هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، اثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة وهى الجماعة »(٣) .

وفى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التى رواها العرب عن بن سارية رضى الله عنه : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد ، وان من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الأمور ، فان كل بدعة ضلالة »(٤) .

ونستطيع أن نجمل أسباب الفرقة التى نكب بها المسلمون فيما يلى :

١ - المتشابه :

فقد تحكم بعض الناس فى الآيات التى يعجزون عن علمها والتى قال الله تعالى عنها : « وأما الذين فى قلوبهم مرض فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله كصفات الله تعالى واسمائه

---

(١) سورة التوبة . آية ٣٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٣) رواه أبو داود والترمذى مع خلاف فى اللفظ .

(٤) رواه الترمذي .

الحسنى والقضاء والقدر وخلق القرآن فرأينا مثلا الجهمية اتباع جهم بن صفوان يدعون دون علم أن الانسان مجبر لا مخير ولا ارادة له فيما يفعل • والمعتزلة دون علم أيضا قالوا أن العبد يخلق أفعاله بنفسه ذلك لأن معرفة صفة الله في العلم والقدرة فوق متناول العقل فمن اتبع العقل منهم جسم الأوصاف بجهله ومنهم من عطل الصفات بعجزه « وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الألباب »(١) •

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أهلكت الأمم من قبلكم ، باختلافهم على انبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، آن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه الى عالمه »(٢) •

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون فى القدر هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية ، فكأنما فقىء من وجهه حب الرمان • فقال : « أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا وكلتم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟ انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فانتهوا » • وفى رواية : « يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم ، باختلافهم على انبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وان القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن يصدق بعضه بعضا ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به » • وفى رواية « فان الأمم قبلكم لم يلعنوا حتى اختلفوا وان المراء فى القرآن كفر »(٣) •

ان الاسلام يكلف العقل أن يبحث أكبر قضية وهي الايمان بوجود الله ويهدر التقليد فيها ولكنه احتراما للعقل الانساني أن

(١) سورة آل عمران • آية ٥

(٢) رواه أحمد •

(٣) حديث مشهور مخرج فى المسانيد والسنن وقد روى أصل الحديث مسلم فى صحيحه وقول الرسول « انما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب » •

يضل في الظنون ينهاه أن يبحث فيما لا يستطيعه كذات الله وأوصافه وارادته وحكمته في القدر . فلا بد من التعقل في فهم حقيقة النهي عن بحث ما لا نستطيعه والتأدب بطاعة من أرسله الله رحمة لنا حتي لا نضل ونشقى .

٢ ـ القول في القرآن بالرأى :

روى عن معاذ بن جبل انه قال : « يقرأ القرآن رجلان ، فرجل له فيه هوى يغليه فلى الرأس يلتمس أن يجد فيه أمرا يخرج به على الناس ، أولئك شرار امتهم ، أولئك يعمى الله عليهم سبيل الهدى ، ورجل يقرؤه ليس فيه هوى يغليه فلى الرأس فما تبين له عمل به ، وما اشتبه عليه وكله الى الله ، ليتفقهن أولئك فقها ما تفقه قوم قط ، حتي لو أن أحدهم مكث عشرين سنة ، فليبعثن الله له من يبين له الآية التى أشكلت عليه ، أو يفهمه اياها من قبل نفسه »(١) .

ولقد كان سبب فرقة الخوارج القول فى القرآن بالرأى فى الفرائض فكفروا مرتكب الكبيرة وافرطوا فى الحكم على الناس ، ولهذا لا بد من تفسير القرآن بالسنة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليفسره « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق لتبين لهم ما نزل اليهم » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال فى القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده فى النار »(٢) . وفى لفظ لهم : « من قال فى كتاب الله برأيه فأصاب فقد اخطأ » . ولهذا تحرج السلف فى ذلك . قال أبو بكر رضى الله عنه « أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى ، اذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم » . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « اياكم وأصحاب الرأى فانهم اعداء السنة اعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأى وضلوا وأضلوا » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ألفين أحدكم على

---

(١) أخرجه الترمذى .

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى .

أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه • فيقول : بيننا وبينكم هـذا القرآن فما وجـدنا فيه من حـلال استحللناه وما وجدنا فيه من حزام حرمناه • الا واني أوتيت الكتاب ومثله معه • وان ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله تعالى »(١) • ولعـــل ما نراه اليوم من جهد المستشرقين المحمـوم وتلاميذهم للتشكيك فى السنة والدعوة الى تركها والأخذ من القرآن وحده ما يفسر نيتهم الخبيثة التى يريدونها للمسلمين لايقاع الشقة والخلاف والصراع بينهم يكفر بعضهم البعض بالمعاصى ويهدرون دماءهم وأموالهم فتضعف شوكتهم وتنحل وحدتهم التى يخشـاها أعـداء المسلمين •

والتاريخ يحكى لنا كيف اتسعت شقة الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة الذين كون واصل بن عطاء مدرستهم • والمعتزلة كانوا يعتمدون فى أصول الاعتقاد على القرآن لا يعدونه ويؤولون الفاظه على مقتضى العقل • وشاعت عنهم فكرة القول بخلق القرآن وتكفير من لم يقلها ومحنة أحمد بن حنبل فى ذلك مشهورة • أما أهـل السنة فكانوا يعتمدون فى تعريف العقيدة على كتاب الله بظاهره دون تأويل ويعتمدون على السنة فى تفسيره سواء أكان الخبر متواترا أو آحادا ولا يسلكون فى ذلك مسلك العقل فى الاستدلال •

يقول ابن حزم •• ولو أن امرىء قال لا نأخذ الا ما وجـدناه فى القرآن لكان كافرا باجماع الأمة ، ولكان لا يلزم الا ركعة ما بين دلوك الشمس الى غسق الليل،وأخرى عند الفجر،لأن ذلك أقل مايقع عليه اسم صلاة ، ولا حد للأكثر من ذلك • وقائل هذا كافر مشرك حلال الدم والمال • ثم قال « ولو أن امرىء لا يأخذ الا بما اجتمعت عليه الأمة فقط ، أو يترك كل ما اختلفوا فيه ، مما قد جاءت فيه النصوص لكان فاسقا باجماع الأمـة • فهـاتان المقدمتان توجب

(١) رواه أبو داوود والترمذى •

بالضرورة الأخذ بالنقل »[1] .

ويقول ابن تيمية « وأهل البدع اما دخل عليهم الداخل لأنهم اعرضوا عن هذا الطريق وصاروا يبنون دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها اما في دلالة الألفاظ واما في المعاني المعقولة ولا يتأملون بيان الله ورسوله ، وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله فانها تكون ضلالا ولهذا تكلم أحمد في رسالته في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين وكذلك ذكر في رسالته الى أبي عبد الرحمن الجرجاني في الرد على المرجئة وهذه طريقة سائر ائمة المسلمين لا يعدلون عن بيان الرسول اذا وجدوا الى ذلك سبيلا . ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها أن يقول على الله ورسوله ما لم يعلم أو غير الحق وهذا مما حرمه الله ورسوله . قال تعالى في الشيطان « انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون »[2] .

٣ ـ التقليد :

وقد رأينا أثر ذلك في التعصب المقيت وما وقع الناس فيه من شرك وخرافات ، ولما كان المقلد لا يعلم انه مقلد ، ولما كان يعتقد الى جانب ذلك أن مذهبه في الايمان هو مذهب الحق كان من الطبيعي أن يتخذ مذهبه هذا أساسا للحكم على الآخرين بالايمان أو الكفر تبعا لموافقتهم أو مخالفتهم اياه فكل من خالف مذهبه كان كافرا وضالا .

يقول الامام الغزالي : « ان هؤلاء الذين يسارعون الى تكفير من لا يرى رأيهم ولا يعتقد معتقدهم أولى بأن يوصف الواحد منهم بأنه « غربليد قد قيده التقليد » بحيث لا يتميز في الحقيقة عن مرتبة الصبيان . وانما وصفه بالغرة والبلادة لأنه لا يمتاز بشيء عن غيره

---

(١) حاشية الرسالة للشافعي ص ٢٢٥ .

(٢) الايمان . ابن تيمية ـ ص ١٦٩ .

من المقلدين المخالفين له • فمجمــوع المقلــدين يشتركون فى أنهم يؤمنون بالرأى لا لأنه الرأى الذى يقرره العقل بل لأنه ينسب قبل كل شيء الى من يحسن اعتقادهم فيه ولو كان هذا الرأى باطلا فى ذاته • وهم يرفضون الرأى ولو كان حقا فى ذاته لأنه ينسب الى من لا يحسنون الاعتقاد فيه • فهم اذن من يعرفون الحق بالرجـــال لا الرجال بالحق •

لكن التقليد وهو وليد ضيق الأفق دعا أتباع المذاهب المختلفة الى تطويل اللسان ـ على حد تعبير الامام الغزالى ـ فرموا اخــوانهم في الدين بالكفر أو الضلال • وكان الأولى بهم أن يكفــوا ألسنتهم عن مخالفتهم ما داموا جميعا أهل ايمان يعترفون بالوحدانية ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام فأتباع الحنابلة قد يكفرون الأشــاعرة لتأويلهم آيات العرش والكرسى وأتباع الأشاعرة قد يكفرون الحنابلة زاعمين انهم يشبهون ويجسمون ولا يعدم الأشعرى أن يجد مأخــذا في مذاهب المعتزلة يكفرهم به والأمر بالعكس تماما • مع أن الحق هو أن جميع هذه الطوائف مسلمة وموحدة وان اختلفت مراتبهــا فى فهم ما جاء به الوحى •

وليت المتكلمين وقفوا عند حد تكفير بعضهم بعضا بل يجدهم الغزالى أشد الناس غلوا وأسرفوا فى تكفير عوام المسلمين مع العلم بأن المبادرة الى التكفير « انما يغلب على من يغلب عليهم الجهل » • ان التكفير فيه خطر والسكوت عنه لا خطر فيه ، وأيا كان الامر فان غلاة المتكلمين ومقلديهم أباحوا لأنفسهم أن يكفر من لا يعرف الكلام معرفتهم ومن لا يرتضى أدلتهم فى البرهنة على العقائد فكأنهم أرادوا أن يضيقوا رحمة الله الواسعة وأن يحتكروا الايمان لأنفسهم فيجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين « فيصل التفرقة »(١) •

ويجب تبين الدليل والســعى الى معرفته يقــول ابن تيميــة

---

(١) مذكرات فلسفة اسلامية • د / محمود قاسم • المحاضرة العاشرة ص ٣ ، ٥ • بمعهد الدراسات الاسلامية •

« أنّ الانسان ينشأ على دين أبيه أو سيده أو أهل بلده كما يتبع الطفل فى الدين أبوه وسادته وأهل بلده ، ثم اذا بلغ فعليه أن يلتزم طاعة الله ورسوله حيث كانت ولا يكون ممن اذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فكل من عدل عن اتباع الكتاب والسنة ، وطاعة الله ورسوله الى عادته وعادة أبيه وقومه فهو من أهل الجاهلية ، وكذلك من تبين فى مسألة من المسائل الحق الذى بعث الله به رسوله ، ثم عدل عنه الى عادته فهو من أهل الذم »(١) •

هذا التكليف بمعرفة الدليل ينصب أساسا على العقيدة والعبادات التى هى فرض عين على كل مسلم •

والسلف يقولون « احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون • »

وليس معنى هذا أن يصير كل الناس مجتهدين وانما يحاول كل أن يكون متبعا يعرف الدليل لا مقلدا ولا مجتهدا وأن يكون من الجماعة باستمرار طائفة يخصصون فى الاجتهاد ويعلمون القوم ذلك حتى لا تقع الجماعة كلها فى التقليد « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون »(٢) • وهذا سبب كون الاجتهاد فرض كفاية تأثم الأمة بتركه • •

وترك الاجتهاد لكل فرد خطر يهدد الجماعة كخطر التقليد • لهذا قال الشافعى : « وليس للحاكم أن يقبل ولا ولى أن يدع أحدا ولا ينبغى للمفتى أن يفتى أحدا الا متى يجمع أن يكون عالما علم الكتاب وعلم ناسخه ومنسوخه وخاصه وعامه وأدبه • وعالما بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقاويل أهل العلم قديما وحديثا ، وعالما بلسان العرب عاقلا يميز بين المشتبه ويعقل القياس • فان

(١) الفتاوى • جـ ٢ • ص ٢٠٢ •

(٢) سورة التوبة • آية ١٢٢

عدم واحدا من هذه الخصائص لم يحل له أن يقول قياسا وكذلك لو كان عالما بالأصول غير عاقل للقياس الذى هو الفرع : ـ لم يجز أن يقال لرجل : قس وهو لا يعقل القياس • وان كان عاقلا للقياس وهو مضيع لعلم الأصول أو شيء منها لم يجز أن يقال له قس على ما لا تعلم كما لا يجوز أن يقال قس لأعمى • وصف له : اجعل كذا عن يمينك وكذا عن يسارك ، فاذا بلغت كذا فانتقل متيامنا ، وهو لا يبصر ما قيل له يجعله يمينا ويسارا !! »(١) •

ولقد نهى الأئمة الاربعة تلاميذهم عن أن يقلدوهم فأبو حنيفة يقول : « هذا رأيى فمن جاء برأى خير منه قبلته » • ويحكى أن مالكا كان يقول : « انما أنا بشر أصيب وأخطىء فاعرضوا قولى على كتاب الله ورسوله » • وأن الشافعى كان يقول : « اذا صح الحديث فاضربوا بقولى عرض الحائط » • ويحكى أن الامام أحمد كان يقول : « لا تقلدنى ولا تقلد مالكا ولا الشافعى ولا الثورى ، وتعلم كما تعلمنا » • وأنه كان يقول : « لا تقلد دينك الرجال فانه لا يسلم أن يغلطوا »(٢) وهذا الأمر لا يسوغ بحال من الأحوال فى العقيدة لأنها لب الدين وأصله •

والسنة هى دليل المسلم للتعرف بكتاب الله خصوصا فى عصرنا هذا الذى ضمرت فيه اللغة العربية ، وبعد الفهم فى مصطلح الحديث وأصول الاجتهاد وهو كان دائما طريق السنة أى ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم الفرقة الناجية وكان هذا سر وحدتهم ، وكان أغلب الفقهاء لذلك أصحاب حديث لا أصحاب رأى •

---

(١) الأم • جـ ٧ • ص ٢٧٤ •

(٢) ابن تيمية • حياته وعصره وآراؤه الفقهية • ص ٢١٦ ، ٢١٧ • عن الفتاوى • لابن تيميه جـ ٢ • ص ٣٨٦ • •

الخلاف الفقهي :

ونحب هنا أن نشير الى الخلاف الفقهي فهو أمر ضروري حيث الأدلة تختلف في فهمها وتصورها العقول والأفهام فوقع الخلاف لذلك بين الصحابة أنفسهم • لهذا قال الامام مالك لأبي جعفر حين أراد أن يحمل الناس على الموطأ « ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الأمصار ، وعند كل قوم علم ، فاذا حملتهم على رأى واحد تكون فتنة » • فالالتزام الفكري فيما يمكن الاختلاف فيه محال لتفاوت التقدير للمصالح وتفاوت الفهم للنصوص • وهذا الخلاف لا يكون سببا للتفرقة في الدين أو الشحناء والبغضاء لأن لكل مجتهد أجره ما دام الكل ملتزما للجماعة • وقد شهدت الأمة المسلمة مذاهب متعددة في أوج مجدها كلها تعيش متحدة لأنها تناصر السنة ولم يخرج الا أصحاب الرأى والبدع • وليس العيب في الخلاف ولكن العيب في تعصب الفرد لرأى خلافي فظنه قطعيا فيضلل ويفسق مخالفه أو الحجر على عقول الناس بالزامهم بأى فكر بعينه فيؤدى ذلك كله الى الضيعة والمراء والتعصب • أما فهم حقيقة نظرة الدين للأمر الخلافي فانه يجمع القلوب فتتعاون فيما اتفقت عليه ويعذر بعضها بعضا فيما اختلفت عليه في جو من الحب والأخوة والتناصح والوحدة •

وقد سبق أن ذكرنا في بحث الثبات والتغير أن من خصائص الشريعة اجمال ما يتغير وتفصيل ما لا يتغير •

يقول الامام الشافعي في مناقشة شيقة قال : فاني أجد أهل العلم قديما وحديثا مختلفين في بعض أمورهم فهل يسعهم ذلك ؟

قال فقلت له : الاختلاف من وجهين : احدهما محرم ولا أقول ذلك في الآخر • قال : فما الاختلاف المحرم ؟ • قلت : كل ما أقام الله به الحجة في كتابه أو على لسان نبيه منصوصا بينا ــ لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه ــ وما كان من ذلك يحتمل التأويل ويدرك

قياسا ، فذهب المتأول أو القايس الى معنى يحتمله الخبر أو القياس وان خالفه فيه غيره . لم أقل أنه يضيق عليه ضيق الخلاف في المنصوص . قال : فهل في هذا حجة تبين فرقك بين الاختلافين ؟ .

قلت : قال الله تعالى في ذم التفرقة « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة » . وقال جل ثناؤه : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » . فذم الاختلاف فيما جاءتهم به البينات . فأما ما كلفوا فيه الاجتهاد ، فقد مثلته بالقبلة والشهادة وغيرها »(١) .

(١) الرسالة . جـ٣ ص ٥٦٠ ، ٥٦١ .

المبحث الثالث
وحدة الانسانية

ويؤصل القرآن وحدة البشرية فى دقة وابداع فى بيانه عن بدأ الخليقة وطبيعة تكوينها : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تنساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا »(١) .

وحين تذكر البشرية أن الله خلقها من نفس واحدة تشعر بصلة الرحم التى تربطها ببعضها البعض حيث تمتد لأصل واحد فترق مشاعرها نحو بعضها البعض وتوجد فى داخل النفس مع تقوى الله الذى خلق الانسان التقوى فى الأرحام . وبهذا فان رباط القربى الذى يصل النسب فى حدوده وما تراه من آثار طيبة على الصلات بين أفراد الأسرة من تعاون ورحمة يتسع ليشمل البشرية مجتمعة .

ويفصل الاسلام طبيعة العلاقة بين الناس تفريعا من هذا الأصل على أن الخلاف بينهم خلاف تنوع لا خلاف تناقض وتضاد . ان هذا الاختلاف ضمان لأن يتحول الناس الى اجزاء فى جهاز المجتمع تتكامل كما تتكامل أى وحدة من وحدات الحياة يقوم كل بدوره فى مكانه وبقدراته ووفق طبيعته . فليست الشجرة كلها أوراقا وليست الآلة كلها تروسا ودائما تتباين لتنوع الوظائف وينشأ الكل المتحرك ليخرج الثمرة بأمر الله . فالعلاقة اذن بين الناس هى علاقة التعاون لا علاقة الصراع . والتنوع هو للتكامل لا للتضاد . وبهذا يصبح كل فرد داخل المجتمع مسخرا للآخر . فالمهندس يخدم الطبيب والمدرس ... وهو فى نفس الوقت يتلقى الخدمات منهما . انه تقسيم العمل الذى أدركه الفلاسفة حديثا وما يترتب عليه من زيادة الطيبات ونمو الخدمات . يقول الله تعالى « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ

(١) سورة النساء . آية ١

بعضهم بعضا سخريا »(١) •ولهذا لابد أن تكون العلاقة بين الناس غايتها التعارف لا التنافر • فالتفاهم المشترك والتعارف المتبادل غاية التنوع بين الناس • ثم يؤسس القرآن علاقة التفضيل بين الناس على أساس غير أساس المادة أو القوة ، انه يفضل على أساس مدى نضوج النفس الانسانية وسموها وحساسيتها فى العلاقة بينها وبين الله وبينها وبين الناس حين تتقى كل ما يؤذى الغير وتسعى الى خير الناس ابتغاء وجه الله وهو التقوى • يقول الله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير »(٢) •

ولقد كان كل نبى يرسل الى قومه خاصة وبعث محمد صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة • يقول تعالى : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(٣) •

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا »(٤) •

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا »(٥) •

لأنه الرسالة الخاتمة التى أصبح العالم عندها وحدة يسهل الاتصال به والتعارف بين أفراده ، وتقدمت وسائل العلم بحيث يسهل انتقاله من جيل الى جيل دون تحريف •

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، وكان النبى يبعث الى قومه خاصة

(١) سورة الزخرف • آية ٣٢

(٢) سورة الحجرات • آية ١٣

(٣) سورة سبأ • آية ٢٨ •

(٤) سورة الاعراف • آية ١٥٨ •

(٥) سورة الفرقان • آية ١ •

وبعثت الى الناس كافة وأعطيت الشفاعة »(١) ٠

والدعوة الى وحدة عالمية من أهم أهداف الاسلام الايجابية لأن تشريع الاسلام لا بد أن يسود الانسانية جميعها ٠ « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله »(٢) ٠ أما العقيدة فلكل أن يعتقد ما يريد « لا أكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »(٣) ٠ ذلك لأنها موضوع الاختبار للانسان فى الأرض وعلى نتيجة جهده يكون الجزاء يوم الحساب لكن الانسانية لا تستطيع أن تحيا فى معاملاتها دون ظلم وجور الا بقانون الله الذى أنزله للبشر ولهذا كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »(٤) ٠

والانسانية لا بد وأن تسعد فى ظل هـذه الوحدة لأن نوع المعاملة التى يفرضها الاسلام لأهل الذمة كلها بر وقسط فليس الاختلاف فى الدين سببا أو مبررا للتفريق فى المعاملة بل العدالة والتسامح والبر ٠ ويدعم الاسلام هذه الأسس بالأمر بأدب المناقشة الدينية « ولا تجادلوا أهـل الكتاب الا بالتى هى أحسن »(٥) ٠ « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »(٦) ٠ وطعام الذين أوتوا الكتاب حلال والزوجة منهم كذلك حلال « وطعام الذين أوتوا الكتاب حـل لـكم وطعـامكم حـل لهم والمحصنـات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم »(٧) ٠

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يحضر جنائزهم

(١) رواه البخارى ٠

(٢) سورة الفتح ٠ آية ٢٨ ٠

(٣) سورة البقرة ٠ آية ٢٥٦ ٠

(٤) سورة الأنبياء ٠ آية ١٠٧ ٠

(٥) سورة العنكبوت ٠ آية ٤٦ ٠

(٦) سورة النحل ٠ آية ١٢٥ ٠

(٧) سورة المائدة ٠ آية ٥ ٠

وولائهم ويعود مرضاهم . وقد أمر الله تعالى ببرهم والقسط اليهم بقوله : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين »(١) .

الا أن الحكم والتقاضى بشريعة الاسلام حتمى فى دار الاسلام على الا يجبر أهل الكتاب الا على ما هو وارد فى شريعتهم من الأحكام كتحريم الربا وحد الزنا والسرقة ويباح لهم ما فى شرائعهم كامتلاك الخنزير وأكله ، كذلك يخضعون للنظام العام فتوقع عليهم عقوبة الخروج عليه والافساد فى الأرض كالمسلمين سواء .

ان الاسلام يحمى نظام الأسرة عندهم فلا يجوز لأحد أن يتدخل فى تنظيم الزواج والطلاق الا بمقتضى عقيدتهم وتنفيذ أوامر دينهم وما يجب عليهم أن يتبعوه فيهما ويحمى الاسلام كرامتهم من أن يعتدى عليهم أحد .

قال أبو عبيد « عن عبد الرحمن بن سعفان عن أبى اسحاق عن صعصعة قال : سألت ابن عباس فقلت : انا نسير فى أرض أهل الذمة فنصيب منهم ؟ فقال : بغير ثمن ! . قال : بغير ثمن . قال : فما تقولون . قلت : نقول حلال لا بأس به . قال : انتم تقولون كما قال أهل الكتاب . « ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

وعن اسماعيل بن ابراهيم عن حجاج بن أبى عثمان عن يحيى ابن أبى كثير قال : « حدثنى أبو عبد الله ـ مولى سعد ـ أو قال أبو عبد الرحمن ، شك أبوعبيد ـ قال : كنت مع سعد فأجننا الليل الى الحائط ـ وفى غير هذا الحديث الى حائط رجل من أهل الذمة ـ فطلبنا صاحبه فلم نجده ، فقال سعد : ان سرك أن تلقى الله غدا مسلما فلا ترزأن منه شيئا . قال : فبتنا طاوين ، حتى

---

(١) سورة الممتحنة . آية ٨ .

أصبحنا »(١) ٠

وحسبنا عبرة التاريخ أن أهل الذمة يعيشون بيننا الى اليوم ولم يبق مسلم فى صقلية أو الأندلس تحت الحكم المسيحى فأين السماحة وأين الظلم !! ٠

ونحن لا نقول هنا عن معاملة أهل الذمة على سبيل المجاملة فى عصرنا الحاضر وظروفنا الصعبة انما هى أصل فى عقيدتنا ولو كان غيره ما ترددنا فى الأخذ به فلقد حماهم الاسلام الذى من قواعده الفقهية ٠ « أننا أمرنا بتركهم وما يدينون » ٠ فلهم حرية الاعتقاد وحرية اقامة الشعائر كما يحبون وكما يريدون ، ولقد رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه هيكلا لليهود قد ستر بالتراب ولم يبق ظاهرا الا أعلاه فجاء بفضل ثوبه وأخذ بعض التراب المتراكم فاقتدى به جيش فزال كل ما على الهيكل وبدى واضحا ليقيموا عنده شعائرهم الدينية وعندما ذهب الى بيت المقدس لم يصل فى كنيسته فقيل : أتجوز فيها الصلاة ؟ فقال : خشيت أن أصلى فيها فيزيلها المسلمون ويتخذونها مسجدا ٠

وهكذا وحد الاسلام النفس الانسانية وانقذها من الصراع ووحد الأسرة وخلصها من الشقاق ووحد المجتمع ونجاه من البغى والطغيان ووحد البشرية وأنقذها من الحروب والدمار بل وحد بين الأجيال جميعا ما ضيها وحاضرها ومستقبلها برباط الغاية المشتركة القائمة على التعارف بين الناس والتفاضل بينهم بمقياس تقوى الله وما يتبع ذلك ضرورة من مرحمة وتعاون واخاء ٠

وصدق الله العظيم « **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وأعملوا صالحا انى بما تعملون عليم ، وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ، فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون** ؛

---

(١) الأموال أبو عبيد ، ص ١٤٩ ــ ١٥٠ ٠

فذرهم فى غمرتهم حتى حين ، أيحسبون انما نمــدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ، ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهـم لا يشركون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة إنهم الى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون »(١).

---

(١) سورة المؤمنون . آية ٥١ ـ ٦١ .

الفصل الثالث
خير امة

خـير أمـــة

ان كلمة الخير عامة فى جميع البلدان والأزمان يقصـــد بهـــا السلوك المحقق للمثل العليا • ويرى أرسطو والفلسفة الاغريقية عامة أن موضوع البحث الفلسفى يتناول كل ما تتضمنه فكرة الخير الأقصى •

ووصف السلوك بالخيرية يراد به نزوعه الى تحقيق غاية أو مثل أعلى ولفظ الخير Good فى الانجليزية يتصل باللفظ الألمانى Gut وهو يطلق على كل ما يحقق هدفا فالخير هو القيمة العليا التى التى ترجع اليها القيم جميعا • ولهذا يقصـــد بالخير الأخلاق لأن الأخلاق هى أهم الوسائل التى تصل بنا الى الخير •

والناس لا يتحقق فيهم التوازن الاجتماعى الا اذا استشرفوا قوة أكبر من الانسان ومكانا أكبر من الحياة الدنيا ، فان تجاهلوا قوة الله وحساب اليوم الآخر فسيعيشون فى حدود أنفسهم ، ومن ثم تكون النتيجة الحتمية أن يؤمن الانسان بنفسه فقط ولا يزن غيره من الناس عنده شيئا •

وهو لن يؤمن الا بدنياه فقط وعليه أن يحرز من هذه الدنيا أكبر قسط عن أى طريق ما دامت هذه غاية همه ومبلغ علمه !! •

من هنا تتأصل جذور الأنانية فى المجتمع الانسانى لأن النفع المادى هو الهدف الأساسى ولن يحكم الناس سوى سلطان السيف ولن يوقفه عن أى عمل سوى موازنة الربح والخسارة والانسان الذى يضع هذه القوانين لابد وأن يكون متحيزا لأنه هو أيضا نفعى ليس له هدف غير الدنيا • فضلا عن أن الحراس على القوانين لن يصـــل اليهم سلطان القانون • وهيهات للعدالة أن تسود فى مجتمع كهذا •

والأخلاق الانســانية كما هـــو الشـــأن فى غيرهـــا من النظم الاجتماعية ترتبط أساسا بالعقيدة التى بنيت عليها ارتباط الفرع

بجذوره لأنه على أساس هذا التفسير تتحدد رسالة الانسان وغاية وجوده فتتحدد بالتالى نظم حياته ومثله العليا ٠

ان المذهب المادى لا يقدم للانسان تفسيرا للوجود والتاريخ أكثر من وجوده الدنيوى وهذا يؤدى به الى أن يطلق شهواته من قيودها ولا يؤدى بالانسانية الا الى الانحلال والفوضى ٠ والقوانين تعجز عن كبح جماح هذه الشهوات لأنها فقدت الأخلاق التى تستطيع أن تضبط بها هذه الشهوات ٠ فأخذت روابط الأسرة فى التفكك وفقد الأب سلطته على ابنه ولم تشعر الزوجة بأية قيود تربطها بزوجها ولم تر مانعا من اتخاذ الأصدقاء والخلان ٠ وصارت العفة أسطورة بعيدة عن واقع هذا المجتمع المادى أما التحرر الجنسى فهو تقليد هذا العصر ٠

يقول الأستاذ « ديورانت » فى وصف المجتمع الغربى (فالعلة الأساسية لهذه التغيرات الأخلاقية هى الثورة الصناعية التى كان لها يد ان خيرا أو شرا فى معظم كل تحول حديث ، فقد أخر قيام نظام المصانع الزواج لأنه جعل الفرد غير آمن وزادت الاباحية بهذا التأخر الداعر وبالقاء الملايين من الناس فى بحر حياة المدنية وما فيها من صلات مثيرة وستار المساواة ٠ كما أدى قيام المصانع الى تحرير (تصنيع) المرأة فنتجت عن ذلك عرضا تجربة الصلة الجنسية قبل الزواج ٠ والى اضعاف أثر الأسرة الأخلاقى والى استبدال الزهد والحرمان البيورتانى بالانغماس الابيقورى فى كل لذة وفى كل انحراف ٠ وتوافق نمو وسائل منع الحمل مع ظهور كل سبب من هذه الأسباب ٠ وتعاون واياها على العمل والتأثير ٠

وكما كانت ثورة عصر النهضة سبيلا الى تحريره وحريته وفنونه كذلك ثورة العصر الحاضر السائدة فى كل مكان التى فاقت كل ثورة أدبية هى التى بدلت قانون الحجاج القاسى بتساهل

النفوس المتحررة ويعد تغيير أيام الآحاد عندنا من أيام راحة وعبادة الى رحلات وأفراح وثنية لا حد لها ، دليلا واضحا على تبدل أخلاقنا وحياتنا المتحررة •

« وأكبر الظن أن هذا التجدد فى الاقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما يظن مع هجوم « دارون » على المعتقدات الدينية • وحين اكتشف الشبان والفتيات وقد اكسبهم المال جرأة أن الدين يشهر بملاذهم ، التمسوا فى العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين »(١) •

(١) مباهج الفلسفة • ديورانت • ص ١٣٣ ، ١٣٤ •

المبحث الأول

مذاهب الأخلاق

الانسان هو الوحيد فى هذا الوجود الذى يستطيع أنّ يراقب هواه وأن يجاهد نفسه ويضبط نزواتها وهو بذلك الوحيد الذى تنضبط أفعاله بقيم وواجبات وذلك هو مدلول الخيرية أو الوجــود الأخلاقى ٠

ولنعقد مقارنة عاجلة بين واقع الجاهلية المظلم ونور الاســلام المشرق على أن نتذكر دائما أن سبب هذا الافتراق هو الصورة التى يؤمن بها الانسان برسالته فى الوجود وغايته وفرق كبير بين حياة تقوم على الشهوات والأهواء وحياة تقــوم على الايمــان بالله واليوم الآخر ٠

نشأة وتكوين الأخلاق :

ان التناقض الذى وجدناه فى مختلف نواحى الحياة الجاهلية نجده أيضا فى مذاهب الأخلاق من البحث فى تفسير نشأة الضمير وتكوين السلوك الخلقى وغاية الأخلاق والدافع اليها ٠

١ ـ المذهب الفطرى :

ان المذاهب الأخلاقية امتداد طبيعى لمفهــوم نظرية المعرفة أو الوجود ٠ ونجد فى هذه الوجهة من المعرفة التطرف والتشتت كما هى عادة الجهد الانسانى اذا ما تعرض لقضايا الوجود ٠ وعند طرفى النقيض نرى الحدسيين (المثاليين) والتجريبيين من فلاسفة الأخلاق٠ والمذهب الحدسى يستند الى القول بوجود أفــكار فطرية موروثــة يعتبرها سابقة للتجربة ولهــذا سمى بمذهب الفطرة أو المعــانى الفطرية Opriovism or Nativism وأريد به فى الأخلاق الاتجاه الذى يرد قوانين الأخلاق وأحكام الضمير الى المعرفة الأولية السابقة على التجربة ٠

فالفطريون يرون الخيرية ذات مقاييس ثابتة لا يؤثر فيها اختلاف الزمان أو تغير المكان أى أن المستوى الخلقى الذى يحكم به على الخير والشر ثابت لا يتغير وان ادراكه يكون بالحدس كما تدرك بديهيات الرياضة ٠

وظهرت فى الضمير ثلاث نظريات :

١ ـ نظرية تصور الضمير على أنه حاسة أخلاقية ممثلة من الغرائز وخليط من الانفعالات والعواطف أى الوجدانات ، وهو فى قلب الانسان وليس فى رأسه ، وظيفتها ادراك خيرية الأفعال وشريتها واصدار أحكام تقيم هذه الأفعال ٠ وهى قوة باطنية تولد مع الانسان دون الحيوان وهى تشبه حاسة الجمال وقوة التفكير وأشهر دعاتها « شافتسبرى وهاتشيسون » ٠

٢ ـ ونظرية تصور الضمير ملكة عقلية مستقلة عن غيرها من ملكات الانسان وهى عند أصحابها ذات قداسة خاصة فى نوعها وطبيعتها وتميزها عن غيرها من الملكات لها سلطة مطلقة ترتفع فوق كل جدل منزهة فى أحكامها عن الخطأ والهوى وأكبر مؤيدى هذه الوجهة من النظر « بطلر » ٠

٣ ـ استبدل كانت بفكرة الخير مبدأ الواجب وعبر عن الضمير بالعقل العملى الذى تنشأ أحكامه لا من مقارنة أفعال الانسان بعضها ببعض بل بمقارنة فعل أو مجموعة من الأفعال بمبدأ عام يكشفه الضمير ٠ هذا المبدأ فطرى فى طبائع البشر لا يتغير ندركه حدسيا عن طريق الضمير المنزه عن الخطأ ٠ وهو لا يجىء كسبا فلا نعلم العقل العملى كيف يدرك الحق الواضح بذاته(١) ٠

٢ ـ المذهب التجريبى :

بينما نجد أن التجريبيين يخضعون نشأة الأخلاق الى عملية التجربة ولهذا رفضوا أن يكون الخير ضرورة فطرية كما رفضوا

(١) راجع الفلسفة الخلقية ٠ نشأتها وتطورها ٠ د٠توفيق الطويل ٠ ص ١٦١ـ ١٦٢ ٠

كذلك أن يكون ادراكه بالحدس لأنهم لا يؤمنون الا بالتجربة • ولهذا تصبح الأخلاق منهجا استقرائيا لا استنباطيا مثلها فى ذلك كمثل أى علم من العلوم الطبيعية • انه يفسر الاخلاق من الخارج بينما فسرها مذهب الفطرة من الداخل • وقد اختلف التجريبيون فى طريقة تحديد اكتساب الانسان للشعور الخلقي فقال بعضهم انه من اكتساب الفرد وقال آخرون من اكتساب النوع • فالأولون يرون الفرد مولودا غير مزود بشيء بينما الآخرون يرون أن الوراثة ينتقل معها هذا الشعور •

والوضعيون ـ وهم أصلا علماء اجتماع ـ شغلوا أنفسهم بمدى اتصال الحياة الخلقية بالحياة الاجتماعية ورغبوا بزعامة « أوجست كومت » فى اقامة علم الاجتماع علما وضعيا يصطنع المذهب التجريبى فى البحث ولكنهم لم يسيروا الى نهاية المطاف مع المادية التى تقوض المثل العليا • لهذا مدح فى المسيحية خلق الايثار ولكنه أخذ عليها أنها جمدت والعالم يجرى فى ركاب العلم فراحت ضحية للروح الكاثوليكية وجمودها وعالج على ذلك أخلاق الانسان من حيث هو كائن فعلا لا كما نتخيل وجوده • وصرف البحث على الحياة الدنيوية مستبعدا الاتجاه الأخروى •

وتجلت نزعة التفكير الوضعى فى البحث الأخلاقى عند اتباع المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى تزعمها « اميل دوركايم » فهو قد جرى فى ركب « كومت » وجعل اهتمامه بدراسة الظاهرة الاجتماعية على أنها تنشأ خارج الفرد وتملى عليه ارادتها وأنها تخضع لقوانين علمية موضوعية بعيدة عن أضواء الباحث وعواطفه لأنها من صنع العقل الجمعى Collective Mind وتمرد الفرد عليها لا يؤدى الا الى الانحلال والفوضى(١) •

ويشارك الوضعيون علماء النفس الذين فسروا الضمير الى الآثار التى نشأت من أحداث وقعت فى الطفولة المبكرة ثم نسيت

(١) نفس المصدر ص ٢٥٤ •

بمرور الزمن وهبطت الى اللا شعور عن طريق الكبت (اللا ارادى) Repression والى التعاليم الدينية والاجتماعية التى تلقن منذ الطفولة وينتهى « فرويد » مؤسس مدرسة التحليل النفسى الى أن الضمير هو الأنا المثلى الذى يمتص سـلطة الأب والمربين فيتقمص روحهم ويتكيف بالمجتمع ويفرض رقابته على الذات السفلى التى لا تعبأ بالقانون أو الأخـلاق وتتضمن استعـداداتنا الفطرية وميولنا العدوانية ورغباتنا الجنسية ونحوها(١) ٠

والداروينية ترى أن الضمير بـدأ توالده فى الحيوان حيث حتمت عليه حاجاته الحيوية القيام بنظام خاص فى معيشته وأورث هذا النظام ذريته حتى نشأ الانسان فكان حاصلا على ما ورثه من آبائه الحيوانيين فالضمير نما من املاء الحاجات عليه فى آحاد لا تحصى فلا يجب أن ننظر اليه فى الانسان الراقى المنتظم الجمجمـة والمنتظم الأعضاء وانما ننظر اليه فى تاريخه الطويل النابع من أصله فهو كما يقول الفيلسوف « هربرت سبنسر » نتيجة الملاءمة البطيئة التى تتم بـين الجنس البشرى وبين ظروف معيشـته فالخـير والشر انما هما تعبيران عن المنفعة والضرر ٠

وكانت نزعة « هيجل » واضحة فى اخضاع الأخـلاق لفكرة التطور فالفلسفة الهيجيلية تنكر بطبيعتها وجود أى مبدأ خالد ثابت لأن الأفكار والمؤسسات وفق قانون التناقض فى حالة تغير وتبدل مستمرين ٠

وكان ماركس صورة لهيجل فى رفض ثبات الأخلاق ٠ واعتبار الأخلاق انعكاسا للبناء الاقتصادى فهو الذى يحـدد الخير والشر ٠ ولهذا كان صراع الطبقات هـو المعين الذى نستنبط منه المذاهب الأخلاقية لأن الأخلاق تعكس مصالح الطبقة الحاكمة فهى اذا أخلاق طبقية منعكسة من عملية الصراع ولهذا كان الشىء الجـدير باسم

(١) نفس المصدر ص ٣٦٢ ٠

الأخلاق هو أخلاق المذهب الشيوعى والمجتمع الشيوعى حيث ينتفى الصراع بين الانسان والانسان وخلاصة المذهب ـ أن الأخلاق تتصل بالمطالب وليس للوجدان أى دخل فيها •

يقول « انجلز» فى كتاب آنتى دهرنج « ونحن لذلك نرفض أية محاولة تهدف الى فرض أى مذهب خلقى علينا مهما كان شأنه بوصفه القانون الخلقى الدائم النهائى الذى لا يتغير أبدا بحجة أن عالم الأخلاق له أيضا مبادؤه الدائمة التى تسمو على التاريخ وعلى الخلاف بين الأمم ، ونحن نقول على عكس هـــذا أن كافة النظريات الخلقية السابقة انما هى النتــاج ـ فى التحليل الأخير ـ للتطــور الاقتصادى الذى بلغه المجتمع فى تلك الفترة المعينــة من الزمن • وحيث أن المجتمع كان قد انتقل قبل ذلك الى خصومات بين الطبقات، فقد كانت الأخلاق دائما هى أخلاق الطبقات، وهى مبررات سيادة الطبقة الحاكمة ومصالحها والمصالح المستقبلة لمن هم ضحية الاضطهاد ، ولا شك أنه كان فى هذه العملية على وجه عام تقدم فى الأخلاق كما كان هناك تقدم فى كافة فروع المعرفة الانسانية الأخرى ، ولكننا لم نجاوز بعد أخلاق الطبقات ، وان الأخلاق الانسانية الحقة التى تسمو على الخصومات بين الطبقات وتراثها الفكرى لا تصبح ممكنة الا فى طور يبلغه المجتمع لا يتغلب فيه على الخلافات فحسب بل يكون قد نسيها فى حياته العملية » •

نقد :

وهذان مذهبان متطرفان • فليست القوانين الخلقيــة فطرية فحسب جبل عليها الانسان ، حقا يوجد ذلك العنصر الفطرى ولكنه ليس كل شىء ، انه مجرد احساس ودافع وجد بالقوة كما توجد فى الانسان قوة الســير عند ولادته ولا تبرز الا بالتعــلم ، ولو كانت الأخلاق فطرية فحسب لأدركها الانسان تلقائيا ولما احتاج الى من يبينها له أما رد الأخلاق الى العقل فيصطدم بأن الكمال غامض من حيث أنه غاية قصوى اذا ترك للعقل وحده تصوره •

أما المذهب التجريبى الذى ينكر نظرية الضمير فانه يغالط لأن نواته تظهر قبل أن يتمكن الانسان من تقدير نتائج الافعال • وهو لهذا لا يفسر لنا الشعور بالحياء الذى يعقب اقتراف الاثم •

ثم ان العقل الخلقى يصدر عن اختيار حر وتعقـــل للظروف وبدونه تنتفى التبعة الأخلاقية • ولقد وضح للكثيرين فيما بعـــد بطلان قانون الاطوار الثلاثة • الدين ـ الفلسفة ـ العلم • الذى بنى عليه « كومت » فلسفته وتبين المعاصرون من علماء الاجتماع أنفسهم تعسف دوز كايم فى الفصل القاطع بين الفرد والمجتمع • ان التجربة كما يقول رو Raich لا تخلق الضمير وان كانت تضعه موضع الاختبار • ولقد ذهب مارس موسى Marcel Mauss الى أن الانسان يتصف بجميع الصفات التى يتصف بها المجتمع باكمله •

ثم ان النزعة الاجتماعية قاصرة عن تفسير الأخلاق فالضمير الفردى قد يصطدم بارادة المجتمع وقد يتمرد على القيم الجمعية • وليس كل ما يطلبه المجتمع من الأفراد خيرا • لأنه اذا كانت كـــل ما تطلبه الغريزة ليس خيرا فكيف يكون كل ما يطلبه العقل الجمعو خيرا وهو تحركه الغريزة الجمعية ولا يخضع للتعقل نتيجة سيطرة النزعة الجماهيرية ، وما قال أحد أن الخير يصير خيرا برأى الغالبية والجمهرة ، فقد يكون رأى الغالبية خطأ بينا •

وهذا لا ينفى أن المجتمع المقيد بقوانين الأخلاق الالهية ينزع عرفه الاجتماعى الى الخير فى أمور الحيـــاة العادية التى سكت عن تفاصيلها القانون الالهى • لذا كان من أقوال الفقهاء « المعروف عرفا كالمشروط شرطا » لأنه فى هذا المجتمع الأخلاقى المنكر ينكره الناس والمعروف يعرفونه ويأنســـون اليه بالصدور عن المقاصد العـامة للشريعة •

والذاتيون يسقطون من حسابهم الجانب المشرق الوضـــاء فى طبيعة الانسان ، ويقفون عند الجانب البهيمى للبحث فى أوحـال ذكرياته النابية وأصوله العدوانية ورغباته الجنسية ونحوها ونسوا

أن الخير أصيل فى طبع الانسان وأنه ان زكاه أثرى حياته بالجمال وملأ ماضيه بالرضا فعاش بنفس مطمئنة هنية ٠

أما مذهب التطور فانه تنقصه حقائق كثيرة ٠ ان هناك مبادىء خلقية مطلقة لا تتغير على مدى الزمان فالصدق والايمان والعدالة والوفاء بالعهد مثلا كل ذلك صفات مدحتها الانسانية فى كل مرحلة من تاريخها ٠ ولا نستطيع أبدا أن نتصور وجود شخصية سوية تحسن الكذب والظلم والغدر والخيانة ٠ كذلك فى المجتمع نجد أن التعاون والتكافل والتحاب والمناصحة والعدالة تحظى بتقدير الجميع والمجتمع الذى يخيم عليه التشتت والتفرقة والفوضى والاضطراب والتحاسد والجور لا يحظى باحترام أحد ٠

ونتيجة لاستخدام الأدوات الهيجلية الهدامة فى الفكر الماركسى أصبحت الأخلاقيات ألعوبة فى أيدى ذوى النفوذ لتبرير المظالم والأخطاء ، وهذا نتيجة لفقدان القيم الدائمة والثابتة فى الأخلاق ٠ فاذا ظهر القصور وحلت الأزمات لبس ثوب العلماء وبررت بالنقائض وصياغات الفكر الجدلى التى لا تنتهى ٠ وكم قتل بهذا الأسلوب أبرياء ووئدت فضائل وأهدرت حريات وسبت أعراض وحجبت حقائق وبررت أخطاء ٠

ان التمرد على القيم الأخلاقية باسم الجمعية والتطور كان مفرخ الموقف التشاؤمى الذى انتهت اليه الفلسفة الوجودية المعاصرة Existentialism التى تنهار بها جميع القيم فى نظر الفرد فتنقرض القيم الشائعة فى كل صورها ويرفض كل سلطة تحاول أن تملى عليه وضعا ليؤكد حريته وارادته وهى دعوى انحلالية مفجعة(١)

ان التجربة تشهد بما يأتيه الناس بالفعل من تصرفات ولكنها لا تستطيع أن ترقى الى البرهنة على ما ينبغى أن يتجنبوه فلا بد من

(١) الفلسفة الخلقية ٠ نشأتها وتطورها ٠ د٠ توفيق الطويل ص ٢٦٧ ٠

وجود مبادىء خلقية لا تستند الى التجربة الحسية أما العلم بتفاصيل الواجبات الجزئية فانه موضوع الحس والتجربة في علم الأخلاق ٠ والخلط بين الجانبين يؤدى الى اضطراب الفهم وأيضا الى اضمحلال الأخلاق وربط الأخلاق بالغاية الالهية ينقيهـا من أدناس عبودية الشهوات والهوى وعبودية الناس والأشياء وهذه الغاية نفسها هى التى تمنحنا مرجعا ثابت الأركان لكل زمان ٠ هذا المرجع هو كتاب الله الذى يضىء الخطة المستقيمة فى كل شأن من شئون الحياة من أصغر أمر يهم انسان الى أكبر مسألة تعنى الأمة حيث تنطبق هذه الأصول على شئون الحياة المختلفة ٠

وهناك أيضا العنصر الذاتى الفطرى الذى يستحسن السلوك ويستقبحه وهو قد وجـد مـع الانسان منذ أن خلق ومنذ أن يولد « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »(١) ٠

ونواة الضمير فيما يبدو فطرية يشارك فيها كل كائن ناطق، وهى تظهر عند الانسان قبل أن يتمكن من تقـدير نتائج أفعاله وآثارها ـ أى قبل الاستبصار الذى وحد التجريبيون بينه وبين الضمير ـ لأن الميل الى الخير والنفور من الشر متأصل فى طبيعـة الانسان ، وبغير هذا يتعذر علينا أن نفسر طبيعة السلطة الخلقيـة أو نفهم الشعور بالحياء الذى يعقب اقتراف الاثم ، ومن هنا يبـدو خطأ الذين وحـدوا بين الأسف والندم فأصبح الشـعور باقتراف الذنب شبيها بالشعور بالخطأ فى مسألة حسابية ! (٢) ٠

يقول الأستاذ فلوجل : « ولقد أبرز البحث الكلاسيكى الذى أجراه « وب » S. Webb وجود عنصر يترتب عليه أن يكون أحد الأفراد على العموم أميل الى الاتساق وأيقظ ضـميرا وأكثر مثابرة

(١) سورة الشمس ٠ آية ٧ ـ ١٠ ٠

(٢) راجع الفلسفة الخلقية ٠ نشأتها وتطورها ٠ د٠ توفيق الطويل ص ٣٦٥ ٠

وأحرص على المبادىء من فرد آخر يغلب عليه أن تجرفه النزوات العابرة والميول العارضة والحماسات الموقوتة واسفر تحليله التفصيلي لهذه النتائج عن اضفائه تفسيرا خلقيا على هذا العامل الذى هو أشبه بعملية التحكم العمد منه بالتصرف التلقائى للنزعة الكريمة أو الطيبة ولقد سمى « وب » عامله هذا (W) ليظهر ارتياحه للارادة Will ومع تسليم علماء النفس وقتئذ بأن التقديرات قد أجريت بعناية فى ظروف ملائمة الى أقصى حد بواسطة حكام يعرفون الأشخاص موضوع التقديرآت حق المعرفة فقد أخذت نتائج « وب » ينظر اليها بعين الشك لأنها تعتمد على تلك الميول العامة التى تكذب مثل هذه التقديرات فى غالب الأحوال • ومع ذلك فقد أيدت الطرق الموضوعية فيما بعد تقديرآت « وب » الى حد كبير •

ومن هذه الطرق الموضوعية استعلام بشأن تربية الخلق Character Education Enquiry وهو استقصاء اجرى على نطاق بالغ الاتساع وعلى مستوى بالغ الحذق وكان سلسلة مبتكرة من اختبارات الحياة الواقعة من أنواع مختلفة من الخير « مثل الصدق ويقظة الضمير والتعاون والمروءة والمثابرة والامتناع على الاغراء والتسامح والتضحية بالنفس وضبط النفس » • وقد أجرى الاستقصاء على عدد ضخم من الأطفال الامريكيين وأسفر عن عودة ظهور عنصر عام هو عنصر التناسق أو الاتساق الذى يلعب دورا فى كل صور الخير فيما يبدو ، وقد نشأ خلاف كبير فى تفسير النتائج وربطها من جهة بالمسلمات السابقة للقائمين على الاستقصاء ومن جهة أخرى لمستلزمات الطريقة الاحصائية ولكن معاودة النظر فى هذه النتائج تبين اتفاقها الكبير مع نتائج « وب » • وخلاصة القول ان أدق طرق البحث الممكنة الآن قد أوضحت وجود شىء شبيه بفكرة الناس عن الضمير »(٣) •

---

(١) الانسان والأخلاق والمجتمع • جـ • كارل فلوجل • ترجمة : عثمان نويه ص ٣٨ ـ ٣٩ •

هذا حديث انسان يعيش فى ظلمـات الغرب أدرك رغم ذلك قبسا من نور الحقيقة وهي ذلك الدافع الفطرى فى الانسان « الفؤاد » وصدق الله العظيم : « الذى احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون »(١)٠

عن وابصة بن معبد قال : أتيت رسول الله صـلى الله عليه وسلم فقال : « جئت تسأل عن البر ؟ ٠ قلت نعم ٠ قال : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وان افتاك الناس وافتوك »(٢) ٠

ومن ناحية تكوين السلوك الخلقي ليس العلم وحده هو طريق السلوك الخلقى ، فمعرفة الأخلاق غير السلوك الخلقى ٠ وليس من الضرورى أن يكون العلم بالفضيلة مؤديا الى ممارستها ٠ حقا ان الجهل بمعرفة الفضائل يؤدى الى الزلل ولكن هذا شيء وكون معرفة الشر يؤدى الى اجتنابه شيء آخر فالخمر مؤذية بالصحة كما يقول العقل والعلم ولكن هل يمنع العقل وحده الانسان من شرورهـا فضلا عن أن العقل عاجز عن أن يضع منهج الأخلاق الخالد المناسب مع كل زمان ومكان لأنه أمر فوق طاقته ٠

ولا يستطيع الضمير وحده أن يحقق طبيعة الخير والشر دون أن يربي عليهما ٠ فالضمير طاقة خام تدفع الى الرقابة وحافز هام على عمل الخير٠ولكنها لا تستطيع أن تصدر حكمها الا اذا عرفت الخير من الشر ودربت على مقاييس الأخلاق الوسط فتكونت لديها قدرة على معرفة الخير والأمر به ٠ فاننا كثيرا ما نحكم على شيء بالخير أو الشر قبل أن نشعر به أو نحس بعاطفة نحوه ثم ان اختلاف الناس فى تقدير القيمة الأخلاقية لبعض الأعمال يدل دلالة واضحة على عدم اتحاد الادراك الأخلاقى ٠

---

(١) سورة السجدة آية ٧ ـ ٩ ٠ (٢) رواه أحمد والدارمى ٠

يقول الأستاذ فلوجل « انه لا توجد علاقة مباشرة بين المعرفة والذكاء من جهة وبين السلوك الخلقى من جهة أخرى فالعلاقة بينهما غير مباشرة • ان المعرفة والذكاء يعينان كثيرا فى اقرار المبادىء وفهمها وهذا أمر هام جدا فى معرفة الواجبات كما رأينا ، على أن أداء الواجبات يعتمد على عناصر وجدانية نزوعية قد تكون موجهة الى هذه الغاية أو لا تكون ولا يكفى لكفالة السلوك الخير مجرد معرفة الشخص لما هو صواب أو حتى مجرد القبول العقلى لصحته ومع ذلك فثمة علاقة ايجابية بسيطة بين المعرفة والذكاء من جهة وبين السلوك الخلقى من جهة أخرى ولعل السبب فى ذلك أن المعرفة والذكاء يسهلان التنبؤ بالنتائج الكاملة للتصرفات ، واصطناع بعد النظر الذى يهدى الى أن حسن الخلق تبرره عموما نتائجه الطيبة »(١) •

ولكن هذه العناصر تمثل الاستعداد والادراك ولا تصل الى القدرة على وضع المبادىء الأخلاقية الثابتة لأنه لا بد أن تكون المبادىء الأخلاقية التى يتكون منها السلوك الخلقى مبنية من مصدر عليم بالزمان كله والكون بأكمله • فالأخلاق ما هى الا منهج حياة تتصل بالماضى والمستقبل وترتبط بحركة الكون كله والانسان محدود العلم والطاقة ، لن يستطيع أن يحدد منهجا أخلاقيا يلائم الناس جميعا فى زمان معين وفى كل زمان على مدار العصور والأيام ــ والله وحده العليم الحكيم ، هو القادر على ذلك • ذلك لأن الفكر البشرى بعجزه الواضح وقصوره الادراكى ينظر الى الموضوع من زاوية واحدة فيظنها كل شىء وينحرف بذلك عن الحق والخير •

فلابد أن تتحدد الأخلاق بسنة الله التى أمر بها الانسان وهى السنة الوسطية يقول ابن قيم الجوزية « للأخلاق حد متى جاوزته صارت عدوانا ومتى قصرت عنه كانت نقصا ومهانة ، فللغضب حد

(١) الانسان والأخلاق والمجتمع • ص ٤٠ ، ٤١ •

هو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائض وهذا كمال اذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار ، وان نقص عنه جبن ولن يأنف من الرذائل • وللحرص حد وهو الكفاية فى أمور الدنيا وحصول البلاغ منها • فمتى نقص عن ذلك كان مهانة واضاعة ومتى زاد عليه كان شرها ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه • وللحسد حد وهو المنافسة فى طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره فمتى تعدى ذلك صار بغيا وظلما ويتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على ايذائه ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصغر نفس »(١) •• فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهى فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو داخل فيها • قال تعالى : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله »(٢) ، « فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلا وبالله التوفيق »(٣) •

غاية الأخلاق :

وتتأثر غاية الأخلاق أيضا بمذهبين متطرفين • المذهب الأول هو الذى يعتبر أن الدنيا غاية فى ذاتها • ومن ثم عرفوا الغاية الخلقية بأنها السير وراء اللذة ومجانبة الألم • فاذا شعر الفرد بحاجته الى لذة من اللذات الحسية وجب عليه أن يعملها فورا •

ويلتقى النفعيون عند القول بأن اللذة أو المنفعة هى وحدها الخير الأقصى أو المرغوب فيه لذاته دون نتائجه والألم وحده هو الشر الأقصى • فالخير لا يوجد الا اذا حقق أو توقع أن يحقق نفعا من ورائه فأصبحت المنفعة مقياس الخيرية ومعيار التقييم ومن أصحاب هذا الاتجاه من تطلع الى تحقيق اللذة أو المنفعة الفردية ، حسية

(١) مدارج السالكين • جـ٢ ص ١٢٤ •

(٢) سورة التوبة • آية ٩٧

(٣) نفس المصدر ص ١٢٦ •

عاجلة ، كما ذهب القرنائية ـ أو حسية وعقلية وروحية كما أراد الابيقورية وهى فى كل الحالات منفعة شخصية فردية فيما بدى من مذهب « هوبز » ... (١) .

ولكن المنفعة الفردية تحولت عند المحدثين الى ضرورة العمل لمصلحة المجموع فطالب أصحاب مذهب المنفعة العامة بتحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس ونشأت نواة الاتجاه قبل « هوبز » على يد « فرانسس بيكون » . ولكن هؤلاء باستثناء « بيكون » كانوا من الحدسيين العقليين ، وكان رائد المنفعة العامة فى صورتها التجريبية « جيرى بنتام » الذى أراد أن يحول الدراسات الأخلاقية الى علم واقعى بافتراض ان حياة الانسان تخضع لدوافع نفسية تتمثل فى وجدانات اللذة والألم(٢) متأثرا بروح العصر النيوتينية فافترق عن الحدسيين اللذين يعلقون خيرية الأفعال على بواعثها بتعليقه لها على نتائجها وآثارها .

ويدخل المذهب البراجماتى تحت المدرسة النفعية لأنه يعتبر النتائج العملية هى غاية الأخلاق والنجاح المادى هو مقياس صحة التفكير .

وبينما ظهر كتاب « مل » فى مذهب المنفعة العامة عام ١٨٦١ نشر دارون قبله بعامين كتابه أصل الأنواع وعليه حاول بعض الأخلاقيين تطبيق قانون الانتخاب الطبيعى على الأخلاق وقيمها العليا وتمثلوا الكمال الأخلاقى قائما فى نهاية تطور الانسان الطبيعى ولم يسعف قانون الانتخاب الطبيعى « دارون » فى تفسير التطور الروحى عند الشعوب المتمدينة التى تفرغ جهدها فى المستشفيات والملاجىء لحماية الضعفاء حتى أنه آثر فى كتابه تسلسل الأنواع Descent of man أنه ليس فى وسعنا نحن المتمدينين أن نوقف تيار التعاطف الوجدانى تحت أى ظرف مالم نقض على أنبل جزء فى

(١) راجع الفلسفة الخلقية . نشأتها وتطورها . د. توفيق الطويل ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩٣ .

طبيعتنا(١) · وسار « سبنسر » على قاعدة « دارون » ليحدد غاية الأخلاق بأن السلوك الخير هـو الذى ينزع الى ترقية التلاؤم بين الانسـان والبيئة وبمقدار توفيقه أو اخفاقه يكون خـيرا أو شرا وانتهى الى الغاية فى التطور يوم يبلغ الانسان فى حياته درجـة تختفى من حياته الحاجة التى تؤدى الى النزاع على البقاء وكان من آثار اخضاع المبادىء الخلقية لمنطق التطور الأعمى أن أصبح الانسان عنده يتعارض مع قانون الطبيعة الذى يقول ببقاء الأصلح ويفضى للانحطاط · والزكاة والضرائب ظلم وافسـاد والتعـاون والمحبة والانسانية ضلال مبين(٢) ·

وأوصل « نيتشه » الطريق لمنتهـاه ليمجد أخـلاق القـوة والبطش · ويرى أن الانسان الكامل (سوبرمان) ذو قوة فائقـة تمكنه من تحقيق كل رغباته بقطع النظر عما يكون لها من عواقب ويدعو لأن يعمل قانون الانتخاب الطبيعى فى القضاء على الضعفاء وحمل على الاحسان والمواساة وسماها أخلاق العبيد لحماية الضعفاء فالغاية هنا محدودة بالمنفعة الانسانية حيث تصور الحياة على أنهـا صراع من أجل البقاء للأصلح(٣) ·

والمذهب الآخر يعتبر الحياة الآخرة هى غاية الحياة وأن الحياة الدنيا كلها دنس فيبتعد عنها ما استطاع ويعيش منزويا فى المغارات يلبس أحط الثياب ويأكل أدنى المأكولات ويعتزل النساء · بل نجد منهم من يعذب جسده بألوان العذاب ويهينه كل الهوان لاعتقاده أن الجسد يعوق الروح وأنه لا نمو للروح الا باتلاف الجسد ·

نقـــد

ولقد استهدف المذهب النفعى لسيل من حمـلات النقـاد · فالتجربة تشهد بأن الناس كثيرا ما يأتون أفعالا تثير الألم أو لا تحقق اللذة ولا المنفعة وكثير من الميول الفطرية يسبب لصاحبه ألما كغريزة

(١) نفس المصدر ص ٢٢٢ ·
(٢) نفس المصدر ص ٢٢٦ ·
(٣) نفس المصدر ص ٢٣٢ ·

الأمومة . ومن الخطأ أن توضع اللذة كغاية قصوى للأفعال الانسانية لأن هذا أنسب للحيوانات واللذة للانسان وسيلة لغاية تسمو عليها . وما صعدت الحضارة الا بغذاء التضحية باللذات العاجلة والبناء للمستقبل . وهناك خلط كبير بين اللذة والمنفعة والسعادة . فمن اللذات ما يجلب الضرر ومن الآلام ما يجلب النفع(١) .

أما محاولة تفسير الحياة الخلقية بنفس الطريقة التى تفسر بها الصفات الجيولوجية فخطأ لأن علم الأخلاق ليس علما تاريخيا ولا معمليا . وانما هو معيار لتقييم المثل الأعلى كغاية للسلوك الانسانى ولا يعنى بالبحث فى نشأته وأصله . ان التلاؤم والتكيف الانسانى مع البيئة يحدث تلقائيا والذى يتطلب الجهد هو تعديل البيئة حتى تبدو على اتساق مع المثل الأعلى وهو جهد يعوزه المثل الأعلى حتى يوجد الوازع لبذله . ويخلط دعاة التطور بين الخلق بمعناه البيولوجى والخير بمعناه الأخلاقى لأن الأول يتم دون تعقل وارادة من الانسان أما الثانى فلا يتم الا بهذين الركنين : التعقل والحرية . والفضيلة لا تورث ولكنها تكتسب فى ضوء العقل ولا تلقن بنداء الغريزة . أما نيتشه فقد ارتد بالانسان الى مجتمع الوحوش ونسى أن الفضائل التى ذمها تحتاج الى نفس قوية أقوى مما تحتاجه فضائل ايجابية على حسب تقسيمه(٢) .

والمذهب البراجماتى قاصر عن ربط النجاح الجزئى بالغاية العامة للمجتمع والتاريخ فقد ينجح رجل الأعمال فى تحقيق ربح من انتاج طائرات الفانتوم فى أمريكا مثلا . ولكنه يخرب بها فى بلاد أخرى ويقتل أبرياء وقد يؤدى ذلك الى خراب العالم كله .

ولا تستطيع الروح وحدها أن تعيش دون محافظة على الجسد، فلا حياة للانسان ما لم يأكل ولا بقاء له الا بالنسل . وتعطيل دفعة الحياة ضلال ومحاربة لسنن الله فى خلقه .

---

(١) نفس المصدر ص ٢١٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٥ .

والنظرة الحق هى نظرة الاسلام الوسط فالروح والمادة تعيشان فى وحدة عن طريق التعاون للقيام بالخلافة فلا افراط بالأخذ من المادة ولا تفريط فيها فى وسط تكون الدنيا فيه معملا للروح يعبد فيه الله تعالى فتعرج الروح الى مدارج الكمال ، وغايتها رضاء الله والجنة ، ومن هنا كان الخير فى الاسلام هو الوسط الفاضل • انه الايثار مع المحافظة على الحياة • وكان أخذ الدنيا بالحلال خيرا جنبا الى جنب مع الصلاة والذكر ـ فيكون مفهوم السعادة هنا هو تقوى الله فى النفس وفى المجتمع لا فى اللذة أو المنفعة ولا فى الرهبانية أو اذلال الجسد • وطريق هذه التقوى هو الاستسلام والخضوع لحكم الله فى الأمور كلها • وبهذا فقط يتحقق الكمال الفردي والانسانى• وهذا هو الخير • فالخيرة ما اختارها الله •وصدق الله العظيم « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون »(١) •

وهذا هو السبب فى أن الاسلام يعمم كلمة الخير على كل عمل صالح نجدها حتى فى العلاقات المادية حيث يصفها القرآن بأنها خير • يقول الله تعالى « يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما انفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم »(٢) • « وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزود التقوى واتقون يا أولى الألباب »(٣) •

من هذه المقارنة جميعا نستطيع أن نخرج بأن الخير هو الاسلام أى الاستقامة على أمر الله الذى انزله لهداية الناس فى مرحلة الابتلاء فى الحياة الدنيا وهذه هى نقطة الافتراق بين العمل الاخلاقى والعمل الغير أخلاقى •

---

(١) سورة القصص آية ٦٨ •
(٢) سورة البقرة آية ٢١٥ •
(٣) سورة البقرة • آية ١٩٧

« هذه الغاية لاتقف على أن ترفض وتبطل الغايات والأهداف التي قد قررها لحياتهم محبو اللذة والمتعة وعشاق المادة وعباد القومية والوطنية ومن على شاكلتهم من المولعين بكل عبث وفضول بل ترفض كذلك رفضا باتا الغايات المهملة التي قد وضعها أتباع النحل ورجال الأديان متاثرين بما قد سيطر وأخذ بمجامع فكرهم من تصور مخطىء للروحانية وبين هذين الطرفين المتناقضين البعيدين عن القصد والاعتدال ، يضع تصور الخلافة والنيابة بين يدى الانسان من الغاية العليا والهدف الأسمى ما ينشط جميع قواه للعمل ويستحث جميع مواهبه وغاياته للسعى والكفاح فى كل حلبة من حلبات الحياة ويستخدمها فى اقامة أصلح نظام للمدنية والثقافة وترقيته للمدنية »(١) .

ونتيجة لهذا الفهم تتحقق نتيجتين هامتين لا نحصل عليهما فى أى نظام آخر « أحدهما أنه بهذا التصور تثبت المبادىء الخلقية غاية الثبات وتستحكم استحكاما لا تزلزل فيه ولا اضطراب والأخرى أن يتأتى بذلك لسيرة الانسان وسلوكه الخلقى قرار وتمكن لا يخشى عليه من الميل والعدول ما دام الانسان ثابتا فى الدين وقلبه مطمئنا بالايمان »(٢) .

دافع الأخلاق :

ويتصل بالبحث السابق تعارض آخر بين افراط وتفريط . هذا التعارض هو هل ترجع سلطة الأخلاق الى عنصر خارجى ؟ الى عوامل قهرية ليس على الفرد الا أن يطيعها أم الى نزعات ذاتية صادرة من تلقاء نفسه ؟

فمثلا « هبز » الفيلسوف الانجليزى يقول بمذهب السلطة المطلقة ممثلة فى الدولة التى تعطى أوامرها فى جميع شئون الحياة ويسلم لها بالحق فى تقرير الأفعال الانسانية ــ نوعها واتجاهها ــ

(١) نظرية الاسلام الخلقية أبو الأعلا المودودى . ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) نفس المصدر .

وبهذا فان أصل السلوك الأخلاقي عنده انما يرجع الى أوامر قاهرة ليس لها من الصحة الا من أن الفرد يطيعها ويخضع لها ٠

ومذهب النزعة الذاتية يرجع أصل السلوك الخلقى فى الفرد الى نزعات وأفكار ذاتية صادرة عنه من تلقاء نفسه وهو ما يسمى بالمذهب الطبيعى فى الأخلاق الذى يرى أن هذه الأخلاق الطبيعية أقيم من كل ما عداها وأنها مثال للفضيلة اليسيرة السعيدة الذى ينبغى اعتبارها المثل الأعلى ٠

نقــد

وهذان أيضا مذهبان متطرفان ٠ فرد الشعور الخلقى الى السلطة الخارجية يؤدى الى فقدان الاحساس الذاتى للأخلاق والذى يعطى الأخلاق طابعا حيا ٠ ان الذى يكف عن ارتكاب الجريمة لأن القانون يحرمها ليس عنده احساس ذاتي يمنعه من ارتكاب الجريمة ان ضاع سلطان القانون وهو لا يحس بأى دافع لواجب أخلاقى يمنعه من ارتكاب أى جريمة لا يصل اليه فيها القانون ٠

ومذهب الذاتيين نجد فيه أن الخير فى ذاته يخالف آراء الناس فى الخير واختلاف الناس على كروية الأرض لا يعنى أن ليس للأرض شكل ! ٠ فآراء الناس يمكن أن تتأثر بالاعتبارات الشخصية الاجتماعية والاقتصادية ونحوها ، ولكن وراء هذه الاعتبارات الذاتية تقوم الحقيقة ٠٠٠ بل ان الأخلاقية تنشأ حين يصطرع الواجب مع الهوى ويصطدم العقل مع المشهود ، ومن الضلال أن نتصورها مجرد مسايرة لرغبات الانسان وشهواته(١) ٠

واذا ترك الأمر الى الضمير فحسب أدى ذلك الى الاضطراب لأن الضمير مجرد باعث يحتاج الى تربية تعوده على الفضائل ومعرفة تبين له معالم الخير والشر ٠ واذا أسرف فى استعماله عقد حياة صاحبه بدلا من صيانتها ٠ (ان الرقيب يجاوز حده فى هذه الأحيان ٠ وان شأنه كشأن المدرب الذى أرهق فريقه الرياضى

(١) الفلسفة الخلقية ٠ نشأتها وتطورها ٠ د٠ توفيق الطويل ٠ ص ٣٦٧ ٠

بالتدريب فأدى بذلك الى انهيـاره لا الى زيادة مقدرته فلقد بالـغ الرقيب فى تقديره لطاقة الانسان على الرياضة الخلقية فأدى به الى الأمراض العصبية لا الى القوة الخلقية السليمة)(١) ·

فلكي يحقق الانسان الخـير اذن لا بد أن يفرض عليه عامـل خارجى بالاضافة الى الدافع الداخلى · ولهذا وضع الاسلام حـدودا للحلال والحرام فأمر ونهى ووعد وأوعد وفرض عقوبات متفاوتة على المخالفين والعصاة فى الدنيا والآخرة ·

ومع هذا الوازع الخارجى فانه يربى الوازع النفسى على خشية الله وخوف اليوم الآخر فعقيدة الايمان بالله واليوم الآخر تنشىء فى قلب الانسان حارسا من الشرطة الخلقية يدفعه الى العمل وتنفيـذ أوامر الله تعالى سواء وجدت السلطة الخارجية أم لم توجد ·

وعالج الاسلام اسراف الضمير فى الزجر والتأنيب والرقابة · فذكر القرآن دائما أن الله غفور رحيم وأن رحمته وسعت كل شىء وأن « لا يكلف الله نفسا الا وسعها »(٢) · يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله · قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ · قال : ولا أنا ، الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل »(٣) ·

---

(١) الانسان والأخلاق والمجتمع · ص ٥٤ ·

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦ ·

(٣) رواه مسلم ·

المبحث الثاني

أسلوب التربية

التربية الاسلامية تبدأ من داخل النفس لا من خارجها فيكون الاصلاح نابعا من أعماق الضمير لا مجرد مظهر خارجي • والانسان لا يحجم عن الواجب لأن العقل ينكره ولكن لأن الطبع لن ينشط له والتربية النفسية تحرر الطبع من عادات الأنانية والأهواء الفاسدة لذلك كان الضمير فى الاسلام مكملا للتشريع لأنه هو الكفيل بتنفيذ هذا التشريع عن طواعية ورضا •

ولقد اختلف علماء الاجتماع فى تبرير الانهيار الخلقى فمنهم من رده الى الفقر ولكن وجد أن الجرائم فى أمريكا يرتكبها الاغنيــاء وقيل أنها الحرب ولكن لوحظ كثرة الجرائم فى سويسرا أو أسبانيا والبرتغال وهى دول كانت محايدة بنسبة أكبر من ألمانيا ، وليس من سبب اذن للانهيار الخلقى غير اختفاء التربية القائمة على وازع الدبن •

يقول الاستاذ « ثيو لينتز » : (وانا لنرى فى العــالم اليوم اتجاهين يبشران بأن يهيآ له قصداً معنويا يصلح لان يحل محل الحرب فى جمع الشمل والسمو بالنفوس الى مرتبة التضحية ،وأول هذين الاتجاهين الأخذ بأسباب الدين ، وثانيهما الأخذ بأســباب العدالة الاجتماعية • فالدين عامل من عوامل التوحيد فى الشعور وهو عامل وان كان خفيا لا يمكن تصويره باللفظ يجعــل للناس معايير واحدة يقيسون بها قيمة الأشياء ، وبهــذا يجمع كلمتهم ويقرب ما بين قلوبهم • فنحن اليوم نقلب وجوهنا قبــل المشرق والمغرب فى حيرة تلتمس رعاية جديدة توجهنا الى الخير ، وقد نجد فى الدين ، تلك الزعامة الجديدة التى توجهنا الى الخير على أن ذلك يتطلب اصلاحا كثيرا فى فهم الدين فانما المقصــــود هو الجوهر الصافى الذى لم تشبه شوائب الخرافة أو الجمود فاذا ما صفى الدين

الصحيح من تلك الشوائب كان هو والحياة الصالحة معنى واحدا ٠ وأما الأخذ بأسباب العدالة الاجتماعية فله حديث آخر ٠ فالذين يزعمون انهم قد أخذوا بتلك الاسباب قد أساءوا الى معنى العدالة الاجتماعية باخفاقهم فى فهمه ، وكان السبب فى اخفاقهم فى فهم ذلك المعنى ٠ هو انصرافهم الى الجانب المادى منه وذلك أثر من آثار اتباعهم لمخلفات القرن التاسع عشر من مذهب ماركس فهؤلاء لا يعيرون التفاتهم الى الجانب الروحى أو المعنوى من العدالة ٠»(١)

ان الجاهلية المعاصرة تتردى فى مهاوى الرذيلة وتعصف بها آفات الهوى لأن مبادئها خلت من الايمان بالله واليوم الآخر « قاعدة العمل الصالح » ٠

أثر العقيدة :

وتأثير الايمان بالله فى السلوك الأخلاقى يتبين فى قوله تعالى : « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم »(٢) ٠ ويتلخص المثل الأعلى فى حقيقة لا اله الا الله ٠ فالله وحده هو المثل الأعلى الذى يقاس عليه فعل الخير « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه »(٣) ٠ وقد جاء القرآن الكريم بكثير من أسماء الله الحسنى التى قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم٠ «ان لله تسعة وتسعين اسما ـ مئة الا واحدا ـ من احصاها دخل الجنة »(٤) ٠

ففى أسماء الله تعالى صورة واضحة للحياة الخلقية الكاملة فالله رؤوف رحيم ودود يحب فى عباده الود والرحمة والرأفة « وتترفع ذاته عن صفات الظلم والضيم وضيق النظر وحرج الصدر ويتنزه عن القساوة والفظاظة والتعصب والميل الى جانب دون آخر ،

(١) نحو علم السلام ٠ ص ١٩٧ ٠

(٢) سورة النحل آية ٦٠ ٠

(٣) سورة الاعراف آية ١٨٠ ٠

(٤) رواه البخارى ومسلم ٠

ومن ثم لا يحب الا من كان بريئا من تلك المفاسد ، نزيها من تلك المساوىء والرذائل ، هذا وان العظمة والكبرياء كلها لله تعالى من غير منازع ، فالله لا يحب للانسان أبدآ أن يتكبر فى أرضـه بغير حق . وهو الاله الواحد الذى لا اله الا هو ، وجميع من فى هـذا العالم عباد له على السواء ولأجل ذلك لا يرض لأحد منهم أن يتبوأ من عباده الآخرين منزلة الاله المطاع والآمر المطلق وهو وحده مالك كل شىء فى السماوات والأرض وأما ما عند الانسان فى هذه الدنيا، فليس آلا أمانة من عند الله قد ائتمنه عليها فلا يجوز لأحد من عباده أن يستبد ازاء الله تعالى بالحكم والأمر ، أو يتصدر فيسن لخلقـه قانونا ويضع لعباده شرعا ودستورا أو يقوم منهم مقام المتبع المطاع فى ذاته ، فان الله تعالى وحده هو المتبع المطاع للخلق أجمعين . وكل الخير لجميع البشر فى أن يطيعوه اطاعة كاملة ويذعنوا لأمره آذعانا تاما والله تعالى بعد ذلك ممتن عـلى عباده ومحسن اليهم فيجـدر بالانسان أن يقوم بحمده وشكره وأن يحبه ويتقرب اليه ، وهـو المنعم الحقيقى فيستحق ألا يتصرف الانسان فى نعمه وآلائه الا وفقا لمشيئته . وهو المنصف العادل المحتم على الانسان أن يتقى فى عدله العقوبة وشر الجزاء كما يلزمه أن يرجو من نصفه خير ثواب وحسن الجزاء . ثم هـو العـليم الخبير الذى لا يعزب عنه مثقـال ذرة فى السماوات والأرض ويعلم ما فى الصدور فهيهات أن يخدعه الانسان بما يتظاهر به من دماثة الخلق وما يتكلفه من سماحة الطبع . وهو المحيط بعباده « فلا يحسبن أنه يمكن أن ينجو من بطشه اذا اقترف اثما »(١) .

والاقرار بالتوحيد يؤثر فى خياة الانسـان تاثيرا شـديدا فالايمان بلا اله الا الله ينشىء فى الانسان من الأنفة والعزة على أعداء الله ما لا يستطيع به بشر أن يخضعه لهواه أو يستذله لشـهواته

(١) نظرية الاسلام الخلقية . ص ٥٧ ، ٥٨ .

كما انه يوجد التواضع فالذى يقول بالتوحيد لا يمكن أن يكون بطرا متكبرا وهذه صفة المؤمنين « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »(١) • والذى يؤمن بهذه الكلمة لا يعلم طريقا للفلاح سوى العمل الصالح لأنه وحده الطريق لرضاء الله والجنة كما انه لا يتسرب اليه اليأس ولا يقصره القنوط لأنه يؤمن ايمانا ينعم على قلبه بطمأنينة غير عادية الى غير ذلك من أخلاقه المؤمنة المستمدة من حقيقة الألوهية • ان الايمان بالله يؤدى الى الحرية والاطمئنان لأنه يحرر الانسان من الخوف على الحياة أو الأذى وهما وسيلتا استعباده •

وهو يؤدى الى الكرامة لأن احساس الانسان بأنه نفخة من روح الله يحس معها بميزته على الوجود الحيوانى والمادى •

وهى تؤدى الى ضبط النفس فلا يحس الانسان انه عبد لشهواته بل هو سيد لها يوجهها كما أراد الله •

وهى تؤدى الى النظافة لأن صاحبها بايمانه بالله لا يسلك الطرق المشبوهة أو يعرض نفسه للهبوط •

وهى تولد الاحساس بالمسئولية بفهم معنى خلافته فى الأرض داعيا الى الخير •

وهى توجد الانفعال الدائم بوازع الله فى قلبه فتنبع الأخلاق من ذاته لا خوفا ولا طمعا •

والجزاء فى اليوم الآخر يعلق قلب الانسان بحياة الخلود لا بالحياة الدنيا، فتصبح نتائج الأعمال فى الدنيا ليست هى مقياس الخير والشر وانما ما يثاب عليه المرء فى الحياة الآخرة• « وذلك أن من يتقبل هذا التصور للحياة الآخرة وتستيقن به نفسه فانه لا محال يصير بها على اتباع القوانين الخلقية ويعنى بالتقيد بها فى جميع الأحوال سواء أكانت نتيجته ظاهرة فى هذه الدنيا حسنة أو سيئة وسواء أكان نصيبه من ذلك فوزا أو خسرانا • وليس المراد بذلك أنه لا يأبه

(١) سورة المائدة آية ٥٤ •

البتة لما يظهر فى هذه الدنيا من نتائج الأعمال وثمراتها ولا يهتم بها بل الأمر أنه لا يهتم لهذه النتائج العارضــة والثمرات الزائلة التى لا تحصل فى هذه الدنيا الا بقدر معلوم ، وأما ما يستوفى عنايته به ويبالغ فى اهتمامه له ، فهو النتائج الأخروية والعواقب الأبدية الباقية »(١) ٠

اثر الشعائر :

العبودية لله كما رأينا هي التى تحرر الانسان وهى التى تحقق الفلاح أيضا « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صــلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حــافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غــير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعــون والذين هم على صــلاتهم يحــافظون أولئك هم الوارثون »(٢) ٠

والعبادات بصلاتها التى فرضها الاسلام وبزمان أدائها تؤدى الى تدريب النفس على قوة الارادة وشحذ سلطان الاختيار فتنجو من أخطار العبودية للشهوات كما أنها تنمى روح المشاركة الجماعيــة حيث أنها فى غالبها تؤدى فى شكل جماعي ٠

فالصلاة يتجه فيها الانسان خاشعا الى الله فيشعر بالضعف والقوة ، انه يشعر بالضعف أمام الله فيخــافه ثم يحجم عن الشر ويقبل على الخير ٠ ويشعر بالقوة لأن الله بيده الأمر من قبل ومن بعد فلا يذل انسان لانسان لأن الصلاة تقوم على حسن الصلة بالله خالق الكون ومدبره ، يقول الله تعالى : « ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين »(٣) ٠

(١) نظرية الاسلام الخلقية ص ٦١ ٠

(٢) سورة المؤمنون ٠ آية ١ ـ ١٠ ٠

(٣) سورة المعارج آية ١٩ ـ ٢٢ ٠

والصلاة تتيح للانسان أن يعيش فى أمل مستمر لا يأس فيه لثقته بالله عز وجل فينفس عن مطالبه ومشاعره بالصلاة ، يلتمس القوة من الله فلا يعرف القنوط الى قلبه سبيلا ، لهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستريح بالصلاة . والله تعالى يأمرنا بالاستعانة بها في الشدائد « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين »(١) .

والصلاة تبث في الانسان الأمن بعد القلق لأنه يشعر فيها بأنه قد اتصل بغاية وجوده . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا بلال أرحنا بالصلاة »(٢) .

يقول اقبال « على أن الغرض الحقيقى من الصلاة يتحقق على خير وجه عندما تكون الصلاة جماعة . فروح كل صلاة روح اجتماعية ، حتى الراهب يعتزل جماعة الناس لعله يوفق فى محرابه الى صحبة الله والجماعة أو الطائفة المتعبدة هم أناس اجتمعوا معا يحييهم أمل واحد فيجمعوا أمرهم على هدف مقرر وبفتحون أعماق أنفسهم لتلبية باعث واحد ، وانها لحقيقة سيكولوجية أن الاجتماع ينمى قوى الادراك عند الرجل العادى ، ويعمق شعوره ويحرك ارادته الى درجة لا يعرفها في عزلته ووحدته وفى الحق أن الصلاة باعتبارها ظاهرة سيكولوجية ما زالت سرا خفيا ، وذلك لأن علم النفس لم يكشف بعد عن القوانين الخاصة بتزايد الحساسية الانسانية فى حالة التجمع على أن الاسلام يعنى عناية خاصة بطبع الهواية الروحانية بطابع الاجتماع عن طريق صلاة الجماعة . واذا انتقلنا من صلاة الجماعة كل يوم الى الحفل السنوى حول المسجد الحرام فى مكة فانك تدرك فى سهولة ويسر كيف تفسح مناسك الاسلام مجال الاجتماع الانسانى .

(١) سورة البقرة . آية ١٥٣

(٢) رواه أحمد .

فالصلاة اذن سواء في ذلك صلاة الفرد أم صلاة الجماعه هي تعبير عن مدنون شوق الانسان الى من يستجيب لدعائه في سكون العالم المخيف •

وهي فعل فريد من أفعال الاستكشاف تؤكد به الذات الباحثة وجودها في نفس اللحظه التي تغاير فيها ذاتها • فتبين قدر نفسها ومبررات وجودها بوصفها عاملا محركا في حياة الكون وصورالعبادة في الاسلام في صدق انطباقها على سيكولوجية المنزع العقلي ترمز الى اثبات الذات وانكارها معا »(١) •

وانتظام الصلاة في صفوف تعود الانسان النظام ، والاستجابة للامام تعوده الطاعة ، ورد الامام ان أخطأ يعوده الجهر بالحق والأمر بالمعروف ، ووقوف الجميع صفا واحدا تعوده على المساواة وتركيزها في اعماق افراد الامه المسلمة حيث لا يانف احد مهما عظم مكانه ان يجاور في الصلاة من هو أقل منه شأنا • وينهى الاسلام عن تخطي الصفوف أو اختيار مكان دائم للصلاة فالكل عند الله سواء لا فضل لاحد على غيره إلا بالتقوى • ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلل الصف من ناحية الى ناحية يمسح الصدور والمناكب ويقول : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم »(٢) •

والصلاة محطات يقف الانسان عندها ليخلص نفسه من آلية الحياة التي قد تشغله عن أداء رسالته • فيقف ليتذكر رسالته فيعود الى الحياة مرة أخرى بعزم قوي وفهم سليم يحس معه أنه يؤدي رسالته وأن من شروط نجاح هذه الرسالة أن يتقن عمله وأن يحسن معاملة الناس وأن يتخلق بالخلق الطيب الأمين •

ان الصلاة تقدم الى المجتمع اللبنة الطيبة التي تقوم عليها الأمة الطيبة فهي تنمي باستمرار خلق الانسان وترفع عنه الاقذار فيزداد صلاحه وصلاحيته • وصدق الله العظيم « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون »(٣) •

(١) تجديد التفكير الديني في الاسلام ص ١٠٦ _ ١٠٧ •

(٢) رواه أبو داوود • (٣) سورة العنكبوت آية ٤٥ •

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه من كل يوم خمس مرات فهل يبقى من درنه شيء ؟ . قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : كذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا »(١) .

والزكاة تهدف الى تربية النفس على معان الايثار وتنقذها من طغيان الشح . فاخراج جزء من المال سنويا يعود على البذل والسخاء وينقي النفس من البخل والحرص . قال تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »(٢) . يقول الامام الغزالي : « وانما تزول صفة البخل بأن تتعود بذل المال فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتيادا . فالزكاة بهذا المعنى طهرة أي تطهر صاحبها من خبث البخل المهلك وانما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه لاخراجه واستبشاره بصرفه الى الله تعالى »(٣) .

ويحس الانسان مع انفاق المال في سبيل الله بأن ذنوبه ترفع عنه فيستريح ضميره ويرتاح الى نفسه لايمانه بأن الزكاة تطهره من أوساخه . يقول الله تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »(٤) .

وحين تعطى الزكاة للمحتاج تشرح صدره وتفك ضيقه فيرتفع عنه كابوس الحقد والهدم . وترتبط النفوس برباط الحب والتعاون وتعيش الجماعة حينئذ في سلام لا صراع ولا خيانة ولا تخف بأفكار الهدم والحقد .

ويعلم الاسلام مستحق الزكاة أنها حق له حتى أن الدولة تقاتل مانعها . هذا الاحساس التربوي يمنع عن النفس الشعور

(١) متفق عليه .

(٢) سورة التغابن . آية ١٦ .

(٣) احياء علوم الدين . جـ١ ـ ص ١٧٨ .

(٤) سورة التوبة آية ١٠٣ .

ببذل الحاجة أو التبعية لصاحب اليد فيأخذ المحتاج الزكاة دون شرط أو قيد وبعزة نفس وصدق الله العظيم فى تأكيده لهذا المعنى « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم »(١) ٠

والصوم يعتبر من أهم وسائل تربية النفس لأن الصوم تعود على الصبر ومن تعود على شيء صار هينا عليه ٠ وليس هناك أصبر من الانسان الجائع الذى يرى الأكل فلا يقربه ويستبد به العطش فلا يمد يده إلى الماء وهو قريب منه فيسمو الانسان على المادة فلا تستعبده ويحس بقوة الارادة تتحرك فى أعماقه ، ويوم أن يتعلم الانسان الصبر يوم أن يصل بنفسه الى أرفع مستويات الآخلاق والقوة ٠

وللصيام درس تربوى آخر ، انه يعلم الانسان الأمانة خصوصا حديثى السن ، فهو يصوم دون رقيب سوى الله تعالى فيتعود على الأمانة والصدق فى السر والعلن ٠

والصوم يبث فضيلة الرحمة فى قلوب الأغنياء ، فلن يكون هناك دافع أكبر من أن يعيش الغنى فى نفس الحرمان الذى يعيش فيه الفقير حتى تتحرك نفسه للبذل ويتعلق قلبه بالانفاق ٠

ولا يتم الصيام الا بغض البصر عن المنكر وكف اللسان عن الفحشاء وصم الآذان عن اللغو وغل اليد عن العدوان فاذا استطاعها في هذا الشهر أحس بحاجته اليها فى باقى الشهور فتنمو نفسه حتى يتعود عليها ٠ يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »(٢) ٠ ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام « اذا كان يوم صوم احدكم فلا يرفث ولا يصخب فان سابه أحد أو قاتله فليقل اني صائم »(٣) ويقول : « من لم يدع الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع

---

(١) سورة المعارج آية ٢٤ ــ ٢٥ ٠

(٢) سورة البقرة آية ١٨٣ ٠

(٣) متفق عليه ٠

طعامه وشرابه »(١) .

ذكر الامام الغزالى عن حكمة الصيام تفسيرا لقوله تعالى « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »(١) .فقال « ان المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل ، وهو الصمدية والاقتداء بالملائكة فى الكف عن الشهوات بحسب الامكان ، فانهم منزهون عن الشهوات .. والانسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها . فكلما انهمك فى الشهوات انحط الى أسفل سافلين ، والتحق بغمار البهائم ، وكلما قمع الشهوات ارتفع الى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة والملائكة مقربون من الله عز وجل والذى يقتدى بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم فان التشبيه من القريب قريب ، وليس القرب ثم بالمكان بل بالصفات » .

ويقول ابن قيم الجوزية فى كتابه « زاد المعاد » : (وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة وحمايتها عن التخليط الجالب لها المفاسد التى اذا استولت عليها أفسدتها واستفراغ المواد الرديئة المانعة له من صحتها . فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ويعيد اليها ما استلبته منها أيدى الشهوات .)

وفى الحج تربية للجموع التى تذكر حينئذ وحدة الأصل ووحدة الهدف فتنمو فى نفوسها معانى الصلة الانسانية ومشاعر الاخوة العامة التى تربط البشر بعضهم ببعض وتذكرهم برسالتهم فى الحياة وغايتهم فى الوجود لينمو التعاون ويزيد الترابط .

والطواف حول الكعبة يذكر الانسان بطواف الملائكة حول عرش الله تعالى . والوقوف بعرفة يذكر بيوم الحشر حيث يقف العالم كله فى وقت واحد فتخشع نفس الانسان ويتخضع لعظمة الله

(١) رواه البخارى .

ويستجيب لكلمة الحق فيربى الفرد المؤمن الذى يسعد الحياة وتسعد به الحياة ·

وفى الحج يترك الانسان جميع مظاهر الحياة الزائدة على الطبيعة الانسانية فيتعود على ترك الدنيا وزينتها فلا يضبطر الى زخرفها وينطلق حرا من طغيانها ومن أسر شهواته ويتجرد الى الله يعيش معه بكيانه كله ·

وأما عن رمى الجمار فان حركة الجسم تمثل حركة النفس · ان رمي الشيطان بالجمر يولد الاحساس فى النفس بخروج الذنوب مع هذه الجمرات فيرتاح الانسان ويهدأ من محاسبته لنفسه ·

والحج يطهر النفس من ذنوبها كما يطهر الثوب الابيض من الدنس يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »(١) · واحساس النفس بطهارتها يسعدها ويزيد فيها الرغبة فى الصلاح والإصلاح ؟

وفى الحج جماع العبادات من صلاة وذكر وصيام وزكاة وتضحية ولهذا كان فيها التعود على الخلق الطيب ونبذ الرفث والفسوق والعصيان يقول الله تعالى : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب »(٢) ·

كذلك سائر الشعائر كالبدن ليس المقصود منها الا غرس التقوى فى نفس صاحبها « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ، لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم »(٣) ·

(١) متفق عليه ·

(٢) سورة البقرة آية ١٩٧ ·

(٣) سورة الحج آية ٣٦ ــ ٣٧ ·

والقرآن الكريم خير أستاذ للانسان فى التربية الخلقية فأغلب القرآن الكريم تربية للنفس عن طـريق الأمر والنهى والوعيـد والوعد والقصص ويفسر رسول الله صلى الله عليه وسـلم القرآن الكريم بقوله وعمله واقراره • فتلاوته تدفع النفس لأن تلبى الدعوة الى الصدق والعدل والامانة والعفاف وتقشعر جلودنا من وصف الكذب والخيانة والغيبة واللمز • وهذا ما نشاهده فى أغلب آياته فهو يزيد على ٦٢٠٠ آية يعد بعضهم آيات الأحكام ٤٠٠ آية أى أقل من العشر •

والقرآن الكريم يتعبد بتلاوته ويتلى فى الصباح والمساء فى القيام وفى القعود وفى الفرح والمآتم وفى المدرسة والمنزل وفى الغدو والرواح فتتأسس الاخلاق وتتكون داخل النفس مع تلاوة آياته يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضرب الله مثلا • صراطـا مستقيما ، وعلى جنبتى الصراط سوران وفى السورين أبواب مفتحة وعلى الابواب ستور مرخاة وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوق الصراط فالصراط المستقيم : الاسلام والابواب المفتحـة محارم الله فلا يقع أحد فى حد من حدود الله حتى يكشف الستر • والداعى على رأس الصراط : كتاب الله • والداعى فوق الصراط : واعظ الله فى قلب كل مؤمن »(١) •

قال الله تعالى مثنيا على رسوله الكريم : « وانك لعلى خـلق عظيم »(٢) • وقالت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم • « كان خلقه القرآن »(٣) •

والقدوة برسول الله صلى الله عليه وسلم تؤدى الى انتظـام العلاقات الاجتماعية وتوازنها لأن الأخذ بسنة رسول الله صلى الله

---

(١) رواه احمد والترمذى •

(٢) سورة القلم آية ٤ •

(٣) رواه البخارى ومسلم •

عليه وسلم يوحد العادات والميول فتضيق فرص النزاع والشقاق وتزيد أواصر التعاون والاخاء .

« واذا كان العمل الخلقي من الوجهة النفسية هو القمة والنجاح الأسمى للحياة الخلقية فان للعمل الارادى مثالب تجعل الالتجاء اليه في الظروف العادية آية على ضعف التنظيم لا على قوته ، فالعمل الارادى يشتمل بنوع خاص على قدر من الصراع وعلى شيء من التدبر وان قصرت مدته ، وعلى استخدام احتياطى الطاقة لذلك فهو يستنفذ كثيرا من اقتصاديات الحياة العقلية ولا يكون الادراك حرا فى أن يتناول أشياء أخرى بينما هو مشغول بالعمل الارادى ، لذلك يحسن بنا فى نظام حياتنا اليومى أن نلجأ الى طرق أقل اسرافا من العمل الارادى مثل العادة Habit والميل المقرر Determining Tendency أو الوجهة العقلية Mental Set .

والعادة جانب شديد التنظيم من جوانب حياتنا العقلية وقد أوسعه مناقشة وتفسيرا أعداد لا تحصى من علماء الأخلاق وعلماء النفس والكتاب غير المختصين بحيث لم يعد فيه مجال لمستزيد ؛ ولكن علينا أن نردد ما قاله الآخرون من عظم القيمة الخلقية للعادات المتسقة مع أهدافنا الخلقية الشعورية وعظم التعويق الخلقى الذى ينتج عن العادات غير المتسقة مع تلك الأهداف . ويرى السلوكيون المخلص أن هدف العلاج النفسى كله والصراع الخلقى كله انما هو التخلص من العادات السيئة واحلال العادات الطيبة محلها »(١) .

وهو صلى الله عليه وسلم لأن خلقه القرآن يصدر عن أمر الله تعالى وتوجهه بالسلوك الأمثل للانسانية جميعا . فكان صلى الله عليه وسلم التطبيق الامثل للاسلام ، ونرى هذا الهدى فى سيرته العاطرة وحياته العامرة ، كان يعبد الله تعالى فيها عبادة عميقة خالصة صامتا قائما ذاكرا متذكرا فى نفس الوقت الذى كان يجاهد فيه الكفار والمشركين فى ساحات الحروب فينتصر عليهم وينظم

(١) الانسان والأخلاق والمجتمع ص ٣٧ ، ٣٨

علاقات التعامل بين الأمة المسلمة على أسس ربانية تنظم الحياة بها • كان روحانيا يسمو بروحه الى الملأ الأعلى وهو يعيش كسائر الناس يتزوج ويأكل الطعام ويمشى فى الأسواق • ولدينا من أقواله دستورا أخلاقيا •

عن النواس بن صنعان قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والاثم فقال : البر حسن الخلق والاثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس »(١) • قال صلى الله عليه وسلم « خياركم أحاسنكم أخلاقا »(٢) • وقال صلى الله عليه : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »(٣) • وقال : « أقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا • وان من أبغضكم الى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون • »(٤)

فرسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة المثالية للبشر كافة ، وكان أكثر الناس تأثرا بهذه القدوة هم الذين عاشوا معه ورباهم على عينه وعرفنا عن حياتهم الكثير ، هؤلاء الأولون نماذج يقتدى بها ؛ وفى اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاح ونجاح لمن أراد الله والدار الآخرة « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا • »(٥)

روح التشريع :

والتشريع مسئول بلا شك عن انهيار المجتمع الغربى ولكن ضعف الوازع الخلقى عليه المسئولية الأكبر • أن القانون لا يستطيع أبدا أن يعمل وحده ما لم يكن له رصيد من الاخلاق والدافع

---

(١) رواه مسلم •

(٢) رواه البخارى ومسلم •

(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن •

(٤) رواه الترمذى • « المتفيهقون : المتكبرون » •

(٥) سورة الأحزاب • آية ٢١

الذاتى • ولن يستطيع القانون مهما زادت مواده أن يسد الثغرات ما دامت النفوس مريضة والضمير معطلا •

والاسلام يبنى الأمة المسلمة على الضمير جنبا الى جنب مع التشريع فيشكل السلوك الاجتماعى من أعماق النفس وينبع من صوت الضمير • واليك بعض التفصيل :

أ ـ التربية السياسية :

فمن الناحية السياسية يبنى الاسلام نظامه بتربية الفرد والجماعة على أساس من التربية الأخلاقية التى توجد الحاكم العادل ، والأمة الواعية •

هذه التربية يتلاشى معها حدة الصراع على المراكز القائمة على الحسد وحب السيطرة وهو مصيبة المصائب فى العالم الحديث ، حيث تختلق الأكاذيب وتدبر المؤامرات •

كما أن هذه التربية من شأنها أن تقضى على النزوات الطائشة لأصحاب الاهواء الذين يخرجون على اجماع الأمة ويورثونها الضعف بالخروج والثورات مما يؤدى الى تمزيق الأمة وتشتيت قواها •

يربى الاسلام الحاكم على أنه نائب عن الله فى الأرض فليس له أن يحكم بغير ما أنزل الله • فالحكم لله وحده لأن له وحده الخلق والأمر • ومن هنا ليس للحاكم أى حق للاستعلاء أو التسلط وانما هو مجرد حارس على تنفيذ أوامر الله لعباده • يقول تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا »(١) •

ثم يغرس فى نفسه حقيقة العدل • يقول الله تعالى : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »(٢) • ويقول تعالى : « ولا

(١) سورة القصص • آية ٨٣

(٢) سورة النساء • آية ٥٨

يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى»(١) ٠

وفى نفس الوقت يربى الاسلام المسلمين على الاحساس بالمسئولية ان حقيقة الخلافة تشمل كل فرد من أفراد الأمة وليس ذلك للحاكم فحسب ٠ يقول الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم »(٢) ومن هنا يصبح كل مسلم معينا للحاكم ان عدل ومانعا له ان طغى وظلم ٠ يقول الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »(٣) ٠ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة ٠ قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ورسله ولأئمة المسلمين وعامتهم »(٤) ٠

ويربى الاسلام المسلمين على طاعة الأمراء ما عدلوا « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »(٥) ٠ وقال صلى الله عليه وسلم « اسمعوا وأطيعواوان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى »(٦) ٠ ويقول « انكم ستحرصون على الامارة وستكون ندامة يوم القيامة »(٧) ٠ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصا الله ، ومع يطع الامير فقد أطاعنى ومن يعصى الأمير فقد عصانى »(٨) ٠ وعن أبى ذر : ان خليلى أوصانى أن أسمع وأطيع وان كان عبدا حبشيا مجدع الأطراف »(٩) ٠

(١) سورة المائدة ٠ آية ٨

(٢) سورة النور ٠ آية ٥٥

(٣) سورة آل عمران ٠ آية ١١٠

(٤) رواه مسلم ٠

(٥) سورة النساء ٠ آية ٥٨

(٦) رواه البخارى ٠

(٧) رواه البخارى ٠

(٨) رواه مسلم ٠

(٩) رواه مسلم ٠

أما عند معصية الله يقول أبو بكر رضى الله عنه : « يا أيها الناس انكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها . « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » ، وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه »(١) .

فتأمل قول الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . » كيف قال « وأطيعوا الرسول) ولم يقل وأطيعوا أولى الأمر منكم لأن أولى الأمر لا يقرون بالطاعة بل يطاعون فيما هو طاعة الله ورسوله واعادة الفعل مع الرسول لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله . ؟ فان الرسول لا يأمر بغير طاعة الله بل هو معصوم فى ذلك ، وأما أولى الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله ، فلا يطاع الا فيما هو طاعة لله ورسوله ، وأما لزوم طاعتهم وان جاروا ، فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد اضعاف ما يحصل من جورهم »(٢) .

ولقد ربى القرآن والسنة الجيل الاول على ذلك فكانوا خير أمة . اسمع لأبى بكر رضى الله عنه فى خطبته يقول : « فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » . واسمع قول عمر رضى الله عنه :

فان وجدتم فى اعوجاجا فقوموه » فيقول رجل من عامة المسلمين : « والله لو وجدنا فيك اعوجوجا لقومناه بحد السيف » . فقال عمر: « الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوم عمر بسيفه » . ولا يبيح سيدنا عمر لنفسه من الطعام والكساء أكثر من أى فرد من عامة المسلمين . فلما جاء عام الجوع وأصاب المسلمين القحط أقسم لا يذوق السمن حتى يفتح الله على المسلمين وبقى عامه على هذا الحرمان حتى بسر وجهه من أكل الزيت وصرخ ببطنه حين سمع

(١) رواه أبو داوود والترمذى والنسائى .

(٢) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨ .

قرقرتها : « تقرقر انه ليس لك عندنا غيره حتى يحيى الناس »(١) وجاءت اليه برود من اليمن ففرقها على الناس بردا بردا ثم صعد المنبر يخطب وعليه حلة منها « أى بردان » فقال : اسمعوا رحمكم الله • فقام اليه سلمان فقال : والله لا نسمع • والله لا نسمع • فقال : ولم يا أبا عبد الله ؟ فقال : يا عمر ، تفضلت علينا بالدنيا ، فرقت علينا بردا بردا وخرجت تخطب فى حلة منها ؟ فقال : أين عبد الله بن عمر ؟ فقال : ها أنذا يا أمير المؤمنين • قال : لمن أحد هذين البردين اللذين على ؟ قال : لى • فقال لسلمان : عجلت على يا أبا عبد الله ، انى كنت غسلت ثوبى الخلق فاستعرت ثوب عبدالله قال : أما الآن فقل نسمع ونطع »(٢) •

وانظر الى فهم عمر بن عبد العزيز حين بويع للخلافة فذهب الى بيته يبكى • فقالت له زوجه: مايبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فقال: ويحك يا فاطمة ! • قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت فتفكرت فى الفقير الجائع والمريض الضائع والعارى المجهود والارملة والمسكين والغريب والأسير ومثلهم فى أقطار الارض وأنحاء البلاد فعلمت أنى مسؤول عنهم أمام الله وأن خصمى دونهم محمد صلى الله عليه وسلم فخشيت ألا تثبت لى حجة أمام الله فرحمت نفسى فبكيت »(٣) •

ب ـ التربية الاجتماعية :

ومن الناحية الاجتماعية ينمى الاسلام فى الافراد أخلاق التراحم والتكافل والتحاب والتواد ويشبههم بالجسد الواحد اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر • وكيف لا ؟ وهم من أصل واحد ولهم هدف واحد •

ومن نماذج هذه التربية فى القرآن :

« لا خير فى كثير من نجواهم آلا من أمر بصدقة أو معروف أو

(١) أخبار عمر وعبد الله بن عمر • على وناجى الطنطاوى ص ١٤٧ •

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٤ •

(٣) الخراج ابو سيف ص ١٧ •

اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما »(١) ٠

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس اسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »(٢) ٠

ومن نماذجها في السنة :

« من دل على خير فله مثل أجر فاعله »(٣) ٠

« من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة »(٤) ٠

« ان الصدق يهدى الى البر وأن البر يهدى الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ٠ وان الكذب يهدى الى الفجور، والفجور يهدى الى النار، وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا(٥) ٠ « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل : من يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يأمن جاره بواتقه »(٦) ٠ « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله »(٧) ٠

هذه التربية هى طريقة الاسلام فى اقامة المجتمع الذى يتحرك من أعماقه عن اقتناع مطبوعا على الفضيلة لا مجبورا عليها أو متكلفا لها ٠

ونلمس دقة هذه التربية وجديتها فى ظاهرتين اجتماعيتين

(١) سورة النساء ٠ آية ١١٤

(٢) سورة الحجرات ٠ آية ١١

(٣) رواه مسلم ٠

(٤) متفق عليه ٠

(٥) متفق عليه ٠

(٦) متفق عليه ٠

(٧) متفق عليه ٠

نأخذهما على سبيل المثال لنرى كيف عالجهما الاسلام ألا وهما الرق والخمر ·

فقد بدأ الاسلام تحريم الرق بتحسين معاملة الرقيق حتى يحس بالكرامة الذاتية قال صلى الله عليه وسلم · « من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه ومن أخصى عبده أخصيناه »(١) · وقال : « اخوانكم خولكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس · »(٢) وآخى صلى الله عليه وسلم بين الموالى والأمراء من سادة العرب كزيد وحمزة وكبلال وخالد بن رويحة وكخارجة وأبى بكر كما زوج ابنة عمه زينب من مولاه زيد وأمر بلالا على المدينة وبها الصحابة من المهاجرين والأنصار وأرسل زيدا على رأس جيش فيه أبو بكر وعمر ·

ولهذا لما ضيق الاسلام منافذ الرق فلم يجعلها الا لضرورة المعاملة بالمثل فى أسرى الحرب وفتح باب تحرير الرق على مصراعيه بالكفارة والكتابة وغيرها لم يفاجأ العبيد بالحرية بل كانت نفوسهم قد تحررت أولا فأقبلوا على الحياة ولم ينتكسوا نكسة العبيد الامريكيين حين حرروا فطلبوا العودة الى أسيادهم ·

ولقد أوضحنا فيما سبق · كيف عالج الاسلام مسألة الخمر علاجا واقعيا فلم يحرمها بجرة قلم وانما أخذ يتدرج فى التشريع حتى تحررت منها النفوس تماما فنزل التحريم القاطع باجتنابها ولقد منعت حكومة أمريكا الخمر وطاردتها فى بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والسينما وأنفقت نفقات طائلة لتبين مفاسدها ومضارها والنتيجة كانت عكسية فقد زاد اقبال الامريكيين على الخمر فسحبت الحكومة هذا القانون سنة ١٩٣٣ بعد تجربة فاشلة ·

والتربية النفسية التى يربى الاسلام عليها المجتمع هى التى

(١) متفق عليه ·

(٢) متفق عليه ·

تجعل القانون فى ضمير الناس قبل أن يكون فى سوط السلطان ٠ واليك نماذج من هذه التربية :

جاء ماعز بن مالك الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله طهرنى ٠ فقال : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب اليه ٠ قال : فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يا رسول الله طهرنى ٠ فقال النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك حتى اذا كانت الرابعة ٠ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبه جنون ؟ ٠ فأخبر بأنه ليس بمجنون ٠ قال : أشرب خمرا ٠ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد فيه ريح الخمر ٠ فقال أزنيت ؟ ٠ قال : نعم ٠ فأمر به ٠ فرجم ٠ فلبثوا يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ فقال : استغفروا لماعز بن مالك ، لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم ٠

ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد فقالت يا رسول الله طهرنى٠ فقال : ويحك ارجعى فاستغفرى الله وتوبى اليه فقالت : تريد أن تردنى كما رددت ماعز بن مالك ، انها حبلى من الزنا ٠ ! ٠ فقال : أنت ؟ ٠ قالت : نعم ٠ قال لها : حتى تضعى ما فى بطنك ٠ فكفلها رجل من الانصار حتى وضعت فأتى النبى ٠ فقال : قد وضعته الغامدية فقال : اذن لا ترجمها وتدع ولدها صغيرا ليس له من ترضعه فقام رجل من الانصار ٠ فقال : الى رضاعه يا نبى الله فرجمها ٠ وفى رواية أخرى انه قال لها اذهبى حتى تلدى فلما ولدت ٠ قال : اذهبى فارضعيه حتى تفطميه ٠ فلما فطمته أتت بالصبى فى يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام ٠ فدفع الصبى الى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها الى صدرها ، وأمر الناس فرجموها ٠ فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد ، فسبها فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلا يا خالد فقد تابت توبة لوتابها

صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت »(١) ٠

ج ـ التربية الاقتصادية :

ومن الناحية الاقتصادية يهدف الاسلام من التربية النفسية نزع الدنيا من قلب المسلم حيث يعتبرها غاية فيعلق بها تعلقا ينسيه أى غرض نبيل بل يؤدى الى ظلم غيره والاعتداء عليه ٠ ويحرض الاسلام على الانفاق واجتناب البخل فتكون الدنيا على يد المسلم ينفقها بالحلال على نفسه وعلى أصحاب الحاجات ٠ قال تعالى واصفا المؤمنين : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »(٢) ٠ وقال تعالى فى الذين يبخلون : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والارض والله بما تعملون خبير »(٣) ٠ قال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح أهلك من قبلكم »(٤) ٠ ويقول : « تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة أن أعطى رضى وان لم يعط لم يرض »(٥) ٠

يقول الله تعالى موضحا حقيقة الدنيا : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا »(٦) ٠

ولهذا يقول الله تعالى محذرا : « انما أموالكم وأولادكم فتنة

---

(١) رواه الترمذى ومسلم ٠

(٢) سورة الحشر ٠ آية ٩

(٣) سورة آل عمران آية ١٨٠

(٤) رواه البخارى ٠

(٥) رواه البخارى ٠

(٦) سورة الكهف ٠ آية ٤٥

والله عنده أجر عظيم »(١) • ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون »(٢) •

هذه هى الدنيا اذا اعتبرت غاية فى ذاتها •

ولكنها حين تكون وسيلة للاخرة فانها تؤخذ بالحلال ويكون الأخذ عبادة لله تعالى • يقول الله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »(٣) • ويقول تعالى : « ان سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله اذا تردى ، ان علينا للهدى وان لنا للآخرة والأولى »(٤) •

ولقد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم حكيم بن حزام عطاء كثيرا فطلب المزيد فأعطاه حتى لم يستطع أن يطيق حمله فنظر اليه النبى فقال : « يا حكيم ان هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى » • فقال حكيم : « يا رسول الله والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا »(٥) •

وقص علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم درسا بليغا وموعظة فقال : « اشترى رجل من رجل عقارا له فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جرة فيها ذهب • فقال للذى اشترى العقار منه خذ ذهبك عنى انما اشتريت منك العقار ولم ابتع منك الذهب •

(١) سورة التغابن • آية ١٥

(٢) سورة المنافقون • آية ٩

(٣) سورة القصص • آية ٧٧

(٤) سورة الليل •آية ٤ ــ ١٣

(٥) رواه البخارى •

فقال الآخر : انما بعتك الارض بما فيها . قال صلى الله عليه وسلم : فتحاكما الى رجل . فقال الذى تحاكما اليه : ألكما ولد ؟ فقال أحدهما : لى غلام . وقال الآخر : لى جارية . فقال الحكم : انكحوا الغلام الجارية وانفقوا على أنفسكما وتصدقا »(١) .

وهذا الذى قصه الرسول يضرب به المثل على أحسن معاملة للمال . ان شارى العقار يرى أن هذا المال ليس من كسبه فرفضه ضميره لأنه قد يكون حراما يلوث ماله كله ويجر عليه عذاب الضمير أما البائع فقد رفض أن يشوب ماله الحلال شائبة فقد يكون هذا المال من حق الشارى وهو لا يريد أن يأخذ غير حقه . فرفض أن يأخذ هذا المال انها علاقة الايثار ــ لا علاقة الاثرة فى المال وهى التى تؤدى الى التعاون والصلة بين الناس ولولا هذا لكان الصراع والشقاق .

ويربى الاسلام الانسان على النشاط . وهو يدعوه الى الضرب فى الأرض والعمل . قال تعالى : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله(٢) . فهو ينزع عادات الكسل والتواكل التى تورث الفقر .

ولا ينسى الاسلام الانسان فى التعامل فيحضه على ذكر الله فى السوق فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وان كذبا وكتما محقت بركة بيعهما »(٣) . ويقول : « رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى »(٤) .

وليس هناك طريق للقيام بالالتزامات الاختيارية فى الحياة الاقتصادية سوى هذه التربية . فصيانة رأس المال واتقان العمل

---

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة المزمل آية ٢٠

(٣) رواه البخارى .

(٤) رواه ابخارى .

وعدم الاسراف فى استعمال الخدمات العامة لابد أن ينبع من النفس ولن توجد أية وسيلة لاجبار النـــاس على هذه الأعمـــال سوى الضمير ٠

وانظر الى آثار هذه التربية فى المسلمين ٠

فلقد أتت العير عثمان رضى الله عنه محملة من الشـــام وقد انقطعت موارد المسلمين فى أيام أبى بكر رضى الله عنه وتقدم اليه التجار بعرض سخى يربحونه الدرهم درهمين فيردهم عثمان قائلا : أعطيت أكثر من ذلك فيعرضون أربعة دراهم ثم خمسة وهو يردهم كل مرة ، فتعجبوا من قوله لأنه لا يوجد تجار غيرهم ٠ فقال : ان الله أعطانى عشرة أمثالها ٠ ثم يقسم ليتركها خالصة للمسلمين يرد عنهم غائلة الحاجة ٠

ولما أزمع عمر بن عبد العزيز أن يرد ما لـــديه أمر فنـــودى بالناس : الصلاة جامعة فصعد الى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ٠ ثم قال : أما بعد ٠ فان هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغى لنا أن نأخذها وما كان ينبغى لهم أن يعطوناها وان ذلك قد صار الى ليس على فيه دون الله محاسب ألا وانى قد رددتها وبدأت بنفسى وأهل بيتى ٠٠ اقرأ يا مزاحم ٠٠ وقد جئ قبل ذلك بسفط فيه تلك الكتب ـ فجعل مزاحم يقرأ كتابا فيأخذه عمر وبيده مقص ويقص به حتى لم يبق منه شئ الا شقه ٠

ان التربية الاقتصادية فى الاسلام تجعل المسلم فى الدنيـا نشيطا عاملا وتسوده عليها حرا وتضعها على يديه باذلا منفقا ٠

* * *

هذه التربية الخلقية أساسية فى نجـــاح تطبيـــق الشرائع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فضمير الانسان الذى يخشى الله هو بمثابة السلطة التنفيذية للقانون ولكنها سلطة تنفيذية ذاتيـة تحاسب على الأعمال الداخلية حتى التحضيرية منها كما يحاسب على

الأعمال الخارجية بينما القانون الوضعى قاصر على بعض الأعمال الخارجية .

والجزاء الدنيوى وحده لا يكفى فقد يتمكن البعض من فعل الشر ثم يتوارى فلا يناله السلطان وهنا يسهل لكثير من الناس عمل الشر فيرتكبون الجرائم وينشرون الفساد والأعين عنهم غافلة والقانون عاجز عن الوصول اليهم . فضلا عن أن بعض الجرائم لا يعاقب عليها فى الدنيا كالكذب وخلف الوعد ونحوها وكذلك الحقد والحسد والغيبة والنميمة وما اليها ، مما يوقع فى أكثر الجرائم التى يعاقب عليها فى الدنيا . هذه الجرائم يصعب تحديدها مما يدعو الى تركها للضمير يمنعها ويعاقب عليها مدفوعا الى رجاء ثواب الآخرة والخوف من عذابها . يحذر فى كل عمل يقوم به سخط الله والنار ويرجو رضاه والجنة .

* * *

المبحث الثالث

الدعوة الى الخير

ان للتشريع الوضعى طابع سلبى اذ أنه يعنى فى الغالب بدرء المفاسد والنهى عن الأذى أما الاسلام فانه مع نهيه فى تشريعه عن الأذى كالقتل والسرقة ومعاقبته عليها ، له طابع ايجابى يدعوه الى الخير ، فالانسان الذى يرى الشر ولا يمنعه لا يعاقبه القانون الوضعى ولكن الاسلام يأمره أن يمنع هذا الشر لأنه منكر يجب أن يمنع • وفضلا عن ذلك يأمره الاسلام بفتح مجالات الخير والدعوة اليه لاسعاد الانسانية • فالفرد لا يعيش لنفسه وانما يعيش برسالة تجعله لا يكتفى باصلاح نفسه وتنميتها ، بل تدفعه دفعا لاصلاح المجتمع وتنميته وهذا هو مضمون الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى هى أساس وطيد من أسس الاسلام لا يوجد فى أى تشريع مقارن أو دستور حديث •

يقول » برتراند رسل » : « ان الغالبية العظمى من الرجال والنساء يعبرون الحياة فى الأوقات العادية دون أن يأخذوا ظروفهم الشخصية أو ظروف العالم كله باعتبارها وحدة يتأملونها أو ينقدونها ، فهم يجدون أنفسهم وقد ولدوا فى موضع معين من المجتمع ويقبلون ما يجىء به يومهم دون مجهود فى التفكير أكثر مما يتطلبه منهم الحاضر • وهم يسعون وراء اشباع حاجات وقتية بطريقة تكاد تكون غريزية ، مثلهم فى ذلك مثل دواب الحقول دون تبصر أو اعمال للفكر فى أن ظروفهم كلها يمكن أن تتغير اذا بذلوا مجهودا كافيا •

وهناك نسبة معينة منهم يقودها الطموح الشخصى الى أن تبذل من مجهود الذهن والارادة القدر الضرورى ليضعهم فى مصاف الأحسن حظا من أعضاء المجتمع ، ولكن قليلا منهم يهتمون اهتماما

جديا بكفالة ما حصلوا عليه لأنفسهم من مزايا للجميع • انها لقلة نادرة استثنائية من الناس أولئك الذين يكنون للجنس البشرى كله ذلك الحب الذى يجعلهم لا يستطيعون أن يتحملوا الشرور والشقاء الذى تعانيه الغالبية ، بصرف النظر عن علاقته بحياتهم الخاصة وتسعى هذه القلة عن طريق الفكر أولا ثم العمل ، يدفعها الألم الناشىء عن مشاركتها للآخرين فى آلامهم الى ايجاد طريق الخلاص »(١) •

هذه الدعوة الى الخير الذى افتقدها رسل فى مجتمعه لأنها عندهم كمالية ولديهم من الحجج ما يرفع عن كاهلهم مسئولية القيام بها نجدها فى الاسلام فرض على المسلمين مكلفين بها كالواجبات العادية سواء •

والاسلام يربى الانسان على الشعور بالمسئولية فى كل أمر من أمور الحياة صغيرها وكبيرها لأنه مسئول عن تعمير الدنيا ونشر الخير بين أرجائها • هذه الدعوة الى الخير تكفل رفع الظلم وحماية الضعيف وسيادة الأخلاق ونمو العمران •

تكليف :

ان مبادىء الاسلام التشريعية والتربوية تعتبر واجبات على كل مسلم مسئول عن اقامتها فى نفسه وفي المجتمع • واذا كانت الحضارة المعاصرة تعتبر بعض المبادىء كالحرية والمساواة والعزة والشرف حقوقا للانسان يتمتع بها ان شاء فان الاسلام يراهافروضا واجبة لا يصح أن يفرط فيها أو أن يغفل عنها • فهى وان كانت حقا له فى مجتمعه الا أنها من جهة أخرى واجبات عليه يسأل عنها أمام الله •

هذه هى الحكمة فيما نراه فى كتب الفقه من تسميته «المكلف» فكل انسان بالغ عاقل ذكرا أو أنثى « مكلف » أى مسئول دون

(١) سبيل الحرية ص ١٣

اعتبار لأى فارق من الغنى أو اللون أو الجنس سواء أكان حاكما أو محكوما • انه مكلف من الله الذى خلقه وسخر له الكون ليعمره على أساس فاضل • هذا الهدف يربطه بالمسئولية بعكس اذا ما تصور أنه خلق عبثا فانه سيسعى الى ما يسميه حقوقا دون أن ينفذ الواجب طواعية •

وواضح أن المجتمع الذى يحرص فيه الأفراد على الواجب لا تحدث فيه فوضى الصراع على الحقوق لأن الحقوق لا تتسع ولا تتوفر الا اذا أديت الواجبات فحقوق انسان على آخر انما هى واجبات على هذا الآخر • وكلما نمت الواجبات فى المجتمع كلما اتسعت دائرة الحقوق ودائرة الحرية • ومن جانب آخر حرص الافراد على أخذ حقوقهم يؤدى الى سيادة المساواة والعدالة فى المجتمع ويمنع فرض الظلم والاستبداد والاستغلال •

ويعطينا القرآن درسا بليغا فى هذا الأمر حين يسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقهم فى الأنفال فلا يجيبهم القرآن عن هذا الحق الا بعد درس طويل فيما عليهم من واجبات • يقول تعالى : « يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول ، فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين ، انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »(١) • ويستمر القرآن فى سرد الواجبات فى أربعين آية حتى يبين لهم الحق فى الانفال فى آية واحدة « واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير »(٢) • ثم يستمر القرآن مرة أخرى فى تبيين الواجبات •

(١) سورة الأنفال • آية ١ ـ ٣

(٢) سورة الأنفال • آية ٤١

والدعوة إلى الخير من أعظم الفرائض على المسلمين وكـــذلك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وقد وردت الايـــات والاحاديث متتاليه صريحه في الدعوة اليه والزام الامر به حتى اعتبرته المعتزله أحد الاصول الخمسة التي لا يتم الايمان على رأيهم الا بها • قال الله تعالى : « ولتكن منكم أمه يدعون الى الخـــير ويأمرون بالمعـــروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون »(١) • وقال تعالى : « الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبه الامور »(٢) • وفي وصف المؤمنين يقول الله تعالى : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعـــــون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين »(٣) • ويحـــذر الله تعالى من ترك هـــذا الامر « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب »(٤) • وقال صلى الله عليـــه وسلم : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا ثم تدعونه فلا يستجاب لكم »(٥) •

وعلى هذا كان كل فرد مسئولا عن نفسه وعن المجتمع الذى يعيش فيه آمرا بالفضيلة ناهيا عن الرذيلة مسارعا الى الخيرات • ومدلول الدعوة الى الخير هنا أوسع من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر • لأنه لا يشمل المحافظة على الموجود فحسب وانما هو يفتح آفاقا جديدة للخير • هذا التقسيم نلحظه في قوله تعالى : « ليسوا

---

(١) سورة آل عمران • آية ١٠٤

(٢) سورة الحج • آية ٤١

(٣) سورة التوبة • آية ١١٢

(٤) سورة الانفال • آية ٢٥

(٥) رواه الترمذى •

سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين »(۱) • ومن أمثلة هذه المسارعة الى الخيرات التى اعتبرها أئمة المسلمين فروض كفاية اقامة العمران ونشر التعليم ••• الخ •

والدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دعوة عامة يكلف بها كل انسان • ولما كان التكليف فى الاسلام فى حدود الاستطاعة فان الاسلام تدرج فى المسئولية • قال الرسول عليه الصلاة السلام : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الايمان »(۲) •

قال بعض المفسرين فى تفسير « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ••• »(۳) « ان من هنا تفيد التبعيض فالله أمر المؤمنين أن يكون من بينهم طائفة من الناس يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر والمؤمنون عامة مسئولون عن وجود هذه الطائفة بينهم وان لم توجد أثمت الأمة كلها • ومن هنا كانت هذه الدعوة فرض كفاية اذا قام بها البعض سقطت عن الباقين •

وقال آخرون ان الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مطلوب من كل مؤمن لا يكفى أن يفعلها طائفة لتسقط عن الباقين • ومثلها فى ذلك كمثل الصلاة والزكاة فرض عين على الجميع • وهنا تكون من على معنى التجريد كأن تقول لى منك أخ صادق • ويؤيد هذا الرأى • قوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله »(٤) •

(۱) سورة آل عمران • آية ۱۱۳ ـ ۱۱٤

(۲) رواه مسلم وأبو داوود والترمذى •

(۳) سورة آل عمران • آية ۱۰٤

(٤) سورة التوبة • آية ۷۱

وهنا وضعت هذه الدعوة بجانب الفرائض العينية الاخرى كالصلاة والزكاة فتتبع حكمها . وكذلك قوله تعالى : « والعصر ان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر(١) . ومعنى هذا أن الله يحكم على كل أفراد الناس بالخسران الا الذين توجد فيهم خصال التواصى بالحق والصبر .

وقد يكون القول بالتبعيض استثناء لهؤلاء الذين لا يستطيعون القيام بهذه الدعوة لأسباب قاهرة والتكليف فى الاسلام على قدر الاستطاعة والذين قالوا بالتجريد لم يجانبوا الصواب ، فهذه الدعوة فرض عين على الجميع فى كل مجال . فأهل الحل والعقد يقومون بهذه الدعوة للأمة والامام ، والامام يقوم بها للأمة والعامل يقوم بها للمدير ، والمدير يقوم بها للعامل ، والأخ يقوم بها لأخيه ، والأب لابنه .. ألخ . » وهى فريضة على الجميع يعفى منها من لا يستطيعها ، فان قام بها أحد لا يأثم الباقون(٢) .

ويشترط فى الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر شروط :

١ ـ أن يكون مكلفا أى مدركا مختارا .

٢ ـ الايمان ، فغير المسلم لا يلتزم بهذا الواجب .

٣ ـ القدرة ، فان كان عاجزا فلا وجوب عليه الا بقلبه أى عليه أن يكره المعاصى وينكر ويقاطع فاعليها .

٤ ـ العدالة ، فلا يصح أن يكون فاسقا الا أن الرأى الراجح

(١) سورة العصر . آية ١٠٣

(٢) وهذا سبب نشأة وظيفة الحسبة قديما . يقول ابن خلدون « أما الحسبة فهى وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلا له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ويعذر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة » . راجع مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٧ والأحكام السلطانية للماوردى ص ٢٠٨

عند الفقهاء أن الفسق لا يمنع لأن اشتراط هذا الشرط سد لباب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •

٥ ـ اذن الامام خوفا من الفساد والفتنة ولكن جمهرة الفقهاء على خلاف هذا الرأى ويرون أن تخصيص ناس من قبل الامام بهذا لا يمنع غيرهم من القيام به فالتخصيص بشرط التفويض تحكم لا أصل له لأن النصوص توجب هذا الأمر والنهى على كل فرد •

وليس للأمر بالمعروف شروطا خاصة ولا أوقاتا خاصة لأن الامر بالمعروف نصيحة وهداية وتعليم أما النهى عن المنكر وتغييره فله شروط خاصة يجب توافرها لجواز النهى أو التغيير وهى :

١ ـ وجود المنكر ولكن يشترط أن يكون منكرا معلوما لا اجتهاد فيه ولا اختلاف •

٢ ـ أن يكون موجودا فى الحال يباشره صاحبه كشرب الخمر والخلوة بالأجنبية فاذا كان فرغ من المعصية فلا مكان للنهى وانما العقاب على المعصية حق السلطات العامة •

٣ ـ أن يكون ظاهرا دون تجسس أو تفتيش ولا تتبع العورات لأن ذلك يفسد الناس •

٤ ـ دفع المنكر بأيسر ما يندفع به فاذا كان المنكر يدفع باليد ولم يكن الدافع قادرا على هذه الوسيلة دفعه بلسانه فان لم يستطع دفعه بقلبه ولا يجوز دفعه بأقل ما يدفعه اذا كان الدافع قادرا على ذلك ولكن لا يجوز دفعه بأكثر مما يدفع به لأن ذلك يعد جريمة(١) •

وتغيير المنكر لا يقصد به الا دفع المنكر ولا يقصد منه عقوبة فاعل المنكر ولا زجر غيره فالزجر انما يكون عن المستقبل والعقوبة عن الماضى والدفع عن الحاضر وليس لآحاد الرعية الا الدفع لتغيير المنكر وازالته أما العقوبة والزجر فهما حق السلطات العامة(٢) •

(١) راجع التشريع الجنائى فى الاسلام ج ١ ص ٤٩٥ ، ٥٠٥

(٢) نفس المصدر ص ٥٠٧

وبهذا يصبح كل فرد حاميا للمجتمع من الفساد وللأخلاق من الانحلال وللنظام من التفكك فيقضى على الشر فى مهده · والقوانين الوضعية لم تعرف الدعوة الى الخير اللهم الا فى حدود ضيقة جـــدا منذ القرن الماضى حين اعترفت للفرد بحق النقد وحق التوجيه وحق القبض على الجانى متلبسا أو منعه بالقوة من ارتكاب الجريمة التى تمس الجماعة كتخريب المنشآت العامة ، ولكنها لم تعرف المبدأ على اطلاقه ففاتها خير كثير ·

وصدق الله العظيم « كنتم خــير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون لن يضروكم الا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ، ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبيــاء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون · ليسوا سواء ، من أهل الــكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليــل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهـــون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خــير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين »(١) ·

صدق الله العظيم ·

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ·· ··

* * *

(١) سورة آل عمران · آية ١١٠ ـ ١١٥

فهرست

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٢٧٥٥

مطبعة الاعتصام

هذا الكتاب خطوة أخرى لدار المختار الإسلامى نحو كشف الظلمات عن واقع العصر بطاقة الإسلام الدافعة القادرة أبدا على تحقيق التوازن والسلام والخير ، وذلك فى موضوعية بعيدة عن العموميات العاطفية . . مستندة إلى أدق البحوث . . . ضاربة بعمق وأصالة فى أرض الدراسات العلمية الجادة .

ولقد بدأ الباحث فناقش أيديولوجية الغرب العلمانى وبين كيف استبعدت الدين عن نظام الحياة مما انتهى بها إلى أمراض نفسية للفرد وانحلال للأسرة وتهديد بدمار العالم .

ثم عرج على الماركسية فاستدل على تهافت أيديولوجيتها من مراجعاتها ، وعلى مصادمتها للفطرة والتاريخ من نكسات ممارستها .

وعلى ظلمات العصر أسقط إشعاع الإسلام المشرق ليتحرر الإنسان بالتوحيد من عبودية الهوى والظن والأشياء وليهتدى إلى الفلاح بإقامة سنن الله فى بناء الأمة : أمة وسطا فى حركتها لاطغيان ولا خسران . . أمة واحدة فى ترابطها لا صراع ولا أحقاد ... أمة صارت بأخلاقها وغايتها خير أمة أخرجت للناس . . . .

حسين عاشور

المختار الإسلامى
ص. ب ١٧٠٧ القا
هاتف ٣٦٤٩٦

٥٠ ص

مطابع الأهرام التجارية